



جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

فقه السيرة النبوية (قراءة جديدة)

إعداد
د/ أسامة فخري الجندي

تقديم
أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(الأحزاب: ٢١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن السيرة النبوية المشرفة هي التطبيق العملي لجوانب كثيرة من سنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وهي نبراس مبين لنا إلى يوم الدين ، غير أن أكثر الجماعات المتطرفة في عصرنا الحاضر قد ركزت في قراءة السيرة النبوية وكتابتها وتدريسها على موضوع الغزوات كجانب تكاد تجعله وحيداً أو الأبرز - على الأقل - في السيرة النبوية ، لأنها كانت تجيد استخدام هذا الجانب في تهيج مشاعر وإلهاب حماس عناصرها وكوادرها ، بل تتخذ من ذلك وسيلة لإثارة العامة أحياناً كثيرة .

ولقد سمى القرآن الكريم الأسماء بمسمياتها الأدق ، فلم يرد في القرآن الكريم لفظ غزوة قط ، إنما عبر بلفظ يوم عما كان من نصر المسلمين يوم بدر الذي سماه الحق سبحانه وتعالى يوم الفرقان ، فقال سبحانه : " وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " .

وهكذا أيضا تحدث القرآن الكريم عن يوم حنين ، حيث يقول الحق سبحانه : " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " ، فقد كانت حروب النبي (صلى الله عليه وسلم) دفاعية ، إما دفعا لعدوان ، أو ردا لاعتداء ، أو دفعا لخيانة أو تأمر ، أو لنقض الأعداء عهدهم معه (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يكن أي منها اعتداء على أحد ، فكان الأنسب والأدق التعبير عنها بلفظ يوم وليس بلفظ غزوة ، وهو ما نعتمده ونراه الأدق في التعبير ، وضعا للأمور في نصابها وتسميتها بمسمايتها التي سماها القرآن الكريم بها وآثرها على غيرها ، وهو ما عبر عنه بعض الكتاب والمؤرخين المدققين في مؤلفاتهم تحت عنوان : " أيام العرب في الجاهلية والإسلام " .

واننا لنؤكد أن الحرب ليست غاية ولا هدفاً لأي دولة رشيدة أو حكم رشيد ، كما أنها ليست نزهة أو فسحة ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : (لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُّوْا اللّٰهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيْتُمْوَهُمْ فَاصْبِرُوا) .

غير أن الحرب قد تكون ضرورة للدفاع عن النفس والعرض ، والمال ، والديار والأوطان ، وكيان الدول ووجودها ، وحمايتها من الأخطار التي تتهددها .

إن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شرعت لرد الظلم والعدوان، وهي محصورة في رد الاعتداء ودفع الظلم، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: { أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } ، ويقول سبحانه: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } ، ويقول سبحانه: { وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } ، بل إن الإسلام قد دعانا إلى الإقساط إلى جميع المسالمين وبرهم وإجارتهم إن استجاروا بنا ، فقال سبحانه: { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } ، وقال (عز وجل): { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ } .

وفي هذه النصوص ما يؤكد أن الإسلام لا يعرف الاعتداء أو الظلم، إنما شرع القتال أصلاً لرد العدوان والاعتداء ، فأذن الحق سبحانه للذين يقاتلون ظلماً بأن يهبوا للدفاع عن أنفسهم ، على ألا يعتدوا ، وألا يغدروا ، وألا يسرفوا في الدماء ، أو يتوسعوا فيما أذن لهم به من دفع العدوان.

وقد نهانا ديننا فقط عن ولاية من يقاتلوننا ويخرجوننا من ديارنا أو يعملون على ذلك ، فقال سبحانه: { إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ

فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

وحتى في الحرب التي هي ردّ للاعتداء نهى الإسلام نهياً صريحاً
عن تخريب العمر ، وهدم البنيان ، وكان أصحاب رسول الله (صلى الله
عليه وسلم) حين يجهزون جيوشهم يوصون قادتها ألا يقطعوا شجراً ، وألا
يحرقوا زرعاً ، أو يخربوا عامراً ، أو يهدموا بنياناً ، إلا إذا تحصن العدو به
واضطرهم إلى ذلك ولم يجدوا عنه بديلاً ، وألا يتعرضوا للزراع في
مزارعهم ، ولا الرهبان في صوامعهم ، وألا يقتلوا امرأة ، ولا طفلاً ، ولا
شيخاً فانياً ما داموا لم يشتركوا في القتال .

هذا ، وقد ظل النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في مكة
المكرمة ثلاثة عشر عاماً يتحملون أذى المشركين دون أن يؤذن لهم
بالقتال ولو دفاعاً عن أنفسهم لأسباب من أهمها وفي مقدمتها : استنفاد
سائر الوسائل السلمية في الدعوة المبنية على الحكمة والموعظة
الحسنة ، وتربية المؤمنين على أقصى درجات ضبط النفس وتحمل الأذى
في سبيل الله ، وإقامة الحجّة على الخصم ، ومنها عدم التكافؤ في
المواجهة آنذاك إذ كانت المواجهة بكل حسابات البشر محسومة لصالح
المشركين ، مما ينذر بخسائر فادحة في صفوف المستضعفين من
المسلمين حال التعجل في المواجهة ، والإسلام حريص على حفظ
الدماء كل الدماء ، فما بالك بدماء أبنائه المؤمنين به المدافعين عنه
المستعدين للتضحية بأعلى ما يملكون وكل ما يملكون في سبيله ، ومنها

لفت أنظارنا إلى أهمية الإعداد الجيد أفراداً وتسليحاً وتخطيطاً قبل الدخول في أي مواجهة مالم تفرض علينا فرضاً ، ولم يكن ثمة بُدُّ من الخروج لمواجهة العدو على نحو ما كان من النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في مواجهة المشركين في بدر وأحد والخندق وغيرها من أيامهم.

وفي التأكيد على هذا الإعداد الجيد والأخذ بأسباب القوة والمنعة ، يقول الحق سبحانه : {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}.

على أن الغاية هنا والمراد من هذه الآية إنما هو ردع العدو من أن يعتدي علينا ، فلو تحقق الردع دون قتال فإنها لأسمى غاية وأنبل هدف ، حيث يقول الحق سبحانه في شأن يوم الأحزاب: { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا } ، وفي شأن يوم الحديبية يقول سبحانه ممتناً على عباده المؤمنين بتجنيبهم القتل والقتال: { وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } ، فلما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام إلى المدينة ، وصار لهم بها دولة ووطن يدافعون عنهما ، كان الإذن بالقتال الدفاعي في قوله تعالى: { أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّا نَصِّرُهُمُ لِقَادِرٍ }.

مع ضرورة الوقوف عند الآتي:

١- في قوله تعالى: {أُذِنَ} عبّر في الإذن بالبناء للمجهول ولم يقل سبحانه : أذن الله ، ليكون العمل بالإذن على قدر الحاجة والضرورة ، وألا يستخدم الإذن على إطلاقه ، فيؤدي ذلك إلى الإسراف في القتال والدماء .

٢ - في قوله تعالى: {لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ} لم يقل سبحانه : أذن للمؤمنين ، أو للمسلمين ، أو حتى للمضطهدين ، أو من أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فلم يكن كل ذلك وحده مسوغاً لاستخدام هذا الإذن ، وإنما هي علة واحدة أن يُقاتلوا ، وأن تكون المبادرة والمبادأة من عدوهم بالقتال ، ولذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه الراشدون يوصون قادة جيوشهم ألا يبدأوا أحداً بقتال حتى يكون العدو هو البادئ بالبغي والعدوان ، وألا يأخذوا أحداً غدرًا أو خيانة حتى لو علموا بنيته فيهما ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} أي: فإن خفت من قوم غدرًا أو خيانة فاطرح إليهم عهدهم ، وردده عليهم ، وتحلل منه قبل الشروع في قتالهم.

٣ - ولم يكتف النص القرآني في قضية الإذن بأن يكون العدو هو البادئ بالقتال، بل جعل قتال المسلمين لأعدائهم لأجل ردّ بغيهم وظلمهم وعدوانهم عنهم أو عليهم ، فجعل العلة الثانية والاشتراط الثاني للإذن ظلم عدوهم لهم ، حيث يقول الحق سبحانه: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ

بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا}، وهنا يأتي التأييد الإلهي حتى لو كانوا قلة مستضعفين {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، طالما أن العلة هي ردّ الظلم وحماية الدولة والوطن لا البغي ولا الطمع .

وعندما ننظر إلى سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الجانب نجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما علم بمقدم قريش في يوم بدر جمع (صلى الله عليه وسلم) أصحابه وجعل يقول : (أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ)، فقام سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فتكلم وأحسن ، ثم قام سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتكلم وأحسن ، ثم قام سيدنا المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو (رضي الله عنه) فقال: " يا رسول الله ، امضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَتَحْنُ مَعَكَ ، وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : { اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } ، وَلَكِنْ نَقُولُ : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَىٰ بَرَكِ الْغَمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ ، حَتَّىٰ تَبْلُغَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِهِ .

وهؤلاء الصحابة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، فأحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يعرف رأي قادة الأنصار ، لأن نصوص بيعة العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج المدينة ، إذ كانوا قد بايعوا النبي (صلى الله عليه وسلم) على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأعراضهم وأموالهم مادام معهم داخل المدينة ، ولم تكن البيعة قد تعرضت لخروجهم معه خارج المدينة ، فأحب (صلى الله عليه وسلم) أن يسمع

رأيهم صراحة ، فكلما تحدث واحد من المهاجرين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (أشيروا علي أيها الناس) ، وهو يريد أن يسمع رأي الأنصار ، حتى فطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) ، فقال : **وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : أَجَلٌ ، قَالَ : فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاقِفَنَا ، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَاْمُضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوْنَا غَدًا ، إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ ، صَدُقَ فِي اللَّقَاءِ ، لَعَلَّ اللَّهُ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرُبُ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، فَسِرَّ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ سَعْدٌ ، وَنَشَطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ : (سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَاللَّهُ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ).**

ولهذا الموقف وغيره من المواقف العظيمة لسيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) كانت البشرية والمكافأة العظيمة من الله تعالى له عند وفاته ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : **(اهْتَرَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ).**

أما يوم بني قينقاع فيرجع إلى ما كان من يهود بني قينقاع الذين كان قد ملأ الحقد نفوسهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه بعد أن أعزهم الله بالنصر في بدر ، فقالوا : **" يا محمد ، لَا يَعْزُتُكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفْرًا مِنْ قُرَيْشٍ ، كَأَنْوَاعِ أَعْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ**

الْقِتَالِ ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ ، وَأَنْتَ لَمْ تَلُقْ مِثْلَنَا " ، وكشف جماعة منهم عورة امرأة مسلمة في السوق ، فلما هبَّ أحد المسلمين لسترها والدفاع عنها اجتمعوا عليه وقتلوه ، فكان لابد من التجهز لقتالهم ردعاً لبغيهم وخيانتهم فجهز النبي (صلى الله عليه وسلم) جيشاً لقتالهم وانتقل سريعاً إلى ديارهم وحصونهم ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، حتى اضطروا إلى الاستسلام والنزول على حكمه (صلى الله عليه وسلم) ."

وفي أحد كانت قريش قد جاءت لتثأر لقتلها في بدر ، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للقائهم ، ولم يبدأ هو ولا أصحابه بالقتال أو طلب قريش ، إنما هي التي أتت بقصصها وقضيضها وخيلها وخيلائها باغية تريد استئصال دعوته (صلى الله عليه وسلم) والثأر لقتلها في بدر .

وفي يوم حمراء الأسد كان أبو سفيان قد عزم إثر أخذ على العودة إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين ، فندب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه إلى الخروج لملاقاتهم ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لا يخرج معنا إلا من شهد أحداً) ، فخرج معه أصحابه وجراحهم تثعب دماً ، وهنا خشي أبو سفيان ومن معه أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد جهز جيشاً جديداً من أصحابه ، ففضلوا الهرب والانصراف إلى مكة حتى لا يضيعوا ما أنجزوه في أحد ، وبقي النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه ثلاثة أيام في حمراء الأسد لم يمسهم سوء ،

وفي شأن هذا اليوم نزل قول الله تعالى : { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ }.

وفي يوم بني النضير كان يهود بني النضير هم الذين نقضوا العهد وحاولوا اغتيال النبي (صلى الله عليه وسلم).

وفي يوم دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تعد للإغارة على قوافل المسلمين بالمدينة ثم الإغارة عليها.

وفي يوم بني المصطلق كانت قبائلهم تعد للإغارة على المدينة فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ردًا لبغيهم وعدوانهم .

وفي يوم الخندق اجتمعت الأحزاب من كل حدب وصوب لحصار المدينة ، فكان القتال دفاعًا عن النفس ، والوطن ، والديار ، والأرض ، والعرض ، وهو ما يصوره الحق سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب فيقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا

وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}.

ثم يصور سبحانه وتعالى حال المؤمنين الصادقين ، فيقول : { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا}.

وفي يوم بني لحيان ، كان بنو لحيان هم الذين غدروا بعشرة من الصحابة بالرَّجِيع ، وتسببوا في قتلهم واستشهادهم.

وفي يوم ذي قرد أو يوم الغابة كان جماعة من أعراب نجد من بني فزارة قد أغاروا على إبل للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نجد ، فكان لا بد من ردهم وتأديبهم .

وفي خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وحرصوا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين ، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال ، فكان لا بد من مواجهتهم وكف شرهم .

أما يوم مؤتة فكانت ثأراً لقتل الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي (رضي الله عنه) رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي بعثه بكتابه إلى عظيم بُصْرَى ، فعرض له شَرْحِيل بن عمرو الغساني وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر فأوثقه رباطاً ، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسول - ولا يزال - من أشنع الجرائم وأبشعها، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على النبي(صلى الله عليه وسلم)، فجهز جيشاً ووجهه إليهم .

وفي فتح مكة كانت قريش هي التي نقضت عهدها مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وساعدت حلفاءها من بني بكر على قتل خزاعة حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث بيتوهم وقتلوهم غدراً عند ماء بالقرب من مكة يُقالُ لَهُ الوَتِيرُ ، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه) إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة مستغيثاً بقوله :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا
حَلْفَ أَيِّبَا وَأَيِّهِ الْأَثَلَدَا
قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا
تُمِّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا
وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَا تُؤَا مَدَدَا
إِنْ سِيَمَ حَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا

فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدًا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وَجَعَلُوا لِي فِي كِدَاءٍ رُصْدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدَا
وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا

فقال (صلى الله عليه وسلم) : (نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ) فَمَا بَرِحَ حَتَّى
مَرَّتْ سَحَابَةٌ فِي السَّمَاءِ فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ
لَتَسْتَهْلُ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ).

ومع ذلك لما دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة فاتحاً
منتصراً أعلن العفو العام عن أهل مكة ، وقال قولته المشهورة : (يَا مَعْشَرَ
قُرَيْشٍ ، مَا تَرَوْنَ أَيْ صَانِعٌ بِكُمْ؟) قَالُوا: خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ،
فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ). وقد ترتب على
هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل.

ويوم حنين كانت قبائل هوازن وثقيف هي البائدة بالعداء ، وأعدت
العدة للانقضاض على المسلمين ، وقد سار مالك بن عوف النَّصْرِي على

رأس جيش حتى وصل إلى القرب من مكة ، فكان لابد من مواجهتهم
ورد بغيرهم وعدوانهم .

وأما تبوك فكانت ردًا لعدوان الرومان الذين كانوا يعملون على
إنهاء قوة المسلمين آنذاك ، ذلك أنهم كانوا يرونها الخطر الحقيقي على
سلطانهم ، فأخذوا يهددون ثغورهم ، وبعدون العدة للانقضاض عليهم ،
فانتدب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه للتجهز والخروج في ساعة
العسرة ، ولم يكن من الحكمة أن ينتظرهم المسلمون حتى يداهموهم
في مدينتهم ، وانتهت بفرار الروم وانسحابهم دون قتال ، وحرص النبي
(صلى الله عليه وسلم) على حفظ الدماء فلم يتبعهم واكتفى (صلى الله
عليه وسلم) بالردع الذي تحقق لهم.

ومن يتبع سائر أيام نبينا (صلى الله عليه وسلم) في ملاقات أعدائه
يجد أنها لا تخرج عن دائرة ردّ البغي ودفع العدوان وردع التآمر والكيد
له (صلى الله عليه وسلم) ولدعوته ولأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .
ومع ذلك فقد أصل ديننا الحنيف لأخلاق الفرسان في فلسفة القتال
بأنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين ، فقد كان النبي (صلى الله عليه
وسلم) يوصي قادة جيشه بقوله : (انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ
رَسُولِ اللَّهِ ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا ، وَلَا طِفْلًا ، وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا
تَعْلُوا) ، وفي رواية : (وَلَا تَعْدِرُوا ، وَلَا تَمْتَلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا) ،
وفي وصية أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) لأحد قادة جنده : " وَإِنِّي

مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً ، وَلَا صَبِيًّا ، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا ، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا ، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا ، وَلَا تُعْقِرَنَّ شَاةً ، وَلَا بَعِيرًا ، إِلَّا لِمَا كَلَلَهُ ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا ، وَلَا تُغْرِقَنَّهُ ، وَلَا تَغْلُلْ ، وَلَا تَجْبُنْ ."

وقد شدد النبي (صلى الله عليه وسلم) في النهي عن قتل الأطفال أو الذرية تشديدًا كبيرًا ، وبلغه (صلى الله عليه وسلم) قتل بعض الأطفال فوقف يصيح في جنده : (مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَ بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ ، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً) .

وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن قتل جميع من لا يقاتل وخاصة النساء ، فلما رأى امرأة مقتولة ، وكان من حالها أنها لا تقوى على القتال استنكر (صلى الله عليه وسلم) ذلك بشدة ، وقال : (مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتَلَ) ، مما يؤكد أنه لا قتل على المعتقد قط ، وأن القتل ليس مقابلًا للكفر ، إنما هو مقابل لدفع القتل ورد الاعتداء ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } .

فالقتال في الإسلام مقصور على رد الاعتداء دون تجاوز ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } ، ويقول سبحانه : { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } .

ومما يؤكد أن الحرب في الإسلام إنما هي لرد الاعتداء ودفع العدوان دون أي تجاوز أوبغي أو إسراف في الدماء ، ما شرعه الإسلام في معاملة الأسرى من حسن معاملتهم والإحسان إليهم ؛ حيث يقول الحق سبحانه : { وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا } .

وقد دعا نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفق بالأسرى ، فقال: (اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا) ، وقد أوصى أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام ، وفي قصة "ثُمَامَةَ بِنْتُ أُنَّالِ الْحَنْفِيَّةِ" ما يؤكد كيف كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يتعامل مع أسراه ، ذلك أنه عندما أسر ثُمَامَةَ بِنْتُ أُنَّالِ وَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، خَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم)، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلَنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، حَتَّى كَانَ الْعَدُوُّ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ ، إِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدُوِّ ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ

أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، يَا مُحَمَّدُ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ ، فَأَصْبَحَ دِينَكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ ، فَأَصْبَحَ بَلَدَكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ ، قَالَ قَائِلٌ: صَبَوْتَ ، قَالَ: لَا ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم).

وهذه الثقافة في معاملة الأسرى عبر عنها الشاعر الأموي الكبير

همام بن غالب التميمي المعروف بالفرزدق ، فقال :

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكُهُمْ

إِذَا أَنْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ

أما إذا فُرض علينا القتال فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا

ولا أن نتخاذل عن الدفاع عن أوطاننا ، إنما نفتديها بأنفسنا وشعارنا في

ذلك : والله إنها لإحدى الحسنين إما النصر وإما الشهادة ، حيث يقول

الحق سبحانه مخاطباً المسلمين في يوم بدر : { وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ } ، أي : ويقطع دابر الكافرين

المعتدين عليكم المتربصين بكم الذين أخرجوكم من دياركم وأموالكم، لا ذنب لكم ولا جريرة إلا أنكم آمنتم بالله ورسوله ، ويقول سبحانه : { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } ، ويقول سبحانه: { إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } ، ويقول سبحانه: { وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } ، ويقول سبحانه: { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

وقد قلت حول هذه المعاني التي تؤكد أننا أهل سلام ما لم

تفرض علينا الحرب ، فإن فرضت علينا فنحن رجالها :

من رامها سلمًا فتلك يد

أورامها حربًا فنحن رجالها

لا نعتدي أبداً ولا نرضى الخنا
إن الرجولة عندنا عنوانها
إحدى اثنتين ولا معقب بعده
النصرُ نصرٌ أو تُرى شهداءها

وإننا لعلى يقين تام في أن منزلة الشهيد من أعلى المنازل عند الله
(عز وجل) ، فالشهيد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين،
حيث يقول الحق سبحانه : { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا } ، ويقول سبحانه :
{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ، ويقول سبحانه : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } ، ويقول سبحانه : { وَلَا تَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

على أن الشهيد الحق هو من لقي الشهادة في ميدان القتال أو
بسببه مدافعاً عن دينه ووطنه وعرضه وتراب وطنه مخلصاً لوجه الله لا

لدينا يصيبها أو لصالح جماعة متطرفة يتبعها ، كما تشمل الشهادة الحقيقية من استشهاد في سبيل ذلك أثناء خدمته وأداء مهمته في إطار مؤسسات الدولة المعنية بذلك .

وقد أكدنا وما زلنا نؤكد أن إعلان حالة الحرب والسلام المعبر عنها في العصر الحديث بحالة التعبئة وعند الفقهاء بالجهاد القتالي ، ليست أمراً متروكاً لعامة الناس ، وإنما هي سلطة الحاكم في ضوء ما يقرر قانون كل دولة ودستورها ، وأنه ليس لأحد أن يخرج للقتال من تلقاء نفسه في غير ما ينظمه القانون والدستور ، وإلا لصار الناس إلى أبواب من الفوضى لا تسد .

وعليه فإن من مات على فراشه أو في بيته أو أي مكان آخر غير ما ذكرنا فإن إطلاق الشهادة عليه لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن يكون إطلاق الشهادة عليه من باب المجاز ، بأن له منزلة من منازل الشهداء عند ربهم ، وذلك لمن مات مبطوناً أو محروقاً أو غريقاً أو نحو ذلك مما وردت به السنة المشرفة ، كما في الحديث الشريف حيث يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ : المَطْعُونُ ، وَالمَبْطُونُ ، وَالعَرِيقُ ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " .

وإما أن يكون الأمر محصوراً بين التزيّد والادّعاء والكذب والمتاجرة بالدين ، كهؤلاء الذين اعتادوا الكذب واستحلوه ، فراحوا

يكذبون ويزورون ويصفون من مات حتف أنفه على مرأى ومسمع من العالمين بالشهيد كذباً وافتراءً ومتاجرة بالدين .

على أنني أؤكد أن البشرية لو بذلت في سبيل السلام والبناء ، والنماء والتنمية ، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه على الحروب والتسليح ، وتخلي الأنايون عن نفعيتهم وأنانيتهم ، لانصلح حال البشرية جمعاء ، ولتغير وجه البسيطة ، ولعاش العالم كله في سلام وأمان .

ويجب على كل عاقل رشيد مؤمن بالإنسانية محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء والتعمير لا جانب الاحتراب والتدمير ، فكل ما يدعو إلى السلام والبناء وعمارة الكون يتوافق وصحيح الأديان ، وكل ما يدعو إلى القتل والتخريب والتدمير يتناقض مع سائر الأديان السماوية ، بل يتناقض مع كل الأخلاق والقيم الإنسانية والأعراف والمواثيق الدولية ، مما يتطلب منا جميعاً العمل معاً على ترسيخ وتأصيل كل معاني السلام والوقوف في وجه دعاة الحرب والدمار من أجل سعادة البشرية جمعاء وتحقيق أمنها وسلامها .

وهذا ما دعانا لفتح آفاق أوسع أمام كتابة جديدة للسيرة النبوية المشرفة فأعلنا في مسابقة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عن بحوث في السيرة النبوية ، وتقدم الدكتور/ أسامة فخري الجندي المكلف بأعمال مدير إدارة المساجد الحكومية بديوان عام الوزارة ببحثه في

السيرة النبوية تحت عنوان : " فقه السيرة النبوية قراءة جديدة " ، فكان
الحاصل على المركز الأول بين البحوث المقدمة لهذا الموضوع ، وقررنا
تدقيقه وتنقيحه بمعرفة الإدارة المركزية للسيرة والسنة تحت إشرافنا ،
متمنين له السداد والتوفيق ، ومشجعين له ولزملائه على القراءة الواعية
لتراثنا ، وإعادة كتابته في ثوب جديد قشيب يراعي ظروف العصر
والمستجدات .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل ،،

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية
رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

تمهيد

الحمد لله العليّ العظيم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، رفع قدر العلم وعظمه ، وشرف العالم بعلمه وكرمه ، حضّ عباده المؤمنين على النفيّر للتفقه في الدين ، فقال وهو أصدق القائلين : ﴿قُلْ لَا فِرْقَةَ مِّنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾^(١).

والصلاة والسلام على من نزلت عليه أنوار السماء ، فأخرج الناس من ظلمة ظلماء ، إلى منهج سويّ ومحجة بيضاء ، وأخبر أن الملائكة تضع أجنحتها للعلماء ، وأن الحيتان تستغفر لهم في الماء ، سيدنا محمد الهادي إلى سبيل الرشاد ، وآله وصحبه المتزودين بخير زاد .
أما بعد :

فإن الزمن بما يحتويه من أفكار ومبادئ يسير ولا يعود ، ومهما وضعت من قوانين فإنها تُغيّر وتُبدل بما يتناسب مع زمانها ومكانها وأحوال الناس عندها ، غير أننا أمام أفكار ومبادئ وقوانين تظل باقية وخالدة وصالحة لكل زمان ومكان ، وكذلك أمام قوانين لا تهتم بجانب دون جانب ، وإنما هي قوانين كلية تشمل الدين والدنيا .

إن المسلم يعيش اليوم في هذا العصر الحديث ، وقد اشتدت حاجته إلى الفهم العميق والقراءة الدقيقة لسيرة النبي ﷺ ، واستخراج كنوزها وأسرارها ، وأحكامها وتعاليمها ، والتي لا تتوقف بحدود الزمان أو

(١) سورة التوبة : آية رقم (١٢٢) .

المكان؛ إذ إن سيرة النبي ﷺ هي معينٌ لا ينضب أبداً، ففيها الترجمة الواقعية والتطبيق العملي للتعاليم القرآنية، وفيها ارتباط عالم الشهادة بعالم الغيب، وفيها صناعة الحياة وصياغتها من خلال مُعايشة مادية الأرض لقيم السماء، بما يحقق قوانين عامة لصيانة الإنسان في الدنيا والآخرة، فيصنع الإنسان جمالاً في الدنيا، وينتظره جمالٌ في الآخرة.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ قد جاء ومهمته الأولى هي الإنسان، جاء ليحقق انسجام الإنسان مع سائر الكون، جاء ليهدي الإنسان إلى تحقيق المقاصد العليا للمكلف، جاء ليضع له القوانين التي يهتدي بها في سائر شؤون حياته، جاء ليضع له الحلول التي يستطيع بها أن يواجه الأزمات التي يتعرض لها.

إن كل مسلم يجب أن يدرك أننا نعيش هدي النبي ﷺ لزمانه، وهذا ما يسمى بفقهِ الموازنات، الأمر الذي جعلنا في حاجة إلى أن نأخذ من تصرفات النبوة ما نسقطه على واقعنا المعاصر وبما يتناسب معه.

هذا إضافة إلى أن الفهم الصحيح لسيرة النبي ﷺ يؤكد على هويّة الأمة الإسلامية من حيث اللغة والثقافة والحضارة والتاريخ...، ويعمل على انتشار قيم الرسالة السماوية الخاتمة، ونبذ ما دون ذلك من أخلاق مذمومة.

إن فقه السيرة النبوية المشرفة يؤكد على البناء الفكري المستقيم الذي أراد النبي ﷺ أن يؤسسنا عليه، لا سيما في وقتنا المعاصر، فمما لا شك فيه أن الأمة تعيش فترةً عصيبة من تاريخها؛ حيث تتقاذفها الأمواج

من كل الاتجاهات ، وتكاد تعصف بها تياراتٌ كثيرة ، ومفاهيم مغلوطة ، وأفكار خاطئة ، بل تتقلب في الكثير من الأزمت ، الأمر الذي يحول بينها وبين أي تقدم أو استقرار ، ولعل من أشد هذه الأزمت التي نتعرض لها اليوم ، وهي أساس أزمت كثيرة : البناء الفكري للأمة ؛ من حيث انتشار ثقافة التشدد والانغلاق ، والفهم الضيق والمغلوطن للنصوص الشرعية ، وتوظيفها حسب الهوى والانتماء ، دون فهم المراد منها وغايتها وأسرارها والمصلحة المرجوة من خلالها ، وكذلك انتشار ثقافة الفرقة والتعصب ، وبث بذور الفتنة بين أفراد الأمة ، وضرب لُحمتها ؛ مما يكون سبباً رئيساً في الابتعاد عن هُويّة الوطن والمحافظة على لغته وثقافته وحضارته ومقدّراته .

ولا شك أن مما يعين على قراءة سيرة النبي ﷺ قراءة دقيقة وفاحصة أنها تأريخ دقيق لحياة نبي مرسل ؛ ذلك لأن كل شيء عن حياة النبي ﷺ كتب وفق منهج رصين يتسم بدقة عالية وبتوثيق فائق ؛ مما جعله صفة أساسية ورئيسة في كل ما يتناول السيرة النبوية من خلال الكتاب المدققين ، وهذه مزية خص الله تعالى بها السيرة النبوية ؛ وذلك من تمام حكمته ، ذلك أن سيرة صاحب الرسالة الخاتمة يجب أن تكون محفوظةً مصونة حتى تتعاقب عليها جميع أجيال البشرية إلى قيام الساعة ، ومن تمام حفظ السيرة النبوية فهم مقاصدها وإدراك جملة وقائعها وأحداثها ، بما يحقق فهمًا مستنيراً لها .

إن الناظر على التدقيق سيجد أن حياة رسول الله ﷺ ليست فقط في الجانب التعبدى والأخروي (عبادة ، وزهد ، ...) ، بل إننا سنجد الجانب القضائي حينما كان يتخير من أصحابه من يقيمهم على مؤسسة القضاء ، وسنجد الجانب الدبلوماسي أو ما يسمى في عصرنا الآن التعاون الخارجي ، وذلك حينما كان يُرسل ﷺ رسله إلى سائر الدول والملوك ، وسنجد الجانب السياسي في توحيد الأمة ، ويتجلى ذلك عندما دخل المدينة ، وكيف أنه ﷺ وحد بين الأطياف المختلفة في المدينة وجعلهم أمة واحدة ، حربهم واحدة ، وسلمهم واحد ، سنجد الجانب العسكري في حياته ﷺ ، ويتضح ذلك جلياً في سائر أيامه عند ملاقاته أعدائه ، سنجد الجانب العلمي ومحو الأمية وبناء أمة تأخذ بأسباب العلم ، سنجد الجانب الاقتصادي حينما كان يبحث للفقراء عن عمل ، ويعلمهم المهن والصناعات والحرف ، والتي من شأنها زيادة الحالة الاقتصادية ، وسنجد جانب الأمن الاجتماعي في أروع صورته ، حينما آخى بين المهاجرين والأنصار .

فإننا إذا أردنا أن نحقق الأمن والطمأنينة ، وأن نواجه الأزمات التي نتعرض لها ، وأن نحقق الوحدة التي أرادها الله لأمتنا ، وأن نقيم حضارة تسير حضارات العلم والتكنولوجيا بل وتتعداها ، وأن نقيم أركان دولة إسلامية على أنهم ما يكون ، وأن نحقق القيم التي تضمن لنا العدل والحق ، وأن نبذ الفتنة المفرقة والمحرّبة ، ونحقق المقاصد العليا للمكلف (العبادة - العمارة - التزكية) ... ما علينا سوى أن نتوجه إلى

سيرة النبي ﷺ ، ونحكّم منهجه في كل شئونا ، ألم يقل الله ﷻ : ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(١).

ولا شك أن مما يزيدني شرفاً أن أكتب عن سيرة النبي ﷺ، متلمساً فيها أسراراً وأحكاماً وفقهاً يبرز هدي السيرة النبوية وحكمة تصرفاتها، تلكم السيرة التي كانت وما زالت وستظل أعلى مرتقى للإنسانية في صياغة وصيانة الإنسان وصناعة الجمال في الكون .

وسوف أعتمد في هذا البحث - إن شاء الله تعالى - على مصادر السيرة النبوية، وهي متعددة ، وأهم هذه المصادر : القرآن الكريم، والسنة النبوية، وما استطعت الظفر به من كتب موثوق بها في السيرة النبوية، مع شدة إعمال العقل والقراءة الدقيقة للوصول إلى الفهم المنير المتعلق بجهة تصرفات النبوة في جميع مراحلها ؛ ليحسن مع ذلك فقه دقيق يتعلق بالسيرة النبوية المشرفة .

وقد لاحظت أن من يكتب في السيرة النبوية المشرفة إما أن يركز على الأحداث التاريخية بذكر تصرفات النبوة إزاءها ، وإما أن يركز على جانب الشمائل المحمدية ، وسأحاول - إن شاء الله تعالى - أن أجمع بين الأمرين ، بالإضافة إلى فقه تصرفات النبوة ؛ مما يؤكد أننا نعيش هدي النبي ﷺ لا زمانه، فنأخذ من كنوز وأسرار وفقه السيرة النبوية ما نستطيع أن نسقطه على واقعنا ، وبما يتناسب مع الزمان والمكان والبيئة .

(١) سورة النساء : آية رقم (٦٥) .

وسوف يكون منهجي في هذا البحث - إن شاء الله تعالى - أن أبتعد عن طريقة السرد المطلقة ، وكذلك عن مجرد جمع الروايات الكثيرة المتعلقة بأحداث ووقائع السيرة المشرفة ، بل سأقوم بتبسيط الأحداث والوقائع ما أمكن ، لتكون في متناول الجميع ، مع إحالة القارئ الكريم إلى مواطن ومواضع تلك الأحداث في مظانها ، وسوف أعمل على أن أحقق في ثنايا البحث التفرقة بين ما صدر عن النبي ﷺ في مقام التشريع ، وما كان صادراً في غير مقام التشريع ، مع ذكر القرائن المؤيدة لذلك ، وكذلك الوقوف بتأني مع الكثير من الأقوال والأفعال التي تصدر عن النبي ﷺ خلال سيرته ، وخاصة مع ما يتعلق بـ (الفتوى ، والتشريع والقضاء والنصيحة ، والإشارة على المستشار ، والتأديب ... ، وغيرها) موضحاً ذلك بالأمثلة والشواهد والأحداث ؛ لبيان حكمة التصرف ومصدره .

هذا : وسوف أحاول أن أستنبط عدداً من المعاني النادرة ، وأبينها للقراء ؛ لأصل بهم إلى :

• منهج نوراني علمي رصين ، مستنبط من تصرفات النبي ﷺ ، مع التفرقة بين جهة تصرفاته ﷺ باعتباره نبياً مُبلّغاً ، وباعتبار بشريته من حيث الإفتاء ، والقضاء ، والإمامة ؛ ليحسن مع ذلك فهم دلالات تصرفاته ﷺ بين التشريع وبين البشرية .

• نموذج معرفي جديد ، وخريطة تؤثر في التنمية والتربية والتعليم والقانون ، مستفادة من جملة مواقف النبي ﷺ .

- إعادة صناعة النفسية وبناء العقل وتربيته من جديد ، وإدراك آليات ذلك من خلال معاملات النبي ﷺ العميقة ، المتعلقة بالجانب النفسي والسلوكي والقيمي .
- تنمية الضمير وإعادة الانضباط الأخلاقي ، من خلال الإشارات الدقيقة الواردة في توجيهاته ﷺ.
- تحليل الواقع بطريقة صحيحة ؛ للوصول إلى النتيجة الصحيحة، من خلال القواعد المنظمة للفكر ، ويظهر ذلك في جلّ تصرفات النبي ﷺ؛ حيث إنه ﷺ لا يكتفي بالقراءة المجردة للأحداث والمواقف ، بل يقوم بتحليل ما وراءها ، فتنظم له الرؤية المستقبلية .
- مفاتيح الوصول إلى مصادر صناعة الثقافة والفكر المنير .
- وغير ذلك كثير مما تذخر به سيرة النبي ﷺ .
- والله أرجو أن ينفع به ، ويكون حلقة من حلقات استنباط المعاني والكنوز التي امتلأت بها سيرة النبي ﷺ.

د/ أسامة فخري الجندي
مدير إدارة المساجد الحكومية
بوزارة الأوقاف

القسم الأول

من الميلاد النبوي إلى الهجرة المشرفة

الباب الأول: البيان عن صاحب السيرة المشرفة.

الباب الثاني: من البعثة إلى الهجرة.

الباب الأول البيان عن صاحب السيرة المشرفة

الفصل الأول قبل الميلاد النبوي ... وحتى مرحلة الشباب

النسب الشريف:

إن الذي يقرأ بعمق في كتب السيرة والتراجم التي تؤرخ لآباء وأجداد النبي ﷺ في العرب ، سيجد أنه أمام آباء وأجداد كلهم سادة، يتسمون بالمجد والشرف ، يتصفون بأخلاق الحكمة والجود والكرم، يُترجمون البرّ وصلة الرّحم واقعا ، ومع أن جميعهم لم يكونوا من أهل الثراء والغنى ، إلا أنه قد انتهت إليهم الرياسة والرفادة^(١) : لمّا أثر وفضائل ومكانة تمثلوها في عصورهم المختلفة ، لا نكاد نجدها عند غيرهم .

ولا نريد هنا أن نوصل للنسب الشريف بترجمة الآباء والأجداد، بقدر ما نريد أن نبين شرف هذا النسب، فقد كان ﷺ عظيم الشرف وعريق الأصل؛ حيث كان من أشرف بيوت مكة وأكرمها وأسمائها بشهادة المؤرخين جميعا ، فهو ﷺ (أوسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفا من قبل أبيه وأمه)^(٢) .

(١) الرفادة : إطعام الحجيج .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق : مصطفى السقا ، وآخرون ، ط ٢ ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر (١٥٧/١) .

فقد جمع النبي ﷺ العراقة والأصالة في نَسَبِهِ من جهتي الأمومة والأبوة، فأما من جهة أمه ﷺ "السيدة آمنة"، فقد جَمَعَتْ في نَسَبِهَا من جهتي الأم والأب الشرفَ والمجدَ أيضاً، حيث كانت من سلالةٍ عريقةٍ أصيلةٍ، هي نتاجها .

فهي السيدة الكريمة "آمنة بنتُ وهبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلَابٍ"، وهي تجتمعُ مع "عبد الله بن عبد المطلب" والِدِ النبي ﷺ في جدَّهما الأعلى "كيلاب"^(١)، وقد كان "زُهْرَةَ" الولدَ البكرَ لـ"كيلاب بن مرة"، والشقيق الأكبر لـ"قُصَي" الذي جمع قريشاً بعد تشتت، وهو صاحبُ المآثرِ والمفاخرِ، وقد عُرفَ "بنو زهرة" بالودِّ الخالصِ لبني عبد منافِ بنِ قُصَي، والوقوفِ إلى جانبهم في السلمِ والحربِ، والأحلافِ والعهودِ، وأما جدُّها "عبد مناف" فكان يُقرنُ في الشرفِ بابنِ عمه "عبد مناف بن قُصَي"، فيقال: المنافان؛ تعظيماً وتكريماً، وأما أبوها "وهب" فقد كان سيدَ بني زهرة^(٢).

وأما عن جدِّتها لأبيها "عاتكة بنتُ الأوقصِ بنِ مُرَّةِ بنِ هلالِ السُّلَمِيَّةِ"، فقد كانت إحدى النساء اللواتي اعتزَّ بهن رسولُ الله ﷺ، فقال: "أَنَا ابْنُ الْعَوَاتِكِ مِنْ سُلَيْمٍ"^(٣).

(١) حيث كان لكِلاب ولدان : "قصي" وهو جد النبي من جهة الأب، و"زُهْرَةَ"، وهو جد النبي من جهة الأم ، انظر : نسب قريش ، لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب الزبيري، ط٣، دار المعارف ، القاهرة، (١٤/١) .

(٢) أم النبي، د. بنت الشاطي ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، وسعيد بن منصور في سننه، وأبو عاصم في الأحاد=

ولم يكن نَسَبُ السيدة "آمنة" من جهة أمِّها دون ذلك عراقية وأصالة،
 فهي ابنة "برّة بنتُ عبدِ العزّي بنِ عُثْمان بنِ عبدِ الدّارِ بنِ قُصَي"، وجدّتها
 لأمها " أم حبيب بنتُ أسدِ بنِ عبدِ العزّي بنِ قُصَي بنِ كِلاب ".
 فهذه هي السلالة العريقة الأصيلة التي أنبتت "آمنة بنت وهب"،
 والتي أهدت بعد ذلك كلَّ ما ورثته من مَجْدٍ وشَرَفٍ وكمالٍ في الأخلاق
 والقيم إلى ولدها، والذي حاز الشرفَ والكمالَ في نَسَبِه من جهتي
 الأمومة والأبوة، فكان حقاً أن يعتز رسول الله ﷺ بنسبه، فيقول: " لَمْ يَزَلْ
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنْقِلُنِي مِنْ أَصْلَابِ طَيْبَةٍ إِلَى أَرْحَامِ طَاهِرَةٍ ، صَافِيًا ، مُهَذَّبًا ،
 لَا تَتَشَعَّبُ شُعْبَتَانِ إِلَّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا " (١).

= والمثاني، انظر: المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد ، ط ٢،
 ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، (١٦٨/٧) ، وسنن سعيد بن منصور، تحقيق: حبيب
 الرحمن الأعظمي، ط ١، ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية ، بيروت، في كتاب الجهاد / باب
 جامع الشهادة، (٣٠٢/٢) ، والآحاد والمثاني، لأبي بكر بن أبي عاصم، وهو أحمد بن
 عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، ط ١،
 ١٤٠٠هـ/١٩٩١م، دار الراية ، الرياض، (٩٥/٣) .

(١) رواه أبو نعيم والسيوطي وابن كثير، انظر: دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: د.
 محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، ط ٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، دار النفائس، بيروت ،
 ص ٥٧ ، جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، للسيوطي، تحقيق: مختار إبراهيم
 الهانج وآخرون، ط ٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الأزهر الشريف، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ،
 (٤٨١/٦) ، والبداية والنهاية ، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ، مكتبة
 المعارف ، بيروت ، (٣١٨/٢) .

وأما من جهة أبيه ﷺ "عبد الله"، فقد كان على منهج والده "عبد المطلب" من حيث الشرف والكرم والجود، وقد اتسم بالجمال؛ حيث كان أجمل قريش وأحب الشباب إليها، وقد جمع في خلقه طيبة نفس، واطمئنان قلب، ورضا بما يجري به القدر، مع استعداد للفداء إن كان هناك ما يقتضيه، لم يتردد أن يقدم نفسه لأبيه ليوفي بنذره، فاستعد لأن يذبح، فكان الذبيح الثاني بعد جدّه العظيم "إسماعيل" عليه السلام.

وقد كان "عبد الله" مثلاً في كمال العفة، فهو العفيف الذي لا يريد إلا الحلال، ولا يتعد عنه، ولقد كان شعاره الذي التزمه طيلة حياته ما عبّر عنه بقوله: (أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ... وَالْحِلُّ لَا حِلُّ فَاسْتَبِيْنُهُ)^(١).

إذن فقد صان "عبد الله" نفسه، وصان أمّانته، وصان خلقه وكرامته، فأراد أن يعيش طاهراً كريماً محبوباً، لينقل وديعة الله تعالى للإنسانية، الذي ينقل رسالته سبحانه وتعالى إلى خلقه، وذلك بزواج طاهرٍ حلال^(٢).

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، لمحمد بن محمد بن محمد بن أحمد، المعروف بابن سيد الناس، اليعمري الربيعي، أبو الفتح، فتح الدين، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، دار القلم، بيروت، (٢٩/١)، وإمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، لأحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئ، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، (٣٩/٤).

(٢) خاتم النبيين ﷺ، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، ١٤٢٥هـ، دار الفكر العربي، القاهرة، (٨٨/١) بتصرف.

وإذا ذهبنا إلى الجدِّ الأول له ﷺ، "عبد المطلب"، واسمه "شيبة الحمد"، فقد تولى الرفادة والسقاية^(١)، يُطعم الحاجَّ ويسقيه إلى أن حفر زمزم، وكان "عبد المطلب" من حكماء العرب، وأجودهم كفاً، وأبعد الناس عن كل موبقة، اتسم بالحلم وحسن التصريف، دأب على إطعام المساكين حتى كان يرفع للطير والوحوش في رعوس الجبال من مائدته، وكان يقطع يد السارق، ويفي بالندى، ويحرم الخمر على نفسه، ويمنع من الزنا، ومن نكاح المحارم، وقتل الموءودة، ويمنع كذلك من الطواف بالبيت عرياناً، ويأمر بنيه بمكارم الأخلاق، وكان يتحنث بغار حراء، وكان سيد قريش حتى مات^(٢).

وأما الجدُّ الثاني له ﷺ "هاشم"، واسمه "عمرو": فقد كان أصبَح^(٣) بني عبد مناف، وأنقَبهم صحيفة؛ ولذلك كان له الشرف على إخوته، وكان ذا مكانة عند العرب عامة، وعند قريش خاصة^(٤)، وهو صاحب إيلاف قريش؛ حيث إنه كان أول من سنَّ الرحلتين لقريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن، والثانية في الصيف إلى الشام، وكان "هاشم" رجلاً شريفاً، طموحاً، ذكياً، وتولى السقاية والرفادة.

(١) سقيا الحج.

(٢) المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود، لمحمود محمد خطاب السبكي، تحقيق: أمين محمود محمد خطاب، ط ١، ١٣٥٣هـ، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر،

(٩٨/٩).

(٣) أي: أشرقَ وجملَ.

(٤) خاتم النبیین ﷺ (٨٣/١).

وأما الجدُّ الثالث له ﷺ "عبد مناف"، واسمه المغيرة: فكان يقال له "قمر البطحاء"؛ لحسنه وجماله، وكانت قريشُ تسميه "الفياض"؛ لكرمه، ونبل أمره^(١).

وعن جدِّه الرابع ﷺ "قُصَي"، واسمه "زيد"، فقد كان عظيمَ الشرف، وإليه كانت الحجابة^(٢)، والسقاية، والرفادة، واللواء^(٣)، والندوة^(٤)، وهو الذي جمع الله به قريشًا، فسمي مُجَمَّعًا؛ لما جمع من أمرها، ويسمى قُصَيًا لتقصيه أمورها^(٥).

وأما جدِّه الخامس ﷺ "كِلَاب"، وهو أحدُ الرِّجال الذين تفاخر بهم قريش، فهو جدُّ النبي ﷺ لأبيه ولأمه؛ حيث كان له ولدان "قُصَي" وهو جد النبي لأبيه، و"زُهرة" وهو جد النبي لأمه، فالتقى فيه الشرفان^(٦). وهكذا كان النَّسَب الشريف لرسولِ الله ﷺ في سائرِ الآباء والأجداد، من كلِّ من جهتي الأم والأب، والذي يشهدُ بِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ

(١) خاتم النبيين ﷺ (٨٢/١).

(٢) سدانة البيت.

(٣) للحرب.

(٤) للمشورة.

(٥) الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني المعروف بالبُرِّي، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض، (٥٦/١).

(٦) خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، (٨١/١).

وَنَسَبِهِ، وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَنْشَأِهِ، حَتَّى إِتَّهَمُوا كَانُوا يُسَمُّونَهُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ: "الْأَمِين"، وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ "أَبُو سُفْيَانَ" حِينَ سَأَلَهُ "هَرَقْلُ" مَلِكُ الرُّومِ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: (هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ) (١).

فكان ﷺ نخبه بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، وقد عبّر النبي ﷺ عن شرف هذا النسب، فقال: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" (٢). وقال العباسُ: بَلَّغَهُ ﷺ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: "مَنْ أَنَا؟" قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: "أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بِيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا" (٣).

وقد انضم إلى ذلك كله أن الله سبحانه وتعالى تعهده من الصغر بالتربية المثلى، والتأديب البالغ، فلا تعجب إذا كان ﷺ المثل الكامل في جسمه، وفي عقله، وفي دينه، وفي خلقه، وفي نسبه، وحسبه، "وَالنَّاسُ

(١) أخرجه الإمام البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، (٨/١).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفضائل، بابُ فَضْلِ نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النَّبُوءَةِ (٤/١٧٨٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/١).

مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا" (١).

مولده ﷺ :

ولد ﷺ بمكة المكرمة (٥٣ ق.هـ/٥٧١م) في أشرف بيت من بيوت العرب - كما أشرنا في النسب الشريف - ؛ حيث تزوج "عبد الله بن عبد المطلب" - وكان من أحب ولد أبيه إليه - بالسيدة "آمنة بنت وهب" وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، فحملت برسول الله ﷺ، ولم يلبث طويلاً أن ذهب إلى الشام في عيرٍ من قريش في تجارة، وفي طريق عودتهم توقف "عبد الله" عند أخواله (بني النجار) لشعوره بالمرض، وأقام أياماً قليلة عندهم ثم مات، ودفن بالمدينة، وما زال رسول الله ﷺ جنيناً في بطن أمه، وكان عمر "عبد الله" وقتها على أثبت الأَقَاوِيلِ وَالرُّوَايَاتِ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً (٢).

وُتُبِّرُزُ كَتَبُ السَّيْرِ صَفَةً حَمَلِ السَّيِّدَةِ "آمنة" بأنها لم تر أخفَّ ولا أيسر منه ؛ حيث كانت تعبر بنفسها عن حملها قائلة : (مَا شَعَرْتُ أَنِّي حَمَلْتُ بِهِ ، وَلَا وَجَدْتُ لَهُ ثِقَلًا كَمَا تَجِدُ النِّسَاءُ) (٣).

ولسنا بصدد ذكر الاختلافات في يوم وشهر ميلاده ﷺ، فمن مجموع

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، بابُ عَلَامَاتِ النَّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ (١٧٨/٤)، (١٩١/٤)، ومسلم في كتاب الفضائل، بابُ مِنْ فَضَائِلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، (١٨٤٦/٤).

(٢) الخصائص الكبرى : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت (٢٢/١).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت، (٧٨/١).

الروايات وكتب السير نستطيع أن نقول: إن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين، لقوله ﷺ لما سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ؟ قَالَ: "ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ - أَوْ أُزِّلَ عَلَيَّ - فِيهِ" ^(١). وأما عن شهر ميلاده فالصحيح أنه في شهر ربيع الأول، وكان ذلك في عام الفيل .

ولعل هذا التحري الدقيق في البحث والجمع بين الأقوال، دليل عميق على محبة النبي ﷺ من ناحية، ودليل آخر على التدقيق في ذكر كل ما يتعلق بسيرة النبي ﷺ.

وولد ﷺ، فأرخ ميلاده ابتداءً التمهيد لما أرادته الحكمة الإلهية من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فكان ميلاده ﷺ تمهيداً لذلك، بمعنى: أن الله - سبحانه وتعالى - في هذه الفترة التي سبقت الرسالة، أحاط الله برسوله عناية ورعاية؛ ليكون أهلاً لأن يحمل أعظم رسالة، ولأن يبشر بالدين العام ^(٢).
من إرھاصات ^(٣) النبوة يوم مولده ﷺ:

تطالعنا بعضُ كتبِ السيرِ أن هناك أحداثاً وقعت في الكون قد اقترنت بميلاده ﷺ من إرھاصاتٍ ومقدماتٍ وبشائرٍ لهذا الميلاد النبوي، منها ^(٤):

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب استِحْبَابِ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ (٨١٩/٢).

(٢) الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، دار التراث العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٧م، ص (٤٤).

(٣) الإرھاص: هو الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله للنبي قبل مولده أو قبل بعثته؛ تأسيساً للنبوة، ولفناً لأنظار قومه إليه، وتوجيهاً لقلوبهم نحوه، وذلك كالنور الذي كان في جبين آباء نبينا ﷺ، وكإضلال الغمام لنبينا ﷺ، وغير ذلك. انظر: التعريفات للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م، ص ٣١، ومادة (رهص): المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، (٣٧٧/١)، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م، ص (١٤١).

(٤) انظر في ذكر بعض هذه الأحداث: خاتم النبیین ﷺ، محمد أبوزهرة، (١٠٤/١ وما بعدها).

- ظهور النور حتى أضاء قصور الشام ، فلقد رأت السيدة "آمنة" حين حملت به ﷺ كأنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام، فحين سئل ﷺ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: "دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عَيْسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورَ الشَّامِ" (١).
- تزايلت (٢) الأصنامُ وخرت عن أماكنها ، وتمايلت على وجوهها .
- انطفأت نيرانُ فارس ، وكانت مشتعلة منذ ألف عام لم تنطفئ مطلقاً، وقد كان الفرس يعبدونها من دون الله ﷻ.
- تصدّع إيوانُ كسرى ، وتهدمت منه أربع عشرة شرفة ، وقد كان من أعجب منشآت عصره من حيث القوة والجمال .
- جفت بحيرةُ ساوة ، وكانت تملأ السهلَ والجبلَ بمائها ، ولم تجف من قبل .

(١) أخرجه الدارمي وأحمد وابن حبان ، انظر : سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي، ط١/١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ، (٢٠/١) ، ومسند الإمام أحمد، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، عالم الكتب ، بيروت (٢٦٢/٥) ، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي، كتاب التاريخ، ذُكِرَ كِتَابَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عِنْدَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت، خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، (٣١٣/١٤).

(٢) أي : تفرقت وتباعدت.

- وفي العام الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ، انهزم جيش أبرهة الأشرم، الذي عزم على هدم الكعبة .

من فقه هذه الإرهاصات :

لقد ذُكرت هذه الأحداث والوقائع التي صاحبت ميلاد النبي ﷺ في كثير من كتب السيرة والتاريخ ، حيث أشارت إلى الإرهاصات من خلال السرد التاريخي لأحداث السيرة ، أو من خلال عناوين مخصصة عن الإرهاصات والبشارات ، غير أنه لم نجد تعليقاً على البعض منها ، في إشارة إلى الرضا بها والاطمئنان إليها ، أو لسكوت القرآن عنها ، ومن ثمَّ كان الحكم عليها بضعفها، الأمر الذي جعل البعض يذهب إلى عدم ذكرها ؛ لعدم وجود فائدة منها للدعوة، أو إلى رفضها^(١)؛ بحجة خروجها على عادة العقل .

وهنا نقول : إن مثل هذه الإرهاصات التي وقعت لا يستبعدُها العقل ولا يُحيلُها، كما أنها ليست مجرد خرافاتٍ أو خيالاتٍ ؛ لأنها خالفت مجرى العادات، بل هي مقبولة من جهة العقل، فهذه الإرهاصات هي من خوارق العادات التي تجيء بقدر الله ﷻ، ومعلوم أن التقدير الإلهي لا يتقيد بالعادات، ولا بما يجري بين الناس من أسباب ومسببات ؛ لأنه سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات^(٢).

(١) وأغلبهم من المستشرقين غير المؤمنين بالإسلام .

(٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد أحمد غلوش، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، مؤسسة الرسالة، ص(١٦٤) .

ومع ذلك فنحن نُرجِّحُ صدقَها ، ولا نُلْزِمُ الناسَ بالإيمانَ بها ، فليس من الإيمان أن نؤمن بأن إيوانَ كسرى ارتجف ، ولا أن النار خمدت، ولا أن الوجودَ قد استنار عند ما شرفَ النبي ﷺ هذا الوجودَ ؛ لأن هذه الأمور ليست جزءاً مما دعا النبي ﷺ إلى الإيمان به ؛ إذ إن ما يجب الإيمان به هو ما دعا إليه، وما تكلم به عن الله - سبحانه وتعالى -، وما نطق به القرآنُ الكريم، وحكم به الديانُ^(١).

إن القائلين بهذه الإرهاصات لا يتخذونها دليلاً على معرفة الله والتصديق بالرسالة، وإنما يتصورونها رمزاً قَدَرِيًّا لإعلان جزء من القدرة المتحكمة في هذا الكون، وتهيئة العقول لاستقبال منقذ البشرية، ومحرر الإنسان من ظلمات الطغاة، وعبث العابثين، المرسل من الله العزيز الحكيم^(٢).

كما أننا لا بد وأن نشير إلى أن هناك ما يسمى الآن في القضايا العلمية المعاصرة بدلالة وجود المنبّهات والمؤثرات على إثارة السلوك الإنساني، ومن ثم نجد فقه التهيئة والإقبال والإيقاظ إذا وقعت أحداثٌ قبيل عرض الشيء المهم المتعلق بها؛ لينتبه الغافلون، ويستيقظ النائمون .

وبناءً على ما سبق: فإذا عَرَضَتْ لنا السيرةُ أن أشياء من الكون فرحت بمولد الرسول ﷺ أو حدثت منها أشياء ، فذلك أمر لا نستبعده على كون مسبِّح لله، عارف بحق الله، وأيضاً لسنا نحن المطلوبين بأن نؤمن بهذا،

(١) انظر: خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة ، (١٠٥/١) ، وما بعدها بتصرف .

(٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص (١٦٦) .

ولكن الذين آمنوا بها هم الذين شاهدوها، وهم الذين سمعوا عنها، فالذين سمعوها حجة على أنفسهم، ونحن نتلقى عنهم الخبر، فإن كنا موثقين لهم في الخبر صدقناه، وإن لم يتسع ظننا لتوثيقهم في خبرهم فنحن أحرار في أن نصدق أو لا نصدق، ولكن منطق الوجود لا يمنع حدوث شيء من ذلك أبداً، فإذا ذُكر أن إبان كسرى قد انشق، فماذا في ذلك من الدهشة؟ وماذا في ذلك من العجب؟^(١).

إرضاعه ﷺ وشق صدره :

أولاً : الرضاع :

بعد ميلاد النبي ﷺ، أرضعته أمه بضعة أيام لا تتجاوز الثلاثة إلى السبعة أيام، ثم أرضعته "ثُوَيْبَةُ" مولاة "أبي لهب" بضعة أيام أخرى، وقد أشار النبي ﷺ إلى إرضاعها له فقال: "أَرْضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ"^(٢)، ثم بعد ذلك أرضعته السيدة "حليمة السعدية"؛ حيث كان من عادة العرب أن يُرضعوا أبناءهم خارج مكة، فيرضعهم في الصحراء المنطلقة، مكاناً وجواً؛ ليشبوا في صحة تامة، جسماً وعقلاً، وكذلك لما في هواء البادية من الصفاء، وفي أخلاق البادية من السلامة والاعتدال، والبعد عن مفاسد المدنية، ولأن لغة البادية سليمة أصيلة^(٣).

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص (١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب الشَّهَادَةِ عَلَى الْأَنْسَابِ، وَالرِّضَاعِ الْمُسْتَفِيزِ، وَالْمَوْتِ الْقَدِيمِ (١٦٩/٣)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب تَحْرِيمِ الرَّيْبَةِ، وَأَخْتِ الْمَرْأَةِ، (١٠٧٣/٢).

(٣) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ط ١٢، ١٤٢٥ هـ دار ابن كثير، دمشق، ص (١٦٠).

وقصة الرضاع مشهورة تناولتها كتب السير بالتفصيل ، من حيث
قدوم السيدة "حليمة السعدية" إلى مكة تتلمس من ثُرُضْعُه ، ثم قبولها
في النهاية للرسول ﷺ لما لم تجد غيره، ثم ما نزل بها وبديارها من أثر
إرضاعها له ﷺ من البركة، والإكرام، والخير، والرزق .

وخلال حياته ﷺ في رعاية "حليمة السعدية" وقعت للنبي ﷺ بعض
من الإرهاصات التي دلت على عناية الله به، وحفظه إياه، وعلى بركات
وخيرٍ وفيرٍ لها ولدارها، حيث درَّ ثديها باللبن بمجرد حلول الرسول ﷺ
عليها، فارتوى هو وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من
الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وامتلاً ضرعُ راحلتها باللبن
بعد أن كان يابساً، فشبت هي وزوجها، وسبقت راحلتها الركبَ بعد أن
كانت عجفاءً تسير في مؤخرة الركبان، وحيثما حلت أغنامُ حليمة تجد
مرعى خصباً، ولا تجد أغنامٌ غيرها شيئاً، وكان ينمو نمواً سريعاً لا يشبه نمو
الغلمان، وكلُّ ذلك ما هو إلا شيءٌ يسير مما في قدرة الله، ووقوعه
لأصفيائه من البشر^(١). وبعد أن مضى عامان، قدمت به السيدة "حليمة"
إلى أمه السيدة "آمنة"، وهي حريصة أشد الحرص وأتمه على أن يبقى
معها ؛ لما يرون فيه من البركة التي نزلت بهم منذ قدومه ، وظلت بها
حتى وافقت على عودته ليكمل رسول الله السنوات الأربع الأولى في
طفولته معها^(٢).

(١) السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، محمد بن مصطفى بن عبد السلام
الديبسي، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس، القاهرة، إشراف: الأستاذ
الدكتور عفت الشقاوي ، عام ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م ، ص (١٦٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، (٣٠١/١) بتصرف .

ومن فقه هذه المرحلة :

- أن خيار الله للعبد هو الأفضل مطلقاً، فمعلوم أن الخير الذي عند الله فوق الخير الذي عندنا، والسيدة "حليمة" أخذت النبي ﷺ، وكانت ترجو أن تفوز بطفل يكون من ورائه الخير والمعروف لها، خاصة وأنها مرت بسنةٍ شهباء^(١)، ليس عندهم شيءٌ، وأصابهم الجوعُ، حتى إنها ما كانت تجد في ثديها ما يُغني طفلها، وهذا درسٌ رصينٌ من فقه هذه المرحلة، وهو أن يطمئن كلُّ مسلمٍ بقلبه إلى قدر الله ﷻ واختياره، وأن يستقبل جميعَ أقداره ﷻ بالرِّضَا .

- تعلّم رسول الله ﷺ في بادية بني سعد اللسان العربيَّ الفصيح ؛ ولذلك عندما قال له أبو بكر : مَا رَأَيْتَ أَفْصَحَ مِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : "وَمَا يَمْنَعُنِي ، وَأَنَا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَرْضَعْتُ فِي بَيْتِي سَعْدٌ"^(٢)، ومن هنا فلا بد من حسن الاهتمام باللغة العربية في تربية الأجيال، فمن المعروف أن اللغة العربية هي لسان الإسلام ووحية المعجز، ولغة العربية امتيازٌ على كلِّ لغات العالم، وهو الخلود الذي أراده الله لها بخلود القرآن الكريم، فلقد كان من بين الغايات عند العرب قديماً نحو تربية الأطفال في بداية حياتهم في البادية إتقان اللسان العربي الفصيح، وهذا درسٌ عظيمٌ لنا

(١) من الجذب والفقر والجوع.

(٢) السيرة الحلبية - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٣١/١)، والروض الأنف في شرح السيرة النبوية، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، ط ١، ١٤١٢هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٦٧/٢).

للمحافظة على هويّة هذه الأمة والتي هي لغة القرآن (اللغة العربية)،
ومما يؤكد هذا الأمر ما قام به عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كتب إلى أبي
موسى الأشعري موجّهاً : (أَمَّا بَعْدُ، فَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الْعَرَبِيَّةِ،
وَأَعْرَبُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ) ^(١).

اللغة العربية وحسن تنزيل النصوص على معانيها :

ثم إنه بلا شك أن فهم اللغة العربية سبيلٌ رئيسٌ لفهم الآيات
القرآنية المشرفة، وقد قال الإمام الشاطبي (رحمه الله) : (فَمَنْ أَرَادَ
تَفَهُّمَهُ، فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ يُفْهَمُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَطَلُّبِ فَهْمِهِ مِنْ غَيْرِ
هَذِهِ الْجِهَةِ) ^(٢).

إن اللغة العربية بالإضافة إلى كونها من هويّة هذه الأمة، فهي
الجسر الذي يصلنا بالقرآن الكريم ويربطُ بين السنة المشرفة والتراث
الإسلامي العظيم على مر العصور والأزمنة، وإذا غفل الناس عن اللغة
العربية، فلا شك أن هذا طريقٌ لانقطاع الاتصال بينهم وبين فهم المراد
من النصوص المُشرفة، وقد قال الإمام "الشاطبي" أيضاً : (الشَّرِيعةَ عَرَبِيَّةٌ،
وَإِذَا كَانَتْ عَرَبِيَّةً، فَلَا يَفْهَمُهَا حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا مَنْ فَهَمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ حَقَّ
الْفَهْمِ) ^(٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب فضائل القرآن / باب ما جاء في إعراب القرآن، (١١٦/٦)،
ومعجم علوم القرآن، إبراهيم محمد الجرمي، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، دار القلم، دمشق،
ص (٤٠).

(٢) الموافقات في أصول الفقه، إبراهيم بن موسى الشاطبي اللخمي الغرناطي المالكي،
تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، (٦٤/٢).

(٣) الموافقات في أصول الفقه، للشاطبي، (١١٥/٤).

ولا يفوتنا أن نُنبّه أيضًا إلى أمر رئيس ، وهو أن من يقرأ التاريخ قراءة دقيقة سيجد أن اللغة العربية كانت وما زالت واحدة من الركائز الرئيسة للحفاظ على الهوية ، فعلى مر التاريخ كانت هناك محاولات إلى إحلال اللهجات العامية محل اللغة العربية الفصحى، غير أن الأزهر الشريف حافظ على هذه الهوية العربية ووقف أمام ذلك، ونحن الآن في عصر العولمة وتكنولوجيا العصر التي لا تعرف توقفًا، والمطلوب أن نحافظ على الهوية العربية .

ثانيًا : شق صدره ﷺ :

لقد بدأ رسولُ الله ﷺ في مرحلة النمو والتعلم في قبيلة (بني سَعْدِ بْنِ بَكْرِ) حتى صار يمشي ويتحدث، وقد اعتاد في كلِّ يومٍ بعد الاستيقاظ على الخروج مع أخيه يسوقان أغنامهما، وهكذا امتلأت أيامهما بكل معاني البهجة والبراءة والجمال، حتى جاءت هذه اللحظة التي كانا فيها معًا خلف أغنامهما، وكانا يلعبان مع الغلمان .

وقد انطلق الغلمان إلى السيدة " حليلة " يقولون : (إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ)، إِذَا نَا بوقوع شق صدره ﷺ ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ (عليه السلام) وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ دَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَامَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغُلَّامُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمَّهِ - يَعْنِي ظَنُّرَهُ

- فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُبِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَعِحٌ اللَّوْنِ "، قَالَ أَنَسٌ:
«وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ»^(١).

ومن فقه شق صدره ﷺ:

- الإشارة الدقيقة إلى حفظ وعصمة الرسول ﷺ وهو لا يزال طفلاً
صغيراً؛ حيث قد أزيل منه حظ الشيطان؛ ما يترتب عليه أن ينشأ نشأة لا
مجال لعمل الشيطان معه، وفي ذلك يقول "الزرقاني": (وَكَانَ هَذَا فِي
زَمَنِ الطُّفُولِيَّةِ فَنَشَأَ عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْعِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ)^(٢).

- التسليم المطلق لطلاقة قدرة الله ﷻ، وعدم التعرض لما ليس
في حدود العقل بالتأويل، وإلا فإن كل إنسان يعتمد فقط على عقله،
ويغفل واجبه تجاه النص المشرف، فإنه لم يلبث حتى يقع في تيه؛
ولذلك يقول ابن حجر: (وَجَمِيعُ مَا وَرَدَ مِنْ شَقِّ الصِّدْرِ وَاسْتِخْرَاجِ الْقَلْبِ
وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض
لصرفه عن حقيقته لصالحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك)^(٣).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء يرسل الله ﷻ إلى السماوات، وفرض
الصلوات، (١٤٧/١).

(٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أبو عبد الله محمد بن عبد
الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (المتوفى:
١١٢٢هـ)، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، (٤٩/٨).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط
١٣٧٩هـ، دار المعرفة، بيروت، (٢٠٥/٧).

ولقد ترتب على هذا الحدث خوفٌ عند السيدة " حليلة " عليه،
فردّته إلى أمه السيدة " آمنة " بعد هذا الحدث، وهكذا عاد ﷺ إلى أمّه وقد
جاوز الرابعة من عمره ؛ لتعمل على رعايته وتنفاني في عنايته وحفظه
وتربيته وغرس قيم آبائه وأجداده في مدة لم تطل أن تعيشها معه ﷺ ،
والتي لم تتجاوز عامين ؛ حيث توفيت السيدة " آمنة " وكان عمره ﷺ
حينئذ ست سنوات.

في كنف جده ثم عمه :

توفيت السيدة (آمنة بنت وهب) بالأبواء⁽¹⁾ بين مكة والمدينة، حيث
كانت قد قدمت برسول الله ﷺ على أخواله من بني عدي بن النجار،
تزوّرهم به ، ومعها أم أيمن تحضنه ﷺ ، وهم على بعيرين، فنزلت به في دار
النابعة، فأقامت به عندهم شهراً، ثم رجعت به إلى مكة، فلما
كانوا بالأبواء توفيت هناك، وكان رسول الله ﷺ حينئذ ابن ست سنين.

أولاً : من فقه هذه الزيارة :

- سعةُ ذهن رسول الله ﷺ ، وقوة ذاكرته، وتأصيله للماضي، وحبّه
لذلك الوطن المؤقت الذي عاش فيه ولو أياماً قليلة، فيتذكر لنا ﷺ بعضاً
مما وقع له، في إشارة لطيفة إلى أن المكان الذي يعيش فيه الإنسان ولو
قديراً يسيراً من الزمان، ليس مجرد نقطة جغرافية نزل بها وانتهى الأمر،
بل يحمل هذا المكان قَدراً من الأحداث وقعت فيه ؛ فيتبوأ مكانة في
القلب والعقل لا تُنسى ، فكيف بوطنٍ رصينٍ وُلد ونشأ وتربى وتعلم به
الإنسان !؟

(1) الأبواء : قرية على يمين الطريق المتجه إلى مكة المكرمة من المدينة المنورة .

فهذا رسول الله ﷺ كان يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك ، فلمَّا نَظَرَ إِلَى الْأُطَمِّ (١) بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، عَرَفَهُ، وَقَالَ: " كُنْتُ الْأَعِيبُ الْأُنْسَاءَ - جَارِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ - عَلَى هَذَا الْأُطَمِّ وَكُنْتُ مَعَ غُلَمَانٍ مِنَ أَخْوَالِي نُطِيرُ طَائِرًا كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِ "، وَنَظَرَ إِلَى الدَّارِ، فَقَالَ: " هَهُنَا نَزَلْتُ بِي أُمِّي، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْرُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَحْسَنْتُ الْعَوْمَ فِي بَيْتِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ (٢).

وكذلك لما مرَّ رسولُ الله ﷺ في عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ بِالْأَبْوَاءِ، قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمَّهِ "، فَاتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَصْلَحَهُ وَبَكَى عِنْدَهُ، وَبَكَى الْمُسْلِمُونَ لِبُكَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: فَقَالَ: " أَدْرَكَنِي رَحْمَتُهَا فَبَكَيتُ " (٣).

ولا شك أن هذا التصرف من رسولِ الله ﷺ يؤكد على تلك الأحاسيس الهائلة بينه ﷺ وبين أمِّه، يتذكر من خلالها تلك الأمومة الرائعة التي تعهدها بالتربية، وتغانت في رعايته وحفظه.

- حكمة الأم حيث ملأت وجدانه بالحديث عن مجد أبيه (عبد الله بن عبد المطلب)، وما كان يتعلق به من بطولات وملاحم القوة وقصة الغداء، بل ذهبت به بعد أن تأكدت من بوادر النضج والاكتمال

(١) الأطم: الحصن أو البيت الكبير.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، ط ١٩٦٨/١م، دار صادر، بيروت، (١١٦-١١٧).

(٣) المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ لعز الدين بن جماعة الكتاني، تحقيق: سامي مكي العاني، طبعة ١٩٩٣م، دار البشير، عمان، ص (٢٧).

عنده إلى زيارة المكان الذي مرض فيه والدّه، والقبر الذي دُفن فيه ؛ لترتبط بين أحداث ووقائع غرستها فيه عن أبيه، وبين أن يعايش بنفسه والدّه صاحب تلك الأحداث والوقائع، فيُطالعُ في صمتٍ روعة التاريخ الذي ذُكر له عن أبيه وهو أمام قبره.

- انعكس حبُّه ﷺ العميق لأمّه الراحلة - والذي ظهر جلياً عند زيارته لقبرها- على كل أمٍّ في هذا الوجود ، فدأب ﷺ على توعية الأمة كلها بما للأئمة من مكانٍ ومكانة، وقد ترجم ذلك ﷺ عملياً في تكريمه الموصول والدائم لمرضعته (تُؤَيِّبَة) مولاة أبي لهب، فكان يصلُّها وهو بمكة، ولما هاجر إلى المدينة، لم يقطع هذه الصلة بها، بل كان يبعث إليها بصلة وكسوة إلى أن ماتت، وتتسامى هذه الصلة حتى بعد موتها، فلما دخل ﷺ مكة ظافراً، لم يُنسه هذا النصرُ والفتحُ المبين أن يسأل عن ولديها (مسروح)، وكذلك كان تكريمه ﷺ لحاضنته (أم أيمن)، فكان إذا رآها قال : " هِيَ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي " (١).

ولما ماتت (فاطمة) أم (علي بن أبي طالب) ﷺ، ألبسها قميصه واضطجع معها في قبرها، فقال له أصحابه : ما رأيناك صنعتَ بأحدٍ ما

(١) انظر : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ، لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت (٢١٧/١٠)، والبداية والنهاية، (٣٣٤/٦)، ونهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق : مفيد قمبحة وجماعة، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان، (٣٧٠/٢)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، (٨٨/٧).

صنعت بها ؟ فقال : " إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرَّ بي منها، إني إنما ألبسْتُها قميصي لتكسى حلل الجنة " (١).

وكان برّه بمرضعته (حليمة السعدية) دليلاً على ما يعمر قلبه من حب للأمة في كل صورها ؛ حيث كان يُحسن استقبالها، وكانت إذا أقبلت عليه يبسط لها رداءه، فتجلس عليه، ويؤنسها بجميل الحديث، وظل رسول الله ﷺ يصل (السيدة حليمة)، ويُهدي إليها، عرفاناً بحقها عليه، ومما يدل على شدة حبه لها : أنه لما أخبرته إحدى النساء بوفاتها - بعد فتح مكة - ذرفت عيناه بالدموع عليها ... (٢).

هكذا كان فقه الأمة عند رسول الله ﷺ ، والذي ظل يؤكد عليه في جملة أحاديثه عنها، ويحذّر من تعريضها لأي لون من ألوان الهوان .
فَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَّارَ الْآخِرَةَ، قَالَ: " وَيَحْكُ، أَحْيَا أُمَّكَ ؟ " قُلْتُ: نَعَمْ . قَالَ: " ارْجِعْ فَبَرِّهَا "، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَّارَ الْآخِرَةَ، قَالَ: " وَيَحْكُ، أَحْيَا "

(١) انظر : المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، لأبي عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري، تحقيق : محمد عظيم الدين، ١٤٠٥هـ، عالم الكتب ، بيروت، (٣٨/١) ، وشرح نهج البلاغة، لأبي حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، لبنان، (١٤/١٤).

(٢) انظر : أم النبي، د. بنت الشاطي، ص (١٥١).

أُمُّكَ؟" قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرِّهَا" ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ أَمَامِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِيَّيْ كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ. قَالَ: "وَيَحْكُ أَحْيَةَ أُمُّكَ؟" قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "وَيَحْكُ الزَّمَّ رِجْلَهَا فَتَمَّ الْجَنَّةُ"^(١).

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدِمْتَ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ وَرَاهِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: "صَلِّيْهَا"^(٢).

وهكذا ظل ﷺ يأمر أمته ويوجهها إلى إدراك مكانة وجلال الأم وموفور كرامتها؛ مما يدفعنا إلى أن نترجم ذلك تطبيقاً عملياً وواقعياً مجسداً في جميع مراحل حياتنا لا سيما عند الكبر.

ولا يفوتنا أن نوكد أيضاً على أن دور الأم دورٌ رئيسٌ وورسين في التعبئة المعرفية والثقافية الأولى لدى الأجيال، وأنها أول من تغرس القيم والأخلاق الكريمة في نفوس الأبناء، فمرحلة الطفولة من أدق مراحل الحياة التي يكون فيها قيم التأسيس وصناعة الأجيال، فلينتبه المربون لذلك، وليحسنوا صناعة العقل والوعي والفكر إذا أردنا أجيالاً نافعة منتجة، ناضجة التفكير، وسواعد حقيقية لبناء مجتمعاتهم ومن ثم أمتهم.

فلما توفيت السيدة "آمنة بنت وهب"، قبضه إليه جدُّه عبد المطلب، وضمه ورقاً عليه رقّة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويُدنيه.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب الرجل يغزو وله أبواق، (٩٢٩/٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقرين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، (٦٩٦/٢).

ومما يُظهر محبة عبد المطلب الشديدة لرسول الله ﷺ ، أنه ما كان يأكل طعاماً إلا قال: عليّ بابني - أي: رسول الله ﷺ - فيؤتى به إليه، فلما حضرت عبد المطلب الوفاة، أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته^(١).

ويُعلّل بعض العلماء سبب وصاية عبد المطلب برسول الله ﷺ لعمه أبي طالب، بأنَّ عبد الله والد رسول الله ﷺ وأباً طالبٍ أخوانٍ لأبٍ وأمٍّ أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ عبد بن عمران بن مخزوم^(٢)، وقد كان في ذلك نظرةً مستقبليةً من عبد المطلب من حيث حسن الانتقاء بين الأعمام لمن يكفل رسول الله ﷺ بعد وفاته .

وقد سُئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: "نعم ، أنا يومئذٍ ابن ثمانين سنين"، قالت أم أيمن: (رأيت رسول الله ﷺ يومئذٍ يبكي خلف سرير عبد المطلب)^(٣).

ولما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ إليه ، فأصبح معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وقد أغدق عليه من المحبة والودّ ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه^(٤).

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، (١١٨/١) .

(٢) الروض الأنف ، (ص ٣١١).

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد، (١١٩/١) .

(٤) الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة، لمحمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني، (٣٧/٢) .

ويذكر ابنُ سعدٍ في "الطبقات" أنه (كان إذا أكل عيالُ أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان إذا أراد أن يغذيهم قال: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله ﷺ، فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك، وكان الصبيان يصبحون رُمصاً شعثاً، ويصبح رسول الله ﷺ دهينا كحياً^(١)).

ثانياً: من فقه هذه المرحلة:

- أنه كان منذ الصغر يحب الجمال، ويعشق كل ما هو حسن في هذا الوجود، فكان ﷺ في تصرفاته واختياراته يُعبر عن فن رفيع من فنون الجمال والزينة؛ حيث كان يستشعر آيات الجمال في خلق الله، ويلفت النظر إلى السلوك الجمالي، الذي يمتلئ برهافة الإحساس والارتقاء بالسلوك، فقد كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنيةً يتكى عليها، فجاء النبي ﷺ فبسطها ثم استلقى عليها، قال: فجاء أبو طالب فأراد أن يتكى عليها فسأل عنها فقالوا: أخذها ابنُ أخيك، فقال: وحل البطحاء، إن ابن أخي هذا ليحسن بنعيم^(٢).

- ومما يدل على عظيم أخلاقه ﷺ في هذه المرحلة ما كان يتمتع به من قيم الحياء ونزاهة النفس وقناعة القلب، فقد كان لأبي طالب

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١١٩-١٢٠) بتصرف.

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (١/١٢٠).

جملة من الأولاد، عَيْشُهُمْ بِهِ صَفَفٌ^(١)، فَكَانَ يُوضَعُ الطَّعَامُ لَهُ ﷺ وَلِلصَّبِيَّةِ مِنْ أَوْلَادِ أَبِي طَالِبٍ، فَيَتَطَاوَلُونَ إِلَيْهِ وَيَتَقَاصِرُ هُوَ، وَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ وَتَنْقَبِضُ يَدُهُ؛ تَكْرَمًا مِنْهُ وَاسْتِحْيَاءً وَنَزَاهَةً نَفْسٍ وَقَنَاعَةً قَلْبٍ^(٢).

ثم أخذ رسول الله ﷺ يستقبل مرحلة جديدة في حياته، وهي مرحلة الشباب، فلما تم له من العمر اثنتي عشرة سنة، بدأ بالسعي نحو طلب الرزق والكسب، واشتغل برعاية الأغنام، وقد ثبت في البخاري أنه عمل على رعيها لأهل مكة على قراريط، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ: أَصْحَابُهُ، وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ"^(٣).

ثالثاً: من فقه مرحلة الشباب:

- إعداده ﷺ لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين؛ لأن الغنم وهي الضأن والمعز أضعف من الإبل والبقر، وأحوج إلى الرفق، والإنسان أضعف منها، ولذا يحتاج إلى سياسة الرفق واللين، وعدم الشدة والعنف، فكان رعي رسول الله ﷺ لا يتوقف فقط على مساعدة عمه أبي طالب؛ نظراً لضيق حاله، بل كان أيضاً دربةً لرسول الله ﷺ على رعاية البشر فيما بعد.

- أن رسول الله ﷺ قد أُلْفَ العملَ والكفاحَ منذ طفولته، واعتاد أن يهتم بما حوله، ويبذل العون للآخرين.

(١) الصفف: الشدة وضيق العيش، ويطلق على الأكل دون الشبع، أو كثرة الأكلة مع قلة ما يؤكل.

(٢) الروض الأنف، ص ٣١١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، (٥٣٠/٥).

- أنه ﷺ لم تُحفظ له في هذه المرحلة صبوة^(١)، ولا زلة^(٢)،
عاش ﷺ موفور الأخلاق، طيب الجانب، لين الحديث، لم يسجد لصنم،
أو يجالس أهل العَبَثِ، أو أهل اللهو، فقد كفاه الله بعنايته وحفظه
وإحاطته، وفي ذلك يشير رسولُ الله ﷺ بقوله: " مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا
يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ، كَلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهُمَا،
قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتَى كَانَ مَعِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِنَا نَرْعَاهَا:
أَبْصُرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفَتَيَانُ، قَالَ: نَعَمْ،
فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غَنَاءً، وَصَوْتَ دُفُوفٍ،
وَمَزَامِيرَ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةً، لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ
امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَهَوَتْ بِذَلِكَ الْغَنَاءِ، وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَنِي
عَيْنِي، فَنِمْتُ، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ:
مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ
مِثْلَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: مِثْلُ مَا قِيلَ لِي، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ، حَتَّى غَلَبَنِي
عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: مَا
فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " فَوَاللَّهِ، مَا هَمَمْتُ
بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِبُؤْتِهِ " ^(٣).

فقد عصمه الله ﷻ عن جميع مظاهر الانحراف؛ ليجعل لشباب
النبي ﷺ طريقاً دقيقاً مستقيماً بعيداً عن كل ما لا يتفق مع مقتضيات
الدعوة التي هيأه الله لها؛ لأجل ذلك كانت هذه العناية الإلهية الخاصة

(١) الميل إلى الهوى .

(٢) السقطة والخطيئة .

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، (١٦٩/١٤) .

التي تعمل على تمييز مكارم الأخلاق وتكوين شخصيته ﷺ واتجاهاته المستقبلية (الفكرية والسلوكية) في الحياة .

وبعد ... فهكذا نشأ رسول الله ﷺ يتيماً ، وقد تناول القرآن الكريم هذه المرحلة من حياته وسيرته ﷺ ، فقال تعالى : ﴿الرَّبِّجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (١).

رابعاً: من فقه هذه النشأة :

- إكرام اليتامى وحسن رعايتهم، فمعلوم أن اليتيم هو من فقد أباه، أو فقد أمه ، أو فقد أباه وأمه كليهما وهو صغير لم يبلغ الحلم ، ومعنى هذا أن اليتيم هو من فقد من يعوله ، ومن يسعى من أجله ، ومن يدافع عنه ، وبالتالي فهذا اليتيم عرضة للإهمال وللعدوان عليه ؛ لذلك وردت آيات كثيرة تأمر برعاية اليتيم ، قال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۗ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ، وكلمة (يدع) بمعنى يدفع أو يضر . فاليتيم أحوج الناس إلى الرعاية والعناية وحسن التربية ؛ لأنه إما أن يعدو عضواً نافعا ، صانعا للجمال في مجتمعه ، وإما أن يعدو مجرماً كبيراً ، يُطلق من حقدٍ على المجتمع ، فلا يرى منه إلا كلُّ شرٍّ وفسادٍ وقبحٍ .

وقد قال ﷺ: " أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا " ، وَأَشَارَ بِأَصْبَعَيْهِ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَىٰ (٣) ، وجاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " خَيْرُ بَيْتٍ

(١) سورة الضحى : الآيات (٦-٨) .

(٢) سورة الماعون : الآيات (١، ٢) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا ، (٥/٢٢٣٧) .

فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ
يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ" (١).

على أن هناك إشارة دقيقة أخرى هنا، وهي أن هناك نوعاً آخر
من اليتيم، وهو مَنْ كان له أبٌ يُهْمِلُهُ وَأُمٌّ لَا تَرْعَاهُ، فلينتبه الآباءُ والأمهاتُ
إلى صناعة الأجيال، والعمل على نشر ثقافة التكافل في المجتمع،
وإيجاد من يكونون سواعد حقيقية لبناء الأمة مستقبلاً.

* * *

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب حق اليتيم، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وآخرون، ط
١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، دار الرسالة العالمية، (٦٤١/٤).

الفصل الثاني من مرحلة الشباب إلى العمل

لم تكن قريش بلدَ زراعةٍ أو صناعةٍ ؛ ذلك لأنها كانت بوادٍ غير ذي زرع كما هو معلوم ، ولكنها كانت مشهورةً بين العرب بالتجارة ، وبالتالي فموردها الاقتصادي والرئيس هو التجارة .

والقرآن الكريم يحكي لنا رحلتي التجارة لقريش، فأحدهما كانت إلى اليمن، ينقلون بضائعَ الرومانِ إلى الفرس، والثانية : كانت إلى الشام، ينقلون بضائعَ الفرسِ إلى الرومان. وكانوا في الرحلتين آمنين والناس يتخطفون، وكانوا إذا عرض لهم عارضٌ، قالوا : نحن أهلُ حرم الله، فلا يُعرض لهم. فأعلمَ الله سبحانه أن من الدلالة على وحدانيته ما فعل بهؤلاء لأنهم ببلد لا زرع فيه، وأنهم فيه آمنون^(١)، قال تعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِهْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٢).

إذن فحياة قريش الاقتصادية كانت قائمةً على التجارة بنوعيهما (الخارجية والداخلية)، فأما الخارجية : فهي التي تتمثل في رحلتي الشتاء والصيف ، وهذا بالنسبة لكبار التجار منهم ، وأما التجارة الداخلية : فهي التي كانت من خلال أواسط أغنيائهم داخل قريش .

(١) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، عالم الكتب، بيروت، (٣٦٥/٥-٣٦٦).

(٢) سورة قريش : الآيات (١-٤) .

ومن هنا كان مقتضى هذه الحياة التجارية أن يتجه إليها رسولُ الله ﷺ ، وقد علمنا أنه ﷺ قد اتجه إلى رعي الغنم منذ الصغر، وهذا يتناسب مع عمره حينها، ولكنه لما شبَّ وكبر، اتجه إلى التجارة الداخلية والخارجية، وعرف الأسواق، وكان لا بد له من السفر ليتعرف على ما تُحمل منها البضائع وما تُحمل إليها (الاستيراد والتصدير) .

فحين بلغ رسولُ الله ﷺ اثنتي عشرة سنة على الراجح، خرج في التجارة مع عمه "أبي طالب"، فدرس شؤون التجارة وعرف أحوالها وكيفية التعامل معها، وقد نزلوا في مكانٍ قريبٍ من الشام يسمى (بُصرى)، وكانت هذه البلدة موطناً لبعض الرهبان، الذين كان لهم علم بالكتاب وتبشيراتهم، وكان منهم الراهب "بحيرا" .

وكانت طبيعة "بحيرا" ألا يخرج للقاء القوافل كما هي طبيعة الرهبان، ولكنه قد خرج هذه المرة؛ إذ رأى من البيئات ما يتفق عنده بما قرأه من تبشيراتِ برسولٍ يأتي من بعد "عيسى" عليه السلام اسمه "أحمد"، فخرج ليلتقي هذه القافلة، وليتعرف على من تنطبق عليه تلك الأمارات التي يعرفها في كتابه، وقد ظهرت له بعض الأمارات مما ذُكرت في كُتُبِ السَّيْرِ، (كالغمامة التي كانت تظلمهم في ركبهم، وكأغصانِ الشَّجَرَةِ التي مالت على رسولِ الله ﷺ حَتَّى اسْتَظَلَّ تَحْتَهَا) ^(١)، ونستطيع

(١) انظر في ذلك: المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ، ص (٣٠)، والمبعث والمغازي، لإسماعيل ابن محمد بن الفضل أبو القاسم التيمي قوام السنة، تحقيق: محمد بن خليفة الرباح، ط ١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، دار ابن حزم / بيروت، لبنان، (١٣٣/١-١٣٢) .

أن نوجز ما جاء في كتب السير مما يتعلق بلقاء " بحيرا " بركب أبي طالب وقافلته، بأنه قد دعاهم للضيافة، فتحرك القوم ولم تتحرك الغمامة، فقال الراهب لأبي طالب : هل تركتم أحداً؟ قال : نعم، غلاماً صغيراً، فأمر بإحضاره، فتحركت الغمامة حينما سار النبي ﷺ، فسأل الراهب : من أبوه؟ قال : أنا، فقال الراهب : ما كان لهذا الغلام أن يكون له أبٌ على قيد الحياة، قال : أنا عمه، قال الراهب : ارجع به ، ولم يزل يناشده حتى عاد به عمه، وردّه إلى مكة (١) .

من فقه هذه المرحلة :

- التأكيد على توجيه الطاقات، والعمل على غرس قيمة السعي وطلب العمل لدى الأجيال ؛ ليتم تنشئتهم على الكسب الحلال، وعلى أن يكونوا منتجين لا مستهلكين ، فيتم بذلك استثمار طاقاتهم وإمكاناتهم في أنواع العمل المختلفة ؛ مما يعود على الأمة بما هو خير ؛ لأنه من المعلوم أن الأمة القوية هي التي تكون منتجة وليست مستهلكة ، ولننظر إلى فعل وتصرف رسول الله ﷺ منذ صغره .

(١) انظر في ذلك : سيرة ابن هشام : (١٨٠/١-١٨٢)، وأعلام النبوة، للماوردي ، دار الهلال، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ، ص (١٧٥-١٧٦)، والخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت ، (١٤١/١-١٤٢) ، وسبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق: الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ / علي محمد معوض، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (١٤٠/٢-١٤٣).

مشاركته ﷺ في الأمور الجامعة :

لم ينفصل رسول الله ﷺ أو ينزل عن مجتمعه الذي يعيش فيه، بل كان عضواً فاعلاً مؤثراً في مجتمعه، يهتم بما يقع من نوازل وأحداث، يشارك في كل عمل جماعي هدفه وغايته صناعة الخير والجمال، ومن هنا فما من أمر جامعٍ إلا وذهب إليه رسول الله ﷺ، وشارك فيه ما أتاحت له فرصة المشاركة، وكان ضابطه العام في مشاركاته عدم الرضا بما هو باطل، بل فقط الحق، وكل ما يبشر بالحق ويدعو إليه، وقد كان ﷺ في كل مشاركاته صاحبَ نفسٍ طيبة، لا يحب الصخبَ ولا الشجاء، يتعد عن مواطن العداوة وعن كل ما من شأنه أن يقطع الأواصر والصلوات، ومن هنا كان ﷺ بفطرته النقية يتعد وينفر عن كل ما لا يرتضيه، ما دام بعيداً عن الحق، وتطألنا بعضُ كتب السير عن حضوره ﷺ (دار الندوة) والاستماع إلى كبارهم.

ومن فقه هذه المشاركة:

- تأسيس الأجيال بحضور مجالس الكبار، والمقصود من هذه القيمة هو العمل على تنمية الفكر واكتساب الخبرات مبكراً لدى الأطفال؛ مما يؤثر في تشكيل عقليتهم وقدرتهم الفكرية بوعي وعمق، فيستطيع الطفل فيما بعد أن يضع الأمور في نصابها الصحيح، وأن يُقدّر الأمور حق قدرها، وأن يكون لديه عقل واع يستطيع به مواجهة تحديات الحياة ومتطلباتها؛ نتيجة لما اكتسبه من خبرات واقعية من مجالسته للكبار، مع اعتبار التزام الآداب المتعلقة بهيئة وكيفية الجلوس من حيث حسن تصرف الطفل وتقويم سلوكه.

فحضور مجالس الكبار يجعل الطفل منذ تكوين النضج العقلي له يقف على تجارب وخبرات السابقين ، حيث يقف على حسن تصرفهم مع الأزمات وإدارتها ، وتجعله يهضم تفكيرهم من حيث تقديمهم الاقتراحات للمستقبل ، وكذلك يجعله يكتسب ما يراه ويسمعه من أخلاقهم فيما بينهم؛ مما يجعل الأمر بمثابة الإرث الذي ينبغي أن تكون عليه الأجيال المتعاقبة، الذين هم على الحقيقة همزة الوصل التي تنقل تلك الأخلاق من الأجيال السابقة إلى الأجيال القادمة .

فكل طفل ينبغي أن يفهم ذلك، وأنه همزة الوصل بين الماضي والحاضر في نقل هويّة وثقافة وحضارة أجيال إلى أجيال أخرى متلاحقة، فيتحقق التدافع بين الأجيال ويتم تكوين أدوات فاعلة لبناء الأمة (ثقافياً وحضارياً وعلمياً وفكرياً ... وهكذا) .

ففي حضور مجالس الكبار قطع لمسافات بعيدة لاكتساب الخبرات والأخلاق الحيّة الواقعيّة التي تساعد فيما بعد على فهم أبعاد الحياة ومواجهة أعبائها ووضع الحلول لمشكلاتها؛ حتى يستقيم العيش فيها ، ومن هنا ينشأ الطفل وقد تحنّن وتمرّس بالخبرة من صغره .

وهذا هو عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) الذي يحكي لنا عن بعض مجالسه في مجالس النبي ﷺ ، كيف أنه تعلم من هذه المجالس واكتسب من الخبرات ما جعله مؤهلاً أن يكون من المفكرين الذين يحسنون التأمل والنظر، إلا أنه مع ذلك لم يتكلم

احترامًا لكبار الصحابة ، فيقول : قال رسول الله ﷺ : (أَخْبِرُونِي بِشَجْرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا ، لَا تَحْتُ وَرَقَهَا) فَوَقَعَ فِي نَفْسِي النَّخْلَةُ ، فَكْرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ ، وَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (هِيَ النَّخْلَةُ) ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مَعَ أَبِي قُلْتُ : يَا أَبَتِ وَقَعَ فِي نَفْسِي النَّخْلَةُ ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَهَا ؟ لَوْ كُنْتُ قُلْتُهَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : مَا مَنَعَنِي إِلَّا لَمْ أَرَكْ وَلَا أَبَا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُمَا فَكْرِهْتُ ^(١) .

وهذا هو عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) بالرغم من صغر سنه إلا أنه كان يحسن التفكير بل والتفسير لآيات الله ﷻ ، فلما كان دائم الجلوس في مجالس الكبار ، رأى بعض الصحابة استئصال ذلك ، وحدثوا عمر بن الخطاب في ذلك ، فجمعهم عمر ؛ ليضرب لهم نموذجًا عمليًا بحسن فهم هذا الصغير (عبد الله بن عباس) ، وتلى عليهم آيات سورة النصر : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ ^(٢) ، ثم سألهم عن رأيهم في المراد منها ، فتكلم كل منهم بما رأى وفهم ، ثم سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن عباس : ماذا ترى فيها ؟ فقال : ما أرى إلا أنها دلالة على منتهى عمر رسول الله ﷺ . فقال عمر : وهو ما أرى .

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب قول المحدث : حدثنا، (٦١) .

(٢) سورة النصر، الآيات (١-٣) .

بل إن النبي ﷺ نفسه، كان يُحدث عن حضوره مجالس الكبار وهو غلام فيقول: "شهدت وأنا غلام حلفاً مع عمومتي المطيبين، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكته" (١).

وهذا هو الإمام جلال الدين السيوطي (رحمه الله) كان يأخذه أبوه إلى مجالس الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري شرح صحيح البخاري، وهو ابن ثلاث سنين، وكان السيوطي يفتخر جداً بأن عمر ابنه كان ثلاث سنين، وجالس في مجلس الحافظ ابن حجر .

فحضور الطفل إذن لمجالس الكبار تُعلّمه كيف يستقبل ويكرم الضيف؟ كيف يحسن التصرف في حضوره؟ كيف يؤدي ما عليه وفق ما يُطلب منه؟ متى يسمع؟ متى يتكلم؟ متى يسأل؟ يتعلم التوجيه، يتعلم التأني، ويتعلم من قصص الآباء والأجداد الخبرات التي يستعين بها على فهم الحياة ومواجهة صعابها، فتتوسع مداركه لأجل ذلك، ومن هنا يأتي الفرق بين من يجلس في مجالس الكبار، وبين من يجلس مع القراء في مجالس السوء، ففرق واسع في تشكيل عقلية كل منهما .

والشريعة الإسلامية قد ركّزت على بناء الطفل بناءً اجتماعياً، بحيث يستطيع التكيف مع الكبار والصغار ونحو ذلك، ولا يكون ذلك إلا إذا اصطحبه والده معه إلى مجالس الكبار . وهذا ما ينبغي أن نؤسس الأجيال عليه قدر المستطاع .

(١) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، (٣/٨١٩) عن عبد الرحمن بن عوف، وأبو يعلى عن ابن عباس، وأحمد، وهو صحيح.

حَرْبُ الْفِجَارِ^(١):

وهي تلك الحرب التي وقعت بين قريشٍ ومن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان وأحلافها، وقد سُميت بالفِجَار؛ لأنها وقعت في الأشهر الحرم، حيث لا تقال؛ إذ تمتنع قبائل العرب عن القتال فيها، وكذلك كان العرب يعقدون أسواق تجارتهم في هذه الأشهر بعكاظ - على مقربة من الطائف -، وبمجنّة وذي المجاز - على مقربة من عرفات -؛ لتبادل التجارة وللتفاخر والجدل، وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة، وفيها أنشد أصحاب المعلقات معلقاتهم^(٢).

على أن "البراض بن قيس الكناني" لم يحترم هذه الحرمة حين غافل أثناءها "عروة الرّحّال بن عتبة الهوازني" وقتله، ف وقعت تلك الحرب بين قريشٍ ومن معها من كنانة من جهة، وقيس عيلان وأحلافها من جهة، وما وقعت هذه الحرب من جهة قريش إلا دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم، ومكانة أرض الحرم، فكانت حرب الفِجَار ردّاً لمن استباح الأشهر الحرم

(١) الْفِجَارُ: بِكَسْرِ الْفَاءِ بِمَعْنَى: الْمَفَاجِرَةِ كَالْقِتَالِ وَالْمُقَاتَلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قِتَالًا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَفَجَرُوا فِيهِ جَمِيعًا، فَسُمِّيَ: الْفِجَارَ، وَكَانَتْ لِلْعَرَبِ فِجَارَاتٌ أَرْبَعٌ، ذَكَرَهَا الْمُسْعُودِيُّ، آخِرُهَا: فِجَارُ الْبِرَاضِ، وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ. انظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، (٢/٢٣٣).

(٢) انظر في وجه تسمية حرب الفِجَار بهذا الاسم: السيرة النبوية لابن هشام، (١/١٨٤) وما بعدها، وأخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، ط٢، ١٤١٤هـ، دار خضر، بيروت، (٥/١٦٦)، وسبل الهدى والرشاد، (٢/١٥٢).

بالتقال فيها، وقد ظلت هذه الحرب أربع سنوات، وكان عمر النبي ﷺ حينها بين الخامسة عشر والتاسعة عشر، كما ورد في كتب السير^(١).

ومن فقه هذه الحرب:

- أنه لم يكن للنبي ﷺ في هذه الحرب إلا أنه شهد بعض أيامها؛ حيث أخرجه أعمامه - الذين اشتركوا فيها - معهم؛ مما يدل على حداثة سنه حينها، غير أنه في حرب الفجار لم يذهب إلى أبعد من دفع السهام عن أعمامه؛ حمايةً لهم ورحمةً بهم، بموجب الرِّحم الواصلة، لا بموجب الحرب التي أحلت فيها الحرمات والأشهر الحرم، وقد قال "السُّهيلي": "وَإِنَّمَا لَمْ يُقَاتِلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَعْمَامِهِ، وَكَانَ يُبَلُّ عَلَيْهِمْ^(٢)، أَي: يَرُدُّ عَلَيْهِمْ نَبْلَ عَدُوِّهِمْ إِذَا رَمَوْهُمْ بِهَا، فَهُوَ ﷺ كَانَ دَرَعًا وَاقِيَةً لِأَعْمَامِهِ، لِأَنَّهُمْ دَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، دَفَاعًا عَنِ انْتِهَاكِ حَرَمَةِ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ عَمَلُهُ ﷺ فِيهَا، فَهُوَ عَمَلٌ دَافِعٌ لِلْأَذَى.

حِلْفُ الْفُضُولِ:

ولما بلغ النبي ﷺ عامه العشرين شهد - مع بني هاشم في دار "عبد الله بن جدعان" بعد حرب الفجار - حلفاً لنصرة المظلوم، والأخذ للضعيف من القوي، ومنع النساء واليتامى، والقضاء على القتل والنهب.

(١) انظر في ذلك: البداية والنهاية، (٢/٢٨٩)، والسيرة النبوية، لابن هشام: (١/١٨٤)، ومختصر السيرة النبوية لمغلطاي، تحقيق: محمد زينههم محمد عزب ط ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، دار المعارف، ص (٢٩).

(٢) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، (٢/٢٣٣).

وَكَانَ (حِلْفُ الْفُضُولِ) هَذَا قَبْلَ الْبَعْثِ بِعِشْرِينَ سَنَةً، وَقَدْ وُصِفَ هَذَا الْحِلْفُ بِأَنَّهُ أَكْرَمُ حِلْفٍ وَأَشْرَفُهُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ " الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ "، وَسَبَبُهُ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ (زُبَيْدٍ) بِالْيَمَنِ قَدِمَ مَكَّةَ بِبِضَاعَةٍ فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ، وَأَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ حَقَّهُ، فَاسْتَدْعَى عَلَيْهِ " الزُّبَيْدِيَّ " الْأَخْلَافَ : (عَبْدَ الدَّارِ، وَمَخْرُومًا، وَجَمَحًا، وَسَهْمًا، وَعَدِيَّ بْنَ كَعْبٍ)، فَأَبَوْا أَنْ يُعَيَّبُوهُ عَلَى " الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ "، وَأَنْتَهَرُوهُ، فَلَمَّا رَأَى الزُّبَيْدِيُّ الشَّرَّ، صَعِدَ عَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَرِيشُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَنَادَى بِأَبْيَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ يَصِفُ فِيهَا ظُلَامَتَهُ، رَافِعًا صَوْتَهُ:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتَهُ يَبْطُنُ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
 وَمُحْرَمٌ أَشَعَتْ لَمْ يَقْضِ عُمُرَتَهُ يَا لِلرِّجَالِ وَيَبْنَ الْحَجْرِ وَالْحَجَرِ
 إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ وَلَا حَرَامَ لِنُوبِ الْفَاجِرِ الْعَدْرِ
 فَقَامَ " الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ " عَمَّ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: مَا لِهَذَا مَتْرُوكٌ، فَاجْتَمَعَتْ بَنُو هَاشِمٍ، وَزُهْرَةَ، وَبَنُو تَيْمٍ بِنِ مَرَّةَ، وَتَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى هَذَا الْحِلْفِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي دَارِ " عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ "؛ لِشَرَفِهِ وَسَبَبِهِ، فَكَانَ حِلْفُهُمْ عِنْدَهُ، فَتَعَاقَدُوا وَنَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ يَكُونُوا جَمِيعًا يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ، وَأَنْ لَا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ إِلَّا قَامُوا مَعَهُ وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ حَتَّى تُرَدَّ عَلَيْهِ مَظْلَمَتُهُ وَيَعُودَ إِلَيْهِ حَقُّهُ، وَقَالُوا: لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي فَضْلِ مِنَ الْأَمْرِ، ثُمَّ مَشَوْا إِلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، فَانْتَزَعُوا مِنْهُ سِلْعَةَ الزُّبَيْدِيِّ فَدَفَعُوهَا إِلَيْهِ؛ فَسَمَّتْ قُرَيْشُ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ.

وقيل: سُمِّيَ حِلْفَ الْفُضُولِ، لِأَنَّ أَوَّلَ مَنْ دُعِيَ إِلَيْهِ، ثَلَاثَةٌ، كُلُّهُمْ
اسْمُهُ الْفَضْلُ، وَهُمْ: الْفَضْلُ بْنُ فَضَالَةَ، وَالْفَضْلُ بْنُ وَدَاعَةَ، وَالْفَضْلُ بْنُ
الْحَارِثِ^(١).

ولقد سَرَّ النَّبِيُّ ﷺ؛ لشهوده ذلك الحِلف، وأشاد به ﷺ بعد بعثته،
حيث قال: "لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنْ
لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ"^(٢).

من فقه هذا الحلف :

- سرعة مشاركة النبي ﷺ في كل ما يؤكد قيم التعاون والتمدد
واستقرار الأمن .

- نزوعه المبكر إلى إسداء العون إلى مَنْ نزل به كربٌ أو ظلمٌ،
في إشارةٍ دقيقةٍ إلى هذه الإنسانية التي تزيّن بها ﷺ، والتي كانت
مغروسةً في فطرته منذ الصغر، وظهرت واقعا ملموسا في شبابه؛ مما جعله
قد أوجب بفطرته السليمة وطبعه الطيب أحكام حلف الفضول.

- التأكيد على هذا الميثاق العظيم، الذي يدعو إلى الدفاع عن
ردّ الحقوق، وحماية المستضعفين؛ حتى يأمن كلُّ إنسان على ماله

(١) البداية والنهاية، لآين كثير، (٣٥٦/٢-٣٥٧)، والطبقات الكبرى، (١٢٨/١)، والقول المبين
في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، دار الندوة الجديدة بيروت، لبنان، ص
(٩٩).

(٢) أخرجه البيهقي في باب (إِعْطَاءِ الْفِيءِ عَلَى الدِّيَّوَانِ وَمَنْ يَقَعُ بِهِ الْبِدَايَةُ)، انظر: السنن
الكبرى، للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط ٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دار الكتب
العلمية، بيروت، لبنان، (٥٩٦/٦).

وأولاده، وقد ظهر ذلك جلياً وواضحاً في اعتزازه ﷺ بمشاركته في ذلك الحلف، وكذلك بتمسكه به حتى بعد البعثة في قوله: " وَلَوْ أَدْعَىٰ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ " (١).

- أن القيم الإيجابية تستحق الإشادة بها، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ حين قال: " لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ " (٢).

- أن كل ما يدعو إلى الخير، فالمسلم أولى به، وعليه أن يسانده ويناصره، وأن يكون له خير معين، وهذه هي دوائر الخير التي أراد النبي ﷺ أن يؤسس الأمة عليها، فكلما اتسعت دوائر الخير اتسعت الإنسانية في أسمى معانيها وقد قال ﷺ: " أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ اللَّهُ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ " (٣).

التجارة في مال السيدة خديجة - رضي الله عنها - وزواجه بها:

ولما بلغ ﷺ من العمر خمساً وعشرين سنة خرج في تجارة للسيدة "خديجة" - رضي الله عنها - مع غلامها "ميسرة"، وذلك قبل أن يتزوجها، وكانت هذه هي المرة الثانية التي خرج فيها ﷺ إلى الشام في تجارة، فلما قدم الشام نزل تحت ظل شجرة قريباً من صومعة لـ "نسطور"

(١) سبق تخريجه ص: ٧٦.

(٢) سبق تخريجه ص: ٧٦.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، (١٠٦/٢).

الرَّاهِبُ، فَاطَّلَعَ الرَّاهِبُ إِلَى مَيْسِرَةَ فَقَالَ لَهُ: مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؟ فَقَالَ لَهُ مَيْسِرَةَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ، فَقَالَ الرَّاهِبُ: مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ قَطُّ إِلَّا نَبِيٌّ^(١)، ثُمَّ قَالَ لِمَيْسِرَةَ: أَفِي عَيْنَيْهِ حُمْرَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ لَا تُفَارِقُهُ، فَقَالَ: هُوَ نَبِيٌّ وَهُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ. ثُمَّ بَاعَ النَّبِيُّ ﷺ سِلْعَتَهُ الَّتِي خَرَجَ بِهَا، فَوَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ مُلَاحَاةً^(٢)، فَقَالَ لَهُ: أَحْلِفْ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا حَلَفْتُ يَهْمَا قَطُّ، وَإِنِّي لِأَمْرٍ فَأُعْرِضُ عَنْهُمَا"، فَقَالَ الرَّجُلُ: الْقَوْلُ قَوْلُكَ، ثُمَّ قَالَ لِمَيْسِرَةَ وَخَلَا بِهِ: يَا مَيْسِرَةَ هَذَا نَبِيٌّ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ هُوَ هُوَ، يَجِدُهُ أَحْبَابُنَا مَنْعُونًا فِي كُتُبِهِمْ فَوَعَى ذَلِكَ مَيْسِرَةَ، ثُمَّ اشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِي، وَأَقْبَلَ قَافِلًا إِلَى مَكَّةَ، وَمَعَهُ مَيْسِرَةُ^(٣)، ثُمَّ بَاعَتْ خَدِيجَةَ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ مِنْ تِجَارَةٍ فَرَبِحَتْ ضِعْفَ مَا كَانَتْ تَرْبِحُ،

(١) قال الإمام السهيلي في الروض الأثف، (٢/ ١٥٢): وَلَمْ يُرِدْ مَا نَزَلَ تَحْتَهَا قَطُّ إِلَّا نَبِيٌّ. لِبُعْدِ الْعَهْدِ بِالْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي لَفْظِ الْخَبَرِ: قَطُّ، فَقَدْ تَكَلَّمَ بِهَا عَلَى جِهَةِ التَّوَكُّيدِ لِلنَّبِيِّ وَالشَّجَرَةَ لَا تُعْمَرُ فِي الْعَادَةِ هَذَا الْعُمَرُ الطَّوِيلَ حَتَّى يَدْرِي أَنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ تَحْتَهَا إِلَّا عَيْسَى، أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

(٢) المُلَاحَاةُ: المُلَاوَمَةُ والمُبَاغَضَةُ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى جَعَلَتْ كُلُّ مِمَانَعَةٍ وَمُدَافِعَةٍ، مِلَاحَاةً. انظر لسان العرب، لابن منظور، ط٣، ١٤١٤هـ، دار صادر، بيروت، (١٥/ ٢٤٢).

(٣) انظر في ذلك: دلائل النبوة، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، تحقيق: محمد محمد الحداد، ط١، ١٤٠٩هـ، دار طيبة، الرياض، ص (٢٣٢)، والخصائص الكبرى، للسيوطي (١/ ١٥٥)، والمنظوم في تاريخ الأمم والملوك، (٢/ ٣١٤)، نهاية الأرب في فنون الأدب، (١٦/ ٩٦).

وَأَضَعَفَتْ لَهُ ﷺ ضَعْفٌ مَا كَانَتْ تُعْطِي رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ (١).

ولما رأت السيدة "خديجة" -رضي الله عنها- في مالها من البركة ما لم تر من قبل، ولما أُخبرت بشمائله الكريمة، والتي عاينت بعضها بعد تجارته ﷺ في مالها، بالإضافة إلى ما كان معلومًا ومعروفًا عنه ﷺ بين قومه، تحدّثت بما في نفسها لإحدى صديقاتها "نفيسة بنت منبه"، والتي ذهبت على الفور لتحدّث رسول الله ﷺ عن ذلك، وقد رضي رسول الله ﷺ، وكلّم أعمامه، فذهبوا لخطبة السيدة "خديجة"، وعلى إثر ذلك تم الزواج.

وقد كانت السيدة "خديجة" -رضي الله عنها- أوسطَ قریشٍ نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالًا، وكانت تسمى بين قومها بالطاهرة، جمعت الكثير من الأخلاق والقيم، وقد تزوجها رسول الله ﷺ وكان سنّها إذ ذاك أربعين سنة، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وكان عمره إذ ذاك خمسًا وعشرين سنة، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت.

أولاً : من فقه هذه المرحلة :

- بشارة أهل الكتاب برسول الله ﷺ، ومعرفتهم بشخصه، ويظهر ذلك من خلال لقاء "بحيرا" به في سنه المبكر أثناء خروج النبي ﷺ مع عمه أبي طالب في تجارته إلى الشام في المرة الأولى، وكذلك في لقاء "نسطور" به ﷺ بعد ذلك في تجارته في المرة الثانية .

(١) اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية»، موسى بن راشد العازمي، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، (١٢٢/١).

- حفظ الله لنبيه ﷺ في بعده عن الأصنام ، فقد نفر ﷺ منذ صغره عن كل عادات الجاهلية، فلم يسجد لصنم قط ، وما كان يحب ذكر الأصنام وعبادتها.

- الدعوة إلى العمل وترك البطالة والكسل، فبمجرد أن بلغ رسول الله ﷺ قدراً يستطيع من خلاله الاكتساب، اتجه مباشرة إلى العمل وأعدّ نفسه للتجارة، والتي هي عمل قومه، ومورد أرزاقهم، ومن هنا كانت دعوة الإسلام دائماً إلى العمل والسعي وطلب الرزق بعزّةٍ وشرفٍ، وقد نبّه ﷺ أمته لذلك، فقال : " لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُرْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ."^(١)، نعم، هي دعوة واضحة نستفيدها من تصرف النبي ﷺ وهو في الثانية عشرة من عمره ، مروراً بحياته في مراحلها العمرية المختلفة، حين توجه للتكسب وطلب الرزق عن طريق العمل، هي دعوة لأن يكون كلُّ إنسانٍ عزيز النفس يُحَقِّقُ كَرَامَتَهَا ويعفّها عن السؤال بالعمل وجلب الأرزاق، فبدلاً من أن يتكاسل عن العمل ويمدّ يده للناس سائلاً منهم المال فليعمل ليتكسب.

- هي دعوة إلى أن يكون كلُّ إنسانٍ عضواً فاعلاً في مجتمعه وفي أمته ، بأن يكون منتجاً ، وبأن يكون أداةً من أدوات صناعة الجمال في الكون ، وذلك بالمشاركة في إعمار الأرض وتنميتها بالزراعة والتجارة والصناعة وبناء المصانع ، هي دعوة للقضاء على مظاهر التسوّل والفقير .

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ، باب كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ ، (٥٧/٣) .

- ومما يستفاد أيضاً من خلال هذه المرحلة الحياتية لرسول الله ﷺ: أن الأخلاق والقيم هي أصل أصيل في طلب الزواج .
ثانياً : من فقه الزواج في حياة رسول الله ﷺ :

إذا كنا نتناول مسؤولية الزواج وبيان الحقوق المتعلقة به من داخل بيت النبي ﷺ ، فإن من الأمور التي ينبغي أن يراعيها كل من الزوجين للآخر : الحب والحنان والرحمة، فهذه الأمور يؤجر عليها المؤمن ؛ لأنه يستمتع بطيبات الحياة وجمالياتها، فالإسلام ليس خشونة وتجهماً، بل مقاصده الأصيلة هي الرحمة والمودة خاصة في الزواج ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴾ (١).
- والسكن هنا هو كل سكن يحقق القيمة الجمالية بين الزوجين، وهي تتحقق من نواحٍ متعددة ، منها :

اختيار أدوات المنزل وحاجات الأهل ببساطة دون تكلف وتحميل الزوج فوق طاقته.

وهذه السيدة عائشة - رضي الله عنها- تروي عن النبي ﷺ الحديث، وتفتي في الدين ، وقد ثبت عنها أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ (أي : العرائس الصغيرة) عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ لِي صَوَاحِبٌ يَلْعَبْنَ مَعِي ، فَكَانَ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ (٢) فَيُسْرِبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي (٣) .

(١) سورة الروم : آية رقم (٢١) .

(٢) يتقمعن: أي يدخلن البيت ويستترن .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب الأئساطر إلى الناس ، (٣١/٨) .

وكان رسول الله ﷺ يمد رأسه الشريف وهو في معتكفه لإحدى زوجاته ، فتقوم بترجيل شعره ﷺ ، فهذه هي السيرة الجمالية للرسول ﷺ في أهله ، فهو ﷺ الذي يأتيه الوحي ، ويبلغ رسالة ربه ، ويرعى الأمة ، ويكتب الملوك ، وينهض بتغيير وجه الحياة على الأرض ، هذا النبي ﷺ يمارس "السباق" مع زوجته السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها، وأين ؟ ليس سرّاً وراء الجدران والأبواب المغلقة ، وإنما في طريق السفر. تروي السيدة عائشة هذا الخلق الراقي في الاستمتاع بجمال الحياة ، وفي الأخذ بحظه من طبياتها ، فتقول : خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ فَقَالَ لِلنَّاسِ : تَقَدَّمُوا ، فَتَقَدَّمُوا ، ثُمَّ قَالَ لِي : تَعَالَى حَتَّى أُسَابِقَكَ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدَأْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ لِلنَّاسِ : تَقَدَّمُوا ، فَتَقَدَّمُوا ، ثُمَّ قَالَ : تَعَالَى حَتَّى أُسَابِقَكَ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ : هَذِهِ يَتْلُكَ (١).

فهل هناك ما هو أرقى من هذا السلوك الجميل ، الذي وإن حمل صاحبه تبعات الدين والدنيا بأسرهما ، فإنه لا ينسى حظه من جماليات الحياة ؟.

بل تروي لنا السيدة عائشة - رضي الله عنها - ما يؤكد المساعدة وتوزيع الأعمال والتعاون داخل بيت الزوجية ، فتقول كما جاء في

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، (٣١٣/٤٣) .

السنن الكبرى للبيهقي : (كُنْتُ قَاعِدَةً أَغْزِلُ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ..) (١)،
ولما قِيلَ لَهَا : مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ : كَمَا يَصْنَعُ أَحَدُكُمْ
يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيُرْفَعُ تَوْبَهُ (٢).

هكذا ينبغي أن تكون الحياة بين الزوجين قائمة على الاستمتاع
بالقيم الجمالية والابتعاد عن كل ما يعكر صفو العلاقة بينهما، أساسها
المشاركة والحركة المتعاونة لا المتعاندة، ومعلوم توزيع الأدوار بين
الشركاء داخل المؤسسة الواحدة .

فالأصل أن يستثمر الزوجان كل حركة في حياتهما تدخل عليهما
السعادة والسرور، وهذه هي طبيعة الإسلام ودعوة الإسلام، دعوة إلى
الحب والرحمة والألفة لا إلى القسوة والغلظة والفرقة .

فحسن العشرة إذن بين الزوجين هو سبيل قوة الأسرة وأصل
أصيل في بنيان مستقيم قائم على المحبة والرحمة، ولننظر إلى هذه
الصورة المثالية التي كان فيها النبي ﷺ بَرًّا رَحِيمًا فِي مَعَاشِرَتِهِ لِأَهْلِهِ،
تقول - رضي الله عنها- : (أتى الحبشة يلعبون بالحرايب في المسجد يوم
العيد، فأحبت رؤياهم فقامت لأنظرهم وراء ظهر رسول الله ﷺ ، قالت -
رضي الله عنها- : «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ
يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَسَاءُ» (٣).

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد ، بابُ الْحَيْضِ عَلَى الْحَمْلِ، (٦٩٣/٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، (٢٦٩/٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، بابُ نَظَرِ الْمَرْأَةِ إِلَى الْحَبَشِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ ،
(٣٨٧/٧) .

وقد جاء الأسود بن يزيد هذا التابعي الجليل إلى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) - والحديث في صحيح البخاري - قال لها: كيف كان النبي ﷺ في بيته وما هو حاله؟ قالت -رضي الله عنها - : يكون في خدمة أهله، فعن الأسود، قال: سألت عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: (كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة) ^(١) أي: إنه إذا رأى أهله بحاجة إلى المساعدة وإلى المعاونة ساعدهم صلوات الله وسلامه عليه.

الأبوة عند رسول الله ﷺ:

إن هناك رحمة أودعها الله ﷻ في قلب كل أم وكل أب، من خلالها تبدأ العناية والرعاية والاهتمام بالأبناء، وهذه الرحمة تعني بالبناء الجسدي، من حيث الغذاء والكساء والدواء، وما شابه ذلك، غير أن هذه الرحمة لا ترقى إلا برحمة أخرى تنقذ الأبناء من النار، وهي التي تهتم بالبناء الإيماني والسلوكي والقيمي؛ وذلك لنقدم - كأباء وأمهات - للمجتمع جيلاً نافعاً منتجاً ، مستقيماً في سلوكه، ناضجاً في تفكيره ، عفيفاً في أسلوبه.

وكان ﷺ يضم أولاده وأحفاده إلى صدره، وبتسم لهم، ويداعبهم، ولكنه في الوقت نفسه لم يغض الطرف عن أي إهمال لهم حول شؤون

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، (١٣٦/١).

الآخرة، وكان في هذا الأمر واضحاً وصريحاً، ووقوراً ومهيباً، فيما يتعلق بصيانة العلاقة بينه وبين خالقه، فمن جهةٍ كان ﷺ يعطي الحرية لهم، ومن جهةٍ أخرى كان لا يسمح بأي انفلات أخلاقي .

ولبيان أبوة النبي ﷺ ورحمته بأولاده وأحفاده، نرى سيدنا أنس رضي الله عنه يقول : (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)^(١) ، فكان ﷺ يتصرف برحمة وعاطفة حقيقية نابعة من صميم قلبه الشريف ﷺ ، وقد روت لنا كتب السنة والسير الكثير من معاملات رسول الله ﷺ مع سبطيه (الحسن والحسين).

فعلينا أن نتمثل منهج وهدى النبي ﷺ في التربية وحسن التنشئة، وأن نجتمع في طريق التربية البناءين (الإيماني والجسدي) ؛ لنقدم للمجتمع جيلاً يكون أداة حقيقية من أدوات بناء الأمة في شتى المجالات المختلفة .

مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة :

إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ تَعَاوَنَتْ، وَجَمَعَتِ الْحِجَارَةَ لِبِنَائِهَا، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَنَوْهَا، حَتَّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ (الْحَجَرِ)، فَاخْتَصَمُوا فِيهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الْأُخْرَى، حَتَّى إِذَا كُنَّ قَبِيلَةٌ تَحِيَّزَتْ إِلَى جِهَةٍ، بَلَ وَوَصَلَ الْأَمْرَ إِلَى قِمَّةِ الْخُصُومَةِ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب رَحْمَتِهِ ﷺ الصَّبَّانَ وَالْعِيَالَ وَتَوَاضَعِهِ وَقَضَلَ ذَلِكَ ، (١٨٠٨/٤).

بأن تحالفوا وأعدوا للقتال، فقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثمّ تعاقدوا هم وبنو عديّ ابن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُموا لعنة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً، ثمّ إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا واتفقوا على أن يجعلوا أوّل من يدخل من باب المسجد يقضي بينهم فيه، ففعلوا. ولحكمة عالية كان أوّل داخل عليهم هو رسول الله ﷺ، فلما رآوه قالوا: هذا الأمين، رضيّنا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هلمّ إليّ ثوباً، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثمّ قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثمّ أرفعوه جميعاً، ففعلوا: حتّى إذا بلعوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثمّ بنى عليه^(١).

ومما هو جدير بالذكر هنا أن رسول الله ﷺ قد شارك في بناء الكعبة وقد بلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة .

من فقه بناء الكعبة :

- مدى حكمة النبي ﷺ أن يُجنّب العربَ مخاطرَ الحرب وإن اختلفت مقاصدهم وأهدافهم لتحقيق غاية واحدة ، فالأصل هو التدافع وليس الصراع .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤١٥هـ ، (٢٩٣/٧)، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (٥٤/١) .

- ويظهر جلياً مدى سمو منزلته ﷺ بين رجال قريش على اختلافهم؛ فلقد علمت قريش كلها بكمال عقله، وقوة إدراكه، فرضيت به حكماً، ساعة أن احتدم الجدل بينهم؛ لأنه سيكون حكم العقل والحق.

- البداهة المثيرة للإعجاب في حلّ المشاكل التي تكون في جانب المعتقدات والقيم والمقدسات؛ مما جعلنا نحسن التأسّي به ﷺ في ذلك؛ حتى نكون أهلاً لثقافة الألفة لا الفرقة، لقيم التعاون لا التعاند، لتحقيق ثقافة المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة وإن تعددت أطرافها، فالفكر الإسلامي لا يعرف مصطلح الأقلية، بل يعرف مصطلح الأمة الواحدة.

- الشرف العميق الذي ناله رسولُ الله ﷺ، فقبائل العرب وإن كانت قد رضيت بأن تفوز كلُّ منها بنصيب من رفع الحجر، وقد كانوا يتنافسون فيما بينهم لرفعه، فإن الشرفَ كلّه كان لمحمد رسول الله ﷺ؛ إذ كان هو الرافعُ للركن حقيقة، والذي وضعه بيده في المكان الذي وضعه فيه أبوه إبراهيم -عليه السلام- من قبل عندما رفع قواعد البيت.

عبادته ﷺ قبل البعثة :

من المعلوم أنه في أواخر العصر الجاهلي كان هناك بعضٌ من العرب لا يرضون بعبادة الأصنام والأوثان، مقتنعين بأنها حجارة لا تنفع ولا تضر، وقد سمّى العرب أمثال هؤلاء بـ (الأحناف)⁽¹⁾، وهو وصف ذكره الله ﷻ لسيدنا إبراهيم -عليه السلام-؛ دلالة على ميله عليه السلام عما كان يعبده

(1) وكان منهم : خالد بن سنان في بني عبس ، وأمّية بن أبي الصلت في ثقيف ، وأبي قيس ابن أبي أوس في يثرب ، وقسّ بن ساعدة أسقف نجران ، ومن قريش : ورقة بن نوفل، =

قومه من الأصنام والأوثان، فكأن هذا الوصف لهؤلاء هو امتداد لما كان عليه إبراهيم - عليه السلام -، أي أنهم كانوا يميلون عما كان يعبد آباؤهم وقومهم من الأصنام .

وقد رأى النبي ﷺ بعض الأحناف يتعبدون أياماً في بعض الكهوف حول مكة ، فرأى ﷺ أن يتعبد لربه طوال شهر رمضان من كل سنة ، واختار مكاناً لذلك هو (غار حراء)، وقد وصل عمره ﷺ إذ ذاك تسعاً وثلاثين سنة .

تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها) : (ثُمَّ حَبَّ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بَعَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنُّ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَنْزُودَ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَنْزُودُ لِمِثْلِهَا) (١) .

ومما يلاحظ هنا في قولها (رضي الله عنها) : (حَبَّ) ، والتي جاءت بصيغة المجهول ، تلك الإشارة الدقيقة إلى إلهام الله ﷻ له في ذلك التعبد ، وقولها : (فَيَتَحَنُّ) أي : يتعبد ، وقولها : (اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ) : إبهام لها ؛ لاختلاف المدد التي كانت يتخللها مجيئه إلى أهله ﷺ ، أمّا أصل الخلوة : فقد عرفت مدتها ، وهي شهر ، وذلك الشهر كان رمضان كما جاء في رواية ابن إسحاق (٢) .

= وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن نُفَيْل . انظر : محمد خاتم المرسلين ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ص (٧٨) .

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ، كَيْفَ كَانَ بَدْءَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ ، (٧/١) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، (١٣٩/١) وأحمد في مسنده (٢٣٢/٦) .

(٢) موسوعة علوم القرآن ، عبد القادر محمد منصور ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، دار القلم العربي ، حلب ، ص (٢٠) .

ولقد كان رسول الله ﷺ يجد متعةً في خلوته هذه بغار حراء ؛ حيث كان ﷺ يحب التأمل والنظر ، وكان نظره فيما يتصل بالكون وعلاقته بموجده وخالقه ، وفي الحياة ومن يعيش بها ، فكان ﷺ يتأمل في كل ذلك ليتعرف على أسرار الكون وأسرار الحياة .

وقد كان الباعث أيضاً لهذا الاختلاء والتحنُّث ، هو القرب والإنابة والمناجاة ؛ وذلك بسبب اشتداد الوحشة من سوء حال الناس في ذلك الوقت ، وما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، وكذلك ما كان منتشرًا بينهم من مُنكراتٍ ومطامع وشهوات ، فقد عزف ﷺ عن ذلك كله ؛ راغبًا إلى الأُنس بالله تعالى ، وراجيًا في هدايته إلى المخرج منها ؛ ولذلك ذكر الشيخ "محمد عبده" في تفسير قوله تعالى : ﴿الرَّيْحَانُ يَتِيمًا فَاقْوَى ۝١٠ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝١١﴾ (١) مختصرًا مفيدًا ، قال فيه : (من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيما إن كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يُرشده ، ولا أستاذ يُببِّهه ، ولا عَضُدٍ إذا عزم يُؤيِّده ، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهدِه (٢) ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بعصت إليه

(١) سورة الضحى : الآيات (٦-٧) .

(٢) وذلك مثل : أمية بن الصلت ، وزيد بن عمرو بن نُفيل .

الوثنية من مبدأ عمره، فعالجته طَهَارَةُ الْعَقِيدَةِ، كَمَا بَادَرَهُ حَسَنُ الْخَلِيقَةِ، وَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ لَا يَفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَثْنِيَّةٍ قَبْلَ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى التَّوْحِيدِ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ الْقَوِيمِ قَبْلَ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ (حَاشَا لِلَّهِ) ، إِنَّ ذَلِكَ لَهُو الْإِفْكَ الْمُبِينُ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحِيرَةُ تَلَمَّ بِقُلُوبِ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ فِيمَا يَرْجُونَ لِلنَّاسِ مِنَ الْخَلَاصِ، وَطَلَبِ السَّبِيلِ إِلَى مَا هُدُوا إِلَيْهِ مِنْ إِنْقَازِ الْهَالِكِينَ، وَإِرْشَادِ الضَّالِّينَ، وَقَدْ هَدَى اللَّهُ نَبِيَّهَ إِلَى مَا كَانَتْ تَتَلَمَّسُهُ بِصِيرْتِهِ بِاصْطِفَائِهِ لِرِسَالَتِهِ ، وَاخْتِيَارِهِ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ لِتَقْرِيرِ شَرِيْعَتِهِ (١).

ومن جوانب عبادته أيضًا ﷺ قبل البعثة ما نستطيع أن نطلقَ عليه "الزهد الإيجابي" بمعنى أنه ﷺ كان يتوجه دائماً نحو العمل وطلب الحلال من الرزق، والبحث عن أسباب الكسب الطيب، وكان ﷺ مع الكسب الطيب والرزق الحلال منفقاً غير ممسك، فكان ينفق في مجالات الخير المختلفة من غير عبث أو استعلاء، بل برشد في الإنفاق والتصرف، وليس أدل على ذلك من قول السيدة خديجة -رضي الله عنها- بعد ابتداء نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وفي إشارة دقيقة وتصوير رائع إلى أبواب إنفاق النبي ﷺ الذي كان عليه قبل البعثة، والتي كان يتمتع بها ومعروفاً بها وقائماً عليها: (إِنَّكَ لَتَحْمِلُ

(١) رسالة التوحيد، محمد عبده، ط ٦-١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ص (١١٩-١٢٠).

الْكَلَّ^(١)، وَتَقْرِي الضَّيْفَ^(٢) وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ^(٣)، وَتُعِينُ عَلَي نَوَائِبِ
الدَّهْرِ^(٤).

ولا شك أن هذا الجانب العظيم من حياة رسول الله ﷺ قبل
البعثة، كان امتداداً لما بعد البعثة، (فهو يطلب ليعطي، ويكثر ليطعم
غيره، وهو لا ينفق على نفسه وعلى أهله إلا القليل بالمعروف من غير
خاصة واضحة، ولا حرمان ظاهر، بل يتناول الحلال ويكتفي بأقله، ولا
يحرم مما هو طيب حلال، وكذلك كانت الحال بعد أن بعثه الله تعالى
نبياً)^(٥).

وهذا درس رصين نتعلمه من رسول الله ﷺ في فقه التكافل
والتراحم وإعانة الضعفاء، ومن كانوا على شاكلتهم.

من فقه عبادته ﷺ قبل البعثة:

- إعدادُ الله ﷻ لمحمد ﷺ، فقد خلقه كاملَ الفطرة؛ ليعبته بدين
الفطرة، وخلقه كاملَ العقل؛ ليعبته بدينِ العقل المستقل والنظر العلمي،
وكمّله بمعالي الأخلاق؛ ليعبته متمماً لمكارم الأخلاق، وأنه سبحانه
وتعالى بعضُ إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبّ

(١) أي: تتحمل أُنثال الفقراء والضعفاء والأيتام بالإِنفاق عليهم وإعانتهم بالمال.

(٢) أي: ما يقع من أنك تُكرم ضيوفك.

(٣) أي: أنك تتبرّع بالمال لمن لا يجده.

(٤) أي: حوادثه، ومنها: إغاثة الملهوف.

(٥) خاتم النبيين: (٢٠٩/١).

إليه العزلة؛ حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء، والبغي على الناس، أو المطامع الدنيئة، كأكل أموال الناس بالباطل؛ وذلك ليعبثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً له بالتأسي به، وجعله المثلَ البشري الأعلى؛ لتنفيذ ما سيوحيه إليه من الشرع الأعلى^(١).

- ومما يستفاد كذلك في هذه المرحلة أن الله ﷻ قد صرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين، وكذلك من أهل الكتاب، حتى إنه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخرُ به قومه من فصاحة اللسان، وبلاغة البيان، من شعرٍ وخطابةٍ ومفاخرةٍ ومنافرةٍ^(٢)؛ إذ كانوا يؤمنون أسواقَ موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي؛ لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، واتساع معارفهم، وكثرة الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يهددَ محمدٌ ﷺ في مشاركتهم فيه بنفسه أو بروايته لما عساه يسمعه منه، وبناءً على ذلك فقد جعل الله ﷻ استعدادَ محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطرياً وإلهامياً، لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي، وأنه لم يرو عنه أنه كان يروجوها، بل لم يكن يروجوها^(٣).

(١) انظر: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ط ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ص (١١١).

(٢) المنافرة: المحاكاة والمفاخرة في الأحساب والأنساب.

(٣) انظر: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص (١١٣).

- ومن فقه هذه العبادة وفور عقله وذكاء لبّه ﷺ ، وقد قال القاضي عياض في فضل عقله ﷺ وآثاره في الإسلام : (وأما وفور عقله ، وذكاء لبه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجب شمائله ، وبديع سيره ، فضلاً عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه ، لم يمتز في رجحان عقله ، وثقوب فهمه ، لأول بديهة ، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه ... ولقد قال وهب بن منبه : قرأت في أحد وسبعين كتاباً ، فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم رأياً . وفي رواية أخرى : فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا)^(١).

* * *

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض ، تحقيق : عامر الجزار ، دار الحديث - القاهرة ، ص (٥٣) .

الباب الثاني من البعثة إلى الهجرة

الفصل الأول نزول الوحي وتبعاته

ابتداء نزول الوحي عليه ﷺ :

تروي لنا السيدة عائشة - رضي الله عنها - بداية النبوة وقصة نزول الوحي (١) فتقول: (كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بَعَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّتُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي أَوْلَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِدَلِكِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى حَدِيحَةٍ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: "مَا أَنَا بِقَارِيٍّ"، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَعَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: "مَا أَنَا بِقَارِيٍّ"، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ»، فَأَخَذَنِي، فَعَطَّنِي الثَّلَاثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَائِكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٢)، فَرَجَعَ بِهَا

(١) الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين بن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (١/٦٤٨)، والبداية والنهاية: (١١/٣)، المختصر الكبير في سيرة الرسول، (٣٢-٣٥).

(٢) سورة العلق: الآيات (١-٥).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْجُفُ بِوَادِرِهِ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: "زَمِّلُونِي
زَمِّلُونِي"، فزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ^(١).

إِذْنِ فَمِنْ خَلَالَ أَمِينِ الْوَحْيِ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَدَأَ الْوَحْيُ
الْمَشْرَفُ، وَنَزَلَتْ أَوَّلُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ﴾^(٢)، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ ﷺ؛
حَيْثُ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: "ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ
بُعِثْتُ - أَوْ أُنزِلَ عَلَيَّ فِيهِ -"^(٣).

وهنا يأتي هذا الموقف الرائع للسيدة خديجة - رضي الله عنها -
والتي كانت أعظم من آنت رسول الله ﷺ عند ابتداء الوحي، فسارعت
تهدئ من روعه، وتثبت له بالدليل، وبعقلية ثاقبة راجحة مدركة، وخلفية
مُجَرَّبَةٍ، مُذَكَّرَةٍ إِيَّاهُ بِصِفَاتِهِ النَّفِيسَةِ الْمَعْرُوفَةِ بَيْنَهُمْ، بَأَنَّ الَّذِي جَاءَهُ هُوَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ،
وَقَالَ: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ بِحَسَنِ اسْتِنْبَاطِهَا مِمَّا
فِيهِ ﷺ مِنْ خِصَالِ شَرِيفَةٍ: (كَلَا أَبْشِرُ، فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، وَاللَّهِ
إِنَّكَ لَتَنصِلُ الرَّحِيمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي بَدَأِ الْوَحْيِ، بَابُ كَيْفَ كَانَ بَدَأَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟،

(٧/١)، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ، بَابُ بَدَأَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١٣٩/١).

(٢) سُورَةُ الْعَلَقِ: آيَةُ رَقْمِ (١).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الصِّيَامِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ

عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، (٨١٩/٢).

وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ^(١) .

وكانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - هي أول من آمن بالنبى ﷺ ، " ثم انطلقت - رضي الله عنها - به ﷺ إلى ورقة بن نوفل ، وكان رجلاً قد تنصر ، شيخاً أعمى يقرأ الإنجيل بالعربية ، فقالت له خديجة رضي الله عنها : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بالذي رأى من ذلك . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى عليه السلام ، يا ليتني أكون حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : " أو مخرجي هم ؟ " قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرًا " ^(٢) .

ولعل من يتأمل في كلام ورقة بن نوفل ، وقوله لرسول الله ﷺ : (يا ليتني أكون حين يخرجك قومك) ، ثم استبعاد رسول الله ﷺ أن يخرجوه - لأنه لم يكن هناك سبب يقتضي الإخراج ؛ لما اشتمل عليه ﷺ من مكارم الأخلاق التي تقدم من السيدة خديجة - رضي الله عنها - وصفها - فقال : " أو مخرجي هم ؟ " ، ثم التأكيد وبيان العلة في ذلك الإخراج من ورقة بقوله : (نعم لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي)

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ، كتاب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ؟ ،

(٧/١) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٣٩/١) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في بدء الوحي : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ؟ ،

(٧/١) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، (١٣٩/١) .

وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا)، أي: أن العلة في ذلك هو مجيئه ﷺ لهم بالانتقال عن مألوفهم؛ ولأنه - أي: ورقة بن نوفل - علم من الكتب أنهم لا يُجيبونه إلى ذلك، وأنه يلزمهم من ذلك منابذته ومعاندته، فتنشأ العداوة منهم له ﷺ .

فالمتمأمل إذن في ذلك الحوار بين رسول الله ﷺ وورقة بن نوفل، يجد دلالة على سبق الحدث قبل أن يحدث؛ حيث أخبر ورقة بن نوفل رسول الله ﷺ بأنه سيخرج من بلده، وسيُخرجه منها قومه، وسيقع له العداوة والتعنُّت منهم، مما يضطره للخروج والهجرة من بلده. إذن فالحديث عن الهجرة قد سبق الحدث نفسه .

من فقه بدء الوحي المشرف :

- طلب العلم الشامل بشقيه الديني والمادي؛ فإن أول ما استهلَّ به الوحيُّ المشرفُ إلى النبي ﷺ في أول آية صافح بها الوحيُّ قلبه، أن قال له: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾⁽¹⁾ في إشارةٍ دقيقة بالغة يُبينُ ﷺ من خلالها أن العلم الذي يدعو إليه الإسلام، هو العلمُ الشاملُ، بشقيه الدينيِّ والماديِّ.

فأما الشق الديني: فهو العلوم التي مصدرها الوحي، وتعنى بأمور العقيدة والشريعة، وبناء الإنسان، والقيِّم، والتصور العام للوجود والنفس الإنسانية، ونظام المجتمع .

(1) سورة العلق: آية رقم (1) .

وأما الشق المادي : فهو علوم البحث في ظواهر الكون والحياة، ويهتدي الإنسان إليها بمداركه البشرية التي أنعم الله بها عليه ؛ ليصيرَ طريقَ المعرفةِ الصَّائبة، ويفتح مغاليق الحضارة، على أن تظل هذه العلوم الكونية في عالم الشهادة دنيوية بعلاقتها مع الأشياء، وتعبدية في الوقت نفسه لصلتها بالخالق الواحد سبحانه وتعالى^(١).

- أن العلم والمعرفة وسيلة جوهرية تعزز قيم التقدم والبناء والحضارة، ومن ثم فينبغي أن يستوعب العلم طبيعة العصر وفهم متطلباته؛ لإثراء العقل الجمعي لأجيالنا بثقافة شاملة يستوعبون بها حاضرهم، ويعملون بها لمستقبلهم ومستقبل وطنهم .

- أن العلم المراد هو الذي يستشرف المستقبل، لا الذي يلهث وراءه، ولبيان ذلك نقول : إن هناك فنونًا وعلومًا رئيسة للعلم بشقه الشرعي، تتمثل في علوم أصول الدين (الإيمان)، وعلوم الفقه (الإسلام)، وعلوم التزكية (الإحسان)، ولا بد وأن يُعلم أن المراد الإلهي لتلك العلوم الثلاثة أن تكون سابقة على الزمان، بمعنى أنه كلما جاد الواقع بجانب من المتغيرات والمستجدات، يجد أن تلك العلوم الثلاثة تُنير له الطريق ؛ لأنها تجري قبله وتسبقه، وهذا يتطلب عزائم التخيل وقوة الابتكار، وأما إذا تراجعت هذه العلوم عن عزائم التخيل والابتكار، فلا أقل من أن

(١) انظر : الإسلام وقضايا التنمية الشاملة ، دراسة للأبعاد الإيمانية للتنمية ، د/ نبيل السمالوطي ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، العدد (٩٦) ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ص (٢٢) .

تتوازي وتتواكب مع المتغيرات ومستجدات العصر ، فلا بد من صناعة الأجيال على إدراك هذه الحقيقة للعلم بشقه الشرعي لتحقيق ما يريده الوحي الشريف من عوامل التقدم والتنمية، والذي يجب أن نكون عليه . وما قيل في العلم بشقه الشرعي، يوازيه العلم بشقه الدنيوي.

ولمزيد تدقيقٍ في بداية الوحي المشرّف ، وأول ما نزل على قلب النبي ﷺ ، نتساءل عن مفعول ﴿أَقْرَأْ﴾ والغاية من السؤال ألا نقصر المراد من قوله تعالى : ﴿أَقْرَأْ﴾ على المفهوم اللغوي فقط ؛ حتى لا نستبعد المعنى الشامل من أن يكون مفعول : ﴿أَقْرَأْ﴾ هو قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ؛ لأنه فعل متعدٍ ، ومن هنا فلا بد من القراءة الكونية من خلال العلوم اللازمة لذلك ، فالآية الكريمة تدعو إلى دراسة العلوم الكونية التي تمكّن من هذه القراءة الكونية ، ونحن إذا تتبعنا الآيات القرآنية، لوجدناها وضعت لنا آيات كريمة ، هي بمثابة معرض للصناعة الإلهية ، لو أنك دخلت مثلاً معرضاً ما تُعرض فيه سلعة معينة ، فأنت تأخذ منها ما يعجبك ، وتصفها بأجمل ما وجدت فيها من أوصاف ، فكذلك - والله المثل الأعلى - الآيات الكونية ، ومن هنا فلا بد من صناعة الأجيال حسب طموحاتهم على هذا الشق الثاني للعلم (الدنيوي) ؛ ليحدث التكامل مع شقه الأول (الديني)، فإذا نظرنا إلى العوالم التي خلقها الله ﷻ في هذا الكون (عالم الجماد - النبات - الحيوان والحشرات - الإنسان - الأفلاك) وتساءلنا : هل ترك القرآن شيئاً منها لم يتعرض له ؟ لا

شك أن الإجابة : لا، بل إنه سبحانه وتعالى طلب منا وأمرنا أن نبحث فيها ، والآيات في ذلك تترى ، منها : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)، وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) وغيرها من الآيات التي تدعونا إلى النظر في الكون والملكوت ، وهناك سور بأسماء بعض الكائنات من الحشرات والحيوانات (النمل - النحل - العنكبوت - البقرة - الأنعام)، والظواهر الكونية (الفلك - القمر - الشمس - النجم - الضحى) ، ولا شك أن هناك غاية ومراداً إلهياً منها !!

- أن التعليم ضرورة شرعية ووطنية ، فلا بد فيه من تعاون مؤسسي ، فليس الأمر مقتصرًا على مؤسستي الأسرة والمدرسة فقط ، بل يشترك فيه كلُّ من يملك أيَّ قدرٍ من القدرة على صناعة النشء صناعة صحيحة ؛ ليؤسس أجيالاً تجمع العلوم والمعارف بطرق شتى وصحيحة ؛ مما يسهل به تشكيل عقليتهم وصناعة الحياة مستقبلاً .

- أن العلم يستلزم سبق المعاصرين ؛ وذلك لأن صناعة العالم لا بد فيها من التأصيل والتوصيف ، وحتى يستطيع العالم النأيه الجمع بينهما ، فلا بد له من التأصيل للماضي مع إدراك واجب الوقت ؛ ليستشرف

(١) سورة العنكبوت : آية رقم (٢٠) .

(٢) سورة يونس : آية رقم (١٠١) .

المستقبل، ومعلوم أن المقصود الرئيس هو التنمية المعرفية التي تؤدي إلى التقدم في كل مجال .

- ﴿أَقْرَأْ﴾ دعوة آمرة إلى الثقافة، إلى العلم، إلى الفكر، إلى البحث المستفيض في السماء والأرض، وفي الجبال والبحار، وفي كل ما خلق الله تعالى من كائنات، صغرت أم كبرت، إن بداية الوحي المشرف بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ﴾، هي دعوة صريحة للمسلمين أن يستجيبوا إلى التوجيه الإلهي، فيسخرون كل ذلك بالعلم والمعرفة، ويمتلكون الكون مستعملين الملاحظة والتجربة في نفع الإنسانية .

- الإسلام لا يتعارض مع العلم الحديث، حيث إن الإسلام قد وجه المسلم إلى المعرفة الدينية وما يتعلق بها، كما وجهه إلى الملاحظة والتجربة وما يتعلق بهما، فيجمع بين الاتجاه العلمي الحديث بأدواته المختلفة، والاتجاه المعرفي الديني بقيمه وأخلاقه وحب الإنسانية والمعاونة في الخير؛ مما جعل الحضارة الإسلامية قد تميزت بأنها حضارة الرحمة والهداية لا حضارة تدمير وتخريب^(١) .

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم إنما نشأت بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التي حثت الإنسانية على التعليم، والتي ولدت المنهج العلمي الذي يسمونه (المنهج الحديث) بين ربوعها، والتي أنشأت - على أساس من هذا المنهج - حضارة ضخمة، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أبحاثها العميقة، وما من شك في أن الحضارة

(١) الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، ص (٨٨، ٨٩) .

الإسلامية هي التي قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية في كثير من المجالات المختلفة .

وإذا كان المنهج العلمي الحديث في أوروبا يرجع إلى (روجر بيكون)؛ حيث إنه هو الذي أذاعه ونشره في أرجاء أوروبا، فإن الأستاذ (بريفولت) في كتابه " بناء الإنسانية " يقول عن (روجر بيكون) : (إنه درس اللغة العربية، والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة^(١) .

ويقول (بريفولت) أيضاً : (لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج ... إن العبقورية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام، ولم يكن العلم - العلم وحده - هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، وإنما تأثيرات أخرى متعددة من الحضارة الإسلامية أشرفت إشعاعاتها على الحياة الأوروبية^(٢) .

(١) انظر : تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة : محمد يوسف عدس، ٢٠١١م، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ص (٢١٣-٢١٥).

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص (٢١٥) .

فإذا كان الإسلام هو الذي أنشأ هذا المنهج وهذا العلم ، فمن الطبيعي ألا يتعارض معه .

فتور الوحي وفقه الإعداد وتهذيب الشوق لرسول الله ﷺ:

عاد رسول الله ﷺ بعد لقاء الوحي المشرف في غار حراء إلى زوجته السيدة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها- ، يقول : "زملوني زملوني" ، فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع ، وهذا الرّوعُ كان أمراً وانفعالاً طبيعياً ، فهذا الملكُ جبريلُ - عليه السلام - مُتَّصِلٌ بِبَشَرٍ هو محمد بن عبد الله ، ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ﷺ ؛ وذلك حتى تتم له تهيئةُ رصينةٍ لما هو مُقبلٌ عليه من استقبال الملك والوحي .

لكن أیظل هذا الرّوعُ ، وتلك الرجفة التي تعرّض لها مع بداية الوحي ؟ لا ، إن الوحيَ یفتر لفترة ؛ فيشتاق الرسولُ ﷺ إليه ، وبصير قادراً على تحمله .

وقد اختلفت الرواياتُ في تحديد مدة فتور الوحي ، ومن جملة ما ورد في ذلك نخلص إلى أن تقدير أقصى مدة لهذا الفتور ثلاث سنوات ، وأن أقلها ستة أشهر^(١) ، والذي يعيننا هنا أن البيانَ القرآنيَّ قد سكت عن تحديد مدة انقطاع الوحي ، ولو كان هناك مقصودٌ رئيسٌ من ذكر مدة فتور الوحي ، لما أمسك القرآنُ الكريمُ عن تحديده ؛ إذ إن الأصل هنا هو جوهر الموقف ، لا مجرد تفصيلاته الجزئية ، ومن هنا كان البحثُ

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٢٧/١) ، والمختار من كنوز السنة النبوية ، د. محمد عبد الله دراز ، دار القلم للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤٣٦هـ ، ٢١٠٥م ، ص(٣٨، ٣٩).

الدقيقُ أحرى حول الحكمة من فتور الوحي وانقطاعه عن رسول الله ﷺ أيًا كانت مدته (١) .

فلقد عاد الوحيُ إليه ﷺ ؛ حيث يروي سيدنا جابرُ بن عبد الله الأنصاريُّ ؓ، وهو يحدثُ عن فترةِ الوحيِ - أي : رسول ﷺ - فقالَ في حديثه: " بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي ، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَرَعِبْتُ مِنْهُ ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ : " زَمُّونِي زَمُّونِي " ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ (٢) ، فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ " (٣) .

- أنه كان إعدادًا إلهيًا لرسول الله ﷺ ، فحين جاء الوحي لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ ، ثم فتر الوحي ليستريح ﷺ ، وتتجدد قدرته على استقبال الوحي من بعد ذلك .

إذن كان فتور الوحي لمدة من الزمن من أجل مساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية ؛ ولذلك أقسم الله ﷻ بالضحى والليل، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة، والتي يعترف بها كل إنسان، أقسم سبحانه وتعالى بأنه ما قلَى رسوله، ومعلوم أن هذه الظاهرة الكونية المشاهدة

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم ، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة

ببنت الشاطي ، ط ٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، (١/٣٦) .

(٢) سورة المدثر: الآيات (١-٥) .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ ، (١/٨٠٧) .

والمُعْتَرَفُ بها عند الجميع، هي أن الله خلق النهارَ وجعله مَحَلًّا للحركة والنشاط والسعي، وخلق الليل وجعله مَحَلًّا للراحة والسكون، فيرتاح الإنسان في الليل ليعاود نشاطه في الصباح من جديد، وهكذا كان أمر الوحي مع رسول الله ﷺ، فلما أجهده الوحيُ احتاج إلى وقتٍ يرتاحُ فيه، لا لتنتهي المسألة بلا عودة، بل ليُجدد نشاط النبي ﷺ، ويُشوّفه للوحي من جديد؛ لذلك بشره بقوله: ﴿وَلَا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (١) أي: انتظر يا محمد، فسوف يأتيك خيرٌ كثيرٌ.

لقد شاء الله ﷻ بفتور الوحي أن يعطيه طاقةً تزيد من حركته، وتزيد من جهده؛ ليشتاق ﷺ لأمر الوحي. وبذلك أعانه الحق على مهمته، وفي هذا أبلغ ردٌّ على من قالوا: (إن ربَّ محمدٍ قد قلاه)، وإثبات أن الحقَّ قد شاء لفترة فتور الوحي أن تكون كالليل سكونًا، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذي استقبل به الوحي.

- أن فتور الوحي كان لتربية وتهذيب الشوق عند رسول الله ﷺ فكان فرصةً للنبي ﷺ ليتأمل ويهدأ؛ حيث أراد الله ﷻ لرسوله ﷺ أن يستريح من مشقة الوحي حتى يزول عنه الألمُ والعناء، وعندها يشتاق ﷺ للوحي من جديد ويهون عليه، فيتحملة وبصير له دُرْبَةً على تلقيه من المَلَكِ، فشَوَّقَ الإنسان إلى الشيء يجعله يتحمل المشاق في سبيله، ويُهَوِّنُ عليه الصعاب، كالذي يسير إلى محبوبه فلا يبالي حتى لو سار على الشوك، أو اعترضته المخاوف والأخطار.

(١) سورة الضحى: آية رقم (٤).

- أن فتور الوحي كان لإعداد رسول الله ﷺ لتحمل الثقل المصاحب له؛ فمعلوم أن الوحي هو لقاء بشري بملكي، فإما أن ينتقل الرسول إلى مرتبة الملك، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر، وهذا التقارب لم يحدث في بداية نزول الوحي، بل لاقى ﷺ في اللقاء الأول بالملك الضمّ الشديد، فأجهد رسول الله ﷺ، فاحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحي؛ لإعداده لتحمله، فلقد كان للوحي صلصلة كصلصلة الجرس، وكان هذا الصوت إعلان أن زمن وساعة الوحي قد جاءت، فاستعد لها يا رسول الله، وعندما تعب رسول الله ﷺ في البداية، كان من رحمة الله به أن يجعل الوحي يفتر عنه، فيشتاق ﷺ للوحي بسبب حلاوة ما أوحى إليه، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً للمتاعب^(١).

وكان ﷺ يخاف نسيان ما يُوحى إليه؛ حيث كان يعالج شدة التّزِيلِ، فيُحرِّكُ شَفْتَيْهِ - لِيَلَا يَنْسَى - بتكرار وترديد ما يُوحى إليه خلف جبريل - عليه السلام-، وكان ذلك لشدة حرصه على الحفظ والتثبيت، فنهاه الله ﷻ عن أن ينشغل بالتكرار والترديد، وأمره أن يستمع وينصت إذا قرأ جبريلُ - عليه السلام - الوحي، قال تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٢) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ يُلْقَى مِنْهُ شِدَّةٌ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ عُرِفَ فِي تَحْرِيكِهِ

(١) خواطر الشعراوي، دار أخبار اليوم، (٢٨٢٧/٥).

(٢) سورة القيامة: الآيات (١٦-١٩).

شَفَتِيهِ يَتَلَقَى أَوَّلَهُ وَيُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، خَشْيَةً أَنْ يَنْسَى أَوَّلَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ مِنْ
آخِرِهِ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١).

كيفية نزول الوحي ومراتبه:

إن الذي يتأمل كتب السنة المشرفة وما ورد فيها من أمر الوحي،
سيجد تفاصيل طويلة تبرز كيفية نزوله وبيان العوارض التي كانت
تغشاه ﷺ عندما يأتيه الوحي، وبالجملة فهو تحليل موسع لكل ما يتعلق
بشأن رسول الله ﷺ مع الملائكة الأعلی من خلال استقبال الوحي بمراتبه
المختلفة، ومنها (٢):

١- الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ: وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِهِ ﷺ، وَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا
جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ.

٢- مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رَوْعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ: كَمَا قَالَ
النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى
تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ
الرُّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ».

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك
القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، ط ٧، ١٣٢٣هـ، المطبعة الكبرى
الأميرية، مصر، (٤٠٦/٧).

(٢) انظر: المواهب اللدنية، للقسطلاني، المكتبة التوفيقية، مصر، (١٢٥/١-١٢٧)، الدين
والوحي والإسلام، مصطفى عبد الرازق، هدية مجلة الأزهر، عدد شهر المحرم ١٤٣٧هـ،
ص ٦٤-٦٧.

٣- أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلِكُ رَجُلًا فَيَرَاهُ عِيَانًا وَيُخَاطِبُهُ حَتَّى يَبْعِي عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ: كَانَ يَرَاهُ فِي صُورَةِ دَحِيَّةِ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ، وَكَانَ جَمِيلًا وَسِيمًا، وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أحيانًا.

٤- أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ، فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلِكُ حَتَّى إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّى إِنَّ رَاحِلَتَهُ لَتَتَبَرَّكُ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا. وَلَقَدْ جَاءَ الْوَحْيُ مَرَّةً كَذَلِكَ وَفَخِذَهُ عَلَى فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فَتَقَلَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَرُضُّهَا.

٥- أَنَّهُ يَرَى الْمَلِكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَهُ، وَهَذَا وَقَعَ لَهُ مَرَّتَيْنِ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ أَفَتُكْفَرُونَ بِهِ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾﴾ (١).

٦- مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرَضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

٧- كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِإِلَاحِ وَأَسْطَةِ مَلِكٍ، كَمَا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ ثَابِتَةٌ لِمُوسَى قِطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ.

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ خَلَقَهُ الْقُرْآنُ، وَنُورَهُ الْقُرْآنُ، وَمَنْهَجَهُ الْقُرْآنُ،

(١) النَّجْمُ: ٧-١٣.

فالقرآن هو النور ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ نُورًا مُبِينًا﴾^(١)، نزل من النور ﴿اللَّهُ نُورٌ﴾^(٢)، على النور ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(٣)، بواسطة النور، وهو جبريل، وجبريل من الملائكة، وقد قال ﷺ: " خَلَقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ " ^(٤)، إلى النور ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَاوَأَعْفِرُ لَنَا إِنْكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).

رد شبهة (محمد ﷺ أمي فكيف علم القرآن؟) :

لقد كان أول لقاء بين سيدنا جبريل - عليه السلام - الذي يحمل الوحي بالقرآن وبين رسول الله ﷺ: ﴿أَقْرَأْ﴾، والمتأمل في هذا الفعل ﴿أَقْرَأْ﴾، سيجد أن رسول الله ﷺ لكي يؤدي هذا الفعل، لا بد وأن يقرأ مما هو محفوظ في ذهنه، أو مما هو مكتوب أمامه، فقلوه: ﴿أَقْرَأْ﴾، أمرٌ بالقراءة، والقراءة تُطَقُّ بِكَلَامٍ مُعَيَّنٍ مَكْتُوبٍ أَوْ مَحْفُوظٍ عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ^(٦)، ولكن هذين الأمرين انتفي وجودهما، فما كان رسول الله ﷺ حافظاً

(١) سورة النساء: الآية رقم (١٧٤).

(٢) سورة النور: الآية رقم (٣٥).

(٣) سورة المائدة: الآية رقم (١٥).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفائق، باب في أحاديث متفرقة، (٢٩٩٦/٤).

(٥) سورة التحريم: الآية رقم (٨).

(٦) التحرير والتنوير « تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد »،

محمد الطاهر ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط ١٩٨٤م، الدار التونسية

للنشر، تونس (٤٣٥/٣٠).

لشيء ليقرأه ، وكذلك ما كان أمامه كتابٌ ليقرأ منه ، ومع فرض وجوده فمعلوم أنه ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب .

فالأمرُ بالقراءةِ مُستعملٌ في حقيقتهِ مِنَ الطَّلَبِ لِتَحْصِيلِ فِعْلٍ فِي الْحَالِ أَوْ الاسْتِقْبَالِ ، فَالْمَطْلُوبُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَقْرَأْ ﴾ أَنْ يَفْعَلَ الْقِرَاءَةَ فِي الْحَالِ أَوْ الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ مِنَ الْحَالِ ، أَي : أَنْ يَقُولَ مَا سَيُمْلَى عَلَيْهِ ، وَالْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ بِقِرَاءَةٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ ، أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمَ إِمْلَاءُ كَلَامٍ عَلَيْهِ مَحْفُوظٍ فَتَطَلَّبَ مِنْهُ قِرَاءَتُهُ ، وَلَا سَلَّمَتْ إِلَيْهِ صَحِيفَةٌ فَتَطَلَّبَ مِنْهُ قِرَاءَتُهَا ، فَهُوَ كَمَا يَقُولُ الْمُعَلِّمُ لِلتَّلْمِيزِ : اكْتُبْ ، فَيَتَأَهَّبُ لِكِتَابَةِ مَا سَيُمْلَى عَلَيْهِ^(١) .

وعندما قال جبريل - عليه السلام - : ﴿ أَقْرَأْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : ما أنا بقارئ ، ومع تكرار القول منه ثلاث مرات : ﴿ أَقْرَأْ ﴾ ، نجد أن الرسول ﷺ يجب بنفس الإجابة : ما أنا بقارئ ، وهو ﷺ منطقيٌّ في ردِّه بناءً على قدراته التي تخبر بأنه لا يستطيع أن يقرأ ، ولقد أخذ المشككون من هذا الحوار ما أثاروا به شبهةً مبناهما : كيف يقول الله لرسوله : اقرأ ، ويرد الرسول : ما أنا بقارئ ، فكيف علم القرآن إذن ؟

والرد على هذه الشبهة نقول:

أولاً : إن الله تبارك وتعالى كان يتحدث بقدراته التي تقول للشيء كن فيكون ، فكأن المراد من الأمر بالقراءة ، أي : كن قارئاً باسم الله من

(١) المرجع السابق (٤٣٥/٣٠) .

قبيل الأمر التكويني^(١)، وبناءً على ذلك فإن رسول الله ﷺ كان يتحدث بشريته التي تقول إنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكن قدرة الله هي التي ستأخذ هذا النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب، لتجعله مُعلِّماً للبشرية كلها إلى يوم القيامة؛ لأن كل البشر يعلمهم بشر، ولكن محمداً ﷺ سيعلمه الله سبحانه وتعالى؛ ليكون مُعلِّماً لأكبر علماء البشر، يأخذون عنه العلم والمعرفة؛ لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(٢)، أي: أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق من عدم سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله، وسيكون ما تقرؤه وأنت النبي الأمي إعجازاً، ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله، ولكن للدنيا كلها، وليس في الوقت الذي ينزل فيه فقط، ولكن حتى قيام الساعة؛ ولذلك قال: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(٣)، أي أن الذي ستقرؤه يا محمد، سيظل معلماً للإنسانية كلها إلى نهاية الدنيا على الأرض^(٤).

ثانياً: ليس كون النبي ﷺ أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، مما يُعاب به ﷺ، بل إن هذا الأمر في ذاته تأكيدٌ ودليلٌ قويٌّ على أن ما نزل عليه

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي،

تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (٥٠٧/٩).

(٢) سورة العلق: الآيات (١، ٢).

(٣) سورة العلق: الآيات (٣، ٤).

(٤) خواطر الشعراوي، (١/٤٢).

من القرآن إنما هو وحيٌ أُوحِيَ إليه من الله، لم يقرأه في كتابٍ، ولم ينقله عن أحدٍ، ولا تعلّمه من غيره، وبهذا يكون الاتهام شهادة له لا عليه، وقد ردّ القرآنُ على هذه المقولة ردّاً صريحاً في قوله: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَوّاً رَحِيماً ﴿١﴾.

وحسب النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة أن يكون الكتاب الذي أنزل عليه معجزاً لمشركي العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة، بل ومتحدياً أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة من مثله (٢).

ثالثاً: إن قولَ المَلِكِ لَهُ فِي الْمَرَّاتِ الثَّلَاثِ: ﴿اقْرَأْ﴾، إِعَادَةٌ لِلْفِعْلِ الْمُنزَلِ مِنْ اللَّهِ إِعَادَةٌ تَكْرِيرٌ لِلِاسْتِنْسَانِ بِالْقِرَاءَةِ الَّتِي لَمْ يَتَعَلَّمَهَا مِنْ قَبْلُ (٣).

رابعاً: إن هناك أغراضاً رئيسة أرادها النصُّ القرآنيُّ من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَائِكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٤)، منها:

- تَلْقِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْكَلَامَ الْقُرْآنِيَّ وَتَلَاوُتَهُ إِذْ كَانَ لَا يَعْرِفُ التَّلَاوَةَ مِنْ قَبْلُ.

- الإِيْمَاءُ إِلَى أَنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ مُبَسَّرٌ لِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَلْهَمَ الْبَشَرَ الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ قَادِرٌ عَلَى تَعْلِيمِ مَنْ يَشَاءُ ابْتِدَاءً.

(١) سورة الفرقان: الآيات (٦،٥).

(٢) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، ط ٦، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص (٣٧٧).

(٣) التحرير والتنوير، (٤٣٦/٣٠).

(٤) سورة العلق: آية رقم (١).

- إِيْمَاءٌ إِلَى أَنْ أُمَّتُهُ سَتَصِيرُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعِلْمِ.
- تَوْجِيهُهُ إِلَى النَّظَرِ فِي خَلْقِ اللَّهِ الْمَوْجُودَاتِ وَخَاصَّةً خَلْقَهُ الْإِنْسَانَ خَلْقًا عَجِيبًا مُسْتَخْرَجًا مِنْ عَلَقَةٍ فَذَلِكَ مَبْدَأُ النَّظَرِ.
- تَثْبِيتُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى مَا جَاءَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالصَّلَاةِ وَالْتِقَابِ إِلَى اللَّهِ^(١).

تدبر القرآن الكريم :

إن تدبر القرآن هو محاولة فهم معانيه ، وترجمة هذه الآيات القرآنية المشرفة إلى برامج عمل وخطط تطبيقية ، فالعبرة ليست بالكلمة المقروءة ، وإنما العبرة بالكيفية ومدى تحويل الآيات القرآنية إلى أخلاق عملية في حياة كل مسلم ، فالقراءة للقرآن عبادة وعليها أجر ، وإعطاء كل حرف مخرجه الصحيح عبادة ولها أجر ، ومحاولة استخدام قواعد التجويد عبادة ولها أجر ، ولكن الخطورة بعد ذلك كله في عدم الانفعال بما هو مقروء ، فكرامة القرآن لا تكون إلا لمن انفع له وترجم معانيه في حياته ، وهذا سلوك ومنهج ينبغي أن يتمثله المسلم ، وهذا هو سلوك رسول الله ﷺ ؛ ولذلك حين أرادت السيدة عائشة أن تعطي وصفاً دقيقاً لخلق رسول الله ﷺ ، قالت : (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)^(٢) ، أي : كان خير مطبق و مترجم للآيات القرآنية المشرفة ، وتحويلها إلى واقع عملي مجسد في الحياة .

(١) التحرير والتنوير ، (٤٣٤/٣٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤١) .

ومن هنا وجدنا علماء التفسير يُتقنون في تنزيل الآيات القرآنية على معانيها المرادة بما يكشف الأنوار الكامنة فيها؛ وذلك لأنهم يختارون التعبير الدقيق الذي يريده النص من بين احتمالات كثيرة من الممكن أن ترد، ولكنهم لا يختارون بمجرد الاختيار من بين بدائل كثيرة متاحة، بل يتأنق المفسر بصنعة معرفية لا يمكن التوصل إليها إلا بإدراك نسق الوحيين الشريفيين في التعبير؛ بما يقتضي الإحاطة التامة باللسان العربي وأسراره وتراكيبه وعلومه، وبقية أدوات الاستنباط، فيصير المفسر بعد ذلك كله أميناً مأموناً على مقاصده دون أن يُقَوِّل القرآن ما لم يقله .

ومن هنا فلا بد من التأكيد على أن كل شيء في القرآن، إنما هو بحكمة ولحكمة، وما من سورة في القرآن الكريم إلا ولها دلالات ومعان وإشارات، في ألفاظ القرآن الكريم، وتراكيبه، وأساليبه، ومعانيه، وأسماء سورته، ودلالاته الزمنية، والمكانية، وتجاوز إلى الظواهر الكونية؛ مما يستحق القرآن مع كل هذا دراسة علمية أكاديمية متخصصة وافية، تجلي أسراره ودلالاته، بما فيها من فيض وإعجاز علمي وبلاغي^(١).

بدايات انطلاق الدعوة :

بمجرد نزول الوحي على رسول الله ﷺ، بدأ في ترجمته واقعيًا وتحويله إلى خطط تطبيقية، فأخذ يدعو إلى ما أمره الله به بحكمة عالية، وبراعة فائقة، متمسكاً بالأدوات والآليات الممكنة حينها للدعوة إليه ﷺ.

(١) انظر : على مائدة القرآن الكريم ، أ.د محمد مختار جمعة ، ط٢ ، ١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص(٦-١٤).

ومعلوم أن رسول الله ﷺ وقت أن بُعث ، كانت الجاهلية منتشرةً من خلال أبنية راسخة ، فهناك بناء للشرك وعبادة الأصنام، وآخر للأخلاق المردولة، وثالث للمعاملات الربوية، ورابع لنظم طبقية، وخامس لعادات وتقاليد قبلية.... وهكذا أبنية كثيرة مختلفة، وكان الدور الرئيس لرسول الله ﷺ أن يهدمها ويعيد بناءها مرة أخرى وفق منهج الوحي المشرف، ولا شك أنه ﷺ يحتاج في ذلك إلى أدوات وآليات وأولويات تُمكنه من هاتين العمليتين (الهدم ثم البناء)، ثم إنه ﷺ لن يبني بناءً جديداً بمجرد هدم السابق، بل لا بد - بعد الهدم - من إزالة آثار الهدم أولاً ، ثم يحتاج إلى تهيئة الأرض ثانياً للبناء الجديد ، ثم يأتي البناء الجديد ثالثاً ؛ لأجل هذا كان هذا التفكير النبوي المشرف بأن يبدأ دعوته لا في المجالس العامة، ولا في اللقاءات الجامعة، بل بدأ الدعوة سرّاً ؛ حذراً من مفاجأة قريش بما يدفعهم إلى الحماسة الجارفة والاندفاع الطائش والتعصب الممقوت، والقسوة، والعنف ؛ لما هم عليه من شرك ووثنية ؛ مما يدفعهم إلى مقاومة وإنكار الدعوة إلى الله الواحد ونبت عبادة الأصنام .

ومن فقه هذه المرحلة:

- التفكير السليم من أهم الوسائل التي يجب اعتمادها في تحقيق المقاصد والغايات ، لا سيما إن كانت الغاية هنا هي الدعوة إلى الله ﷻ ، ومن هنا فلا بد للدعاة في كل عصر ومصر أن يحسنوا اتخاذ الأسباب بتفكير رصين وبدقة متناهية، والتي تؤدي بهم إلى غايتهم من

الدعوة إلى الله ﷻ ، وهذا يتطلب أمورًا ثلاثة : حسن فهم الدين ، حسن تطبيق الدين ، حسن عرضه على الآخر .

- أنه مما لا شك فيه أن من أركان الدعوة الرئيسة (الوسائل الدعوية)، ويراد بها : الآلات والأدوات التي ينقل بها الداعية رسالته الدعوية إلى الناس ؛ وبناء على ذلك فإن أساليب الدَّعوة متنوعةٌ ومتعددةٌ، ومن هذه الأساليب : (الدعوة بطريقة المواجهة المباشرة أو الاتصال المباشر)، ولا بد لهذه الوسيلة في الدعوة من معرفةٍ سابقةٍ بمن يتم دعوتهم.

- ومما يُستفاد أيضًا ، ما يمكن أن نسميه بـ (القدوة الحسنة) ، وتتميز هذه الوسيلة بأنها توجد بين الناس بطريقة تلقائية، فمن المعلوم أن الدعاة أفراد يعيشون مع غيرهم، ومن الأولويات هنا ألا يترك الدعاة هذه الوسيلة السهلة في مضمونها لبث مبادئ الإسلام السمحة من خلال أفعالهم قبل أقوالهم. وهذا يستلزم أن يكون الداعية حاضر الذهن دائمًا للقضايا التي تتقلب فيها البلاد والعباد بالرؤية الإسلامية الصحيحة والسلوك الإسلامي القويم.

- ولا شك أن وسائل الدعوة تعددت قديمًا، إلا أن العصر الحديث قد أضاف إليها أنواعًا أخرى، وما زال الجديد يظهر كل حين بوسائل جديدة، والداعية الناجح هو الذي يهتم بوسائل الاتصال المختلفة للاستفادة بها في الدعوة الإسلامية، وليس ذلك من باب مواكبة العصر

فقط ؛ وإنما لأن الاستفادة من المستجدات الحديثة يُعدُّ من الضرورات الواجبة شرعاً في الإسلام ؛ لا سيما مع انتشار ثقافة التشدد والانغلاق والفهم الضيق والمغلوط للنصوص الشرعية وتوظيفها حسب الهوى والانتماء دون فهم المراد منها وغايتها، وكذلك انتشار ثقافة الفرقة والتعصب وبذر بذور الفتنة بين أفراد الأمة وضرب لُحمتها.

- أن الداعية ينبغي عليه ألا يكون في معزل عن مجتمعه الذي يعيش فيه، بل يجب أن يعالج البناء الفكري للأمة بروية إسلامية مستنيرة تعمق قيم الإسلام الأصيلة وتعاليمه السمحة، فيعمل على إصلاح الفكر وتجديد لغة الثقافة والحوار لما يُرى من المتغيرات التي تطرأ على الحياة، فالأهم الواعية هي التي تحاول تجديد حيوية ثقافتها وحضارتها، مع رد وتصحيح كل فكر كان له انعكاسٌ سلبيٌّ على صورة الإسلام والمسلمين في العالم .

- أن الداعية يحمل على عاتقه مهمة خطيرة، وشديدة الأهمية، فهو يجاهد ويكابذ من أجل البيان الأصيل لمعالم الإسلام ومفاهيمه، حتى يكون عوناً في التغلب على المشكلات، وفي السير إلى إقامة النهضة والتقدم والرقي، فليُنظر جيداً إلى عميق تصرفات النبوة في مراحل الدعوة المختلفة.

- من القواعد الأصولية : (درء المفسدة أو المصرة مقدم على جلب المصلحة أو المنفعة)، وهذا ما نلاحظه هنا من نظر عميق، وفهم

سديد، وتصرف رشيد؛ حيث إن الرسول ﷺ ببصيرة النبوة قد قرأ الواقع قراءة رصينة مع تأصيله لماضي قريش وأحوال أهلها وقومها، وتنبؤه بالمستقبل، فعمد إلى المحافظة على هذه الأنفس التي يتم دعوتها إلى دين الله ﷻ، لعلمه بالموقف العام الذي من الممكن أن يتخذ ضد هذه الفئة القليلة، من زعماء قريش بما يحملون من تقاليد طبقية وغيرها .

- ترتيب الأولويات وفق المسؤولية، وهذا نلاحظه في هذه المرحلة الدقيقة من سيرة النبي ﷺ؛ فقد بدأ النبي ﷺ بدعوة أهله وأقاربه، ولا شك أنه في ذلك كان حريصاً أشد الحرص على هدايتهم والبدء بهم، وهنا لا بد من نظر عميق وتأمل دقيق في ترتيب الأولويات، فرب الأسرة ليست مسؤوليته مجرد النظر فيما يطلبه أهله وأولاده من كساء وغذاء ودواء وما شابه ذلك من الحاجيات والضروريات الدنيوية، فليست رعايته وفقاً على تناول الجانب البدني وما يتعلق به فقط، بل هي رعاية وعناية لا تكمل إلا إذا انتبه للبناء الإيماني والسلوكي والقيمي والأخلاقي، فمعلوم أن الولد يرجوه كل أب وأم، ولكن متى يكون هذا الولد قرة عين لوالديه؟ لا بد وأن يكون مستقيماً في تصرفاته، ناضجاً في تفكيره، عفيفاً في أسلوبه، وهذا لا يتأتى مع البناء الجسدي فقط، بل لا بد معه من البناء الفكري والنفسي والأخلاقي وقبلة الإيماني، ومن هنا فلا يقفز إنسان تاركاً بنيانه الرئيس - وهم من تحت مسؤوليته من الأقارب وذوي الأرحام بدرجاتهم المختلفة - إلى غيره .

الجهر بالدعوة :

عندما نزل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) استجاب نبينا ﷺ لأمر ربّه ، وصدع بالأمر ، وأعلن الدعوة إلى الخلق أجمعين ، وبذلك انتقل رسول الله ﷺ بالدعوة إلى ما هو أوسع وأعم ؛ حيث انتقل بالدعوة من الأقرباء والأصدقاء الأبرار إلى جميع قريش قريتهم وبعيدهم .

فتقدم رسولُ الله ﷺ ممثلاً للأمر الإلهي ، وجمع من بطون قريش، بني هاشم وبني عبد المطلب وغيرهم ، ولم يقف خطيباً فقط يلقي بعضَ العبارات والألفاظ، وإنما بدأ رسول الله ﷺ بطريقة ثابتة ، وفهمٍ سديدٍ ، ولغةٍ رشيدةٍ ، وتفكيرٍ دقيقٍ ، يستنطقهم بصفاته فيهم قبل أن يُبلِّغهم وحي الله إليه، وهذا دليل عميق على حسن تناول الأفكار وعبقرية صياغتها وعرضها ؛ ليصل ﷺ إلى العلة الغائية والمقصود الرئيس الذي يريد من خلال هذا الجمع، فأثبت أنه صادق أمينٌ بقولهم وشهادتهم – وما شهدوا بذلك إلا لخلفيةٍ سابقةٍ رصينةٍ عرفوها وشهدوا بها للنبي ﷺ واقعاً مجسداً بينهم وفيهم –، فلما أقرروا له بذلك قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفا، فَهَتَفَ: " يَا صَبَاحَاهُ" ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتَفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ،

(١) سورة الحجر: آية رقم (٩٤) .

(٢) سورة الشعراء: آية رقم (٢١٤) .

فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: "يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ"، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: "أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟" قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: "فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"، قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(١)، وَقَدْ تَبَّ^(٢).

وفي هذه المرحلة من الدعوة استثمر النبي ﷺ كلَّ الإمكانات المتاحة، بشرية كانت أم مادية، وعمل على حُسن الاستفادة منها .

فأما الإمكانات البشرية : فقد كان ذلك من خلال توجيهه ﷺ طاقات وجهود الصحابة الكرام، الذين آمنوا به ﷺ، كأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وبلال بن رباح، وغيرهم، - رضي الله عنهم جميعاً - ؛ حيث علمهم رسول الله ﷺ كيف يتعايشون مع مجتمعاتهم، وكيف يؤدي كلُّ منهم دوراً رئيساً من أدوار الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في الوقت المناسب ، وبالكيفية المناسبة ، وبالطريقة المناسبة، مع حسن إدراك للواقع المركب والمعقد المملوء بوفرة المشركين، كما أن طبيعة الرسالة الإسلامية ، تتطلب الرحمة واللين والحكمة وسعة الصدر ؛ وذلك حتى لا تجد صدوداً أو نفوراً، فيؤدي ذلك إلى انفضاض الناس عنها؛ ولذلك في إشارة دقيقة يبرز القرآن الكريم هذا المنهج

(١) سورة المسد، آية رقم (١) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان / باب قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" (١٩٣/١) .

النبوي الدقيق، الذي وجد قبولاً وطرباً واتصالاً، فيقول ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ
مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَكُفْتُمْ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُم مِّنْ حَوْلِكَ﴾^(١).

وبالإضافة إلى ما يقوم به ﷺ من الجهر بالدعوة للجميع في قريش،
فقد استثمر أيضاً وجود وفود القبائل العربية التي تأتي لزيارة البيت الحرام،
فعمل جاهداً على نشر الدعوة بينها، ولا شك أن هذا الأمر قد أثمر نتائجاً
مُنيراً؛ حيث أسلم الكثير من هذه الوفود، وصاروا بعد ذلك دعاة للإسلام .
وأما الإمكانيات المادية: فيكفي دلالة على ذلك ما قامت به زوجته
السيدة "خديجة" (رضي الله عنها)، والتي كانت سنداً وعاوناً لرسول الله ﷺ،
حيث لم يمنعها مانع من المساعدة المادية والمعنوية، ولا شك أن هذا
التصرف النبيل المُحکم، الذي يُخبر عن حركة متعاونة في سبيل نشر
الدعوة الإسلامية، وكذلك لا يفوتنا موقف أبي بكر الصديق ﷺ أيضاً من
ذلك .

ونستطيع أن نتلمس خلال هذه المرحلة، وبقراءة دقيقة في
الكثير من كتب السَّير أن تصرفات النبوة في تلك الفترة كانت على
مسارات أربعة:

الأول: مسار الدعوة، مستثمراً فيه الإمكانيات البشرية والمادية .

والثاني: مسار نشر الدعوة الإسلامية وبيان معالمها، وقد كان سمتها

العام هو الإقناع والموعظة الحسنة .

(١) سورة آل عمران: آية رقم (١٥٩) .

والثالث : مسار المشكلات والصعوبات التي تقابله أثناء الدعوة، وكيفية مواجهتها وتلافيها، والعمل على إيجاد مجموعة من الآليات والمهارات والوسائل التي تدفع هذه المشكلات، وتذلل تلك الصعاب، وقد قابل ﷺ كل ذلك بشجاعة فائقة.

والرابع : مسار الجَلَد والثبات من حيث الصبر والتحمل في سبيل الدعوة الإسلامية ؛ حيث تحمل رسول الله ﷺ الكثير في سبيلها، وذلك من خلال ما وقع من إيذاء متنوع ومتعدد له ولأصحابه - رضي الله عنهم - .

ومن فقه هذه المرحلة :

- أن من ضوابط تجديد الخطاب الديني المستنير، ومن ضوابط الاختيارات الفقهية التي تتعلق بأفعال المكلفين، بما يحقق لهم جلب المصالح ودفع المفسد في العاجل والآجل : (إدراك الواقع) ، وهذا ما فعله النبي ﷺ في مرحلتي الدعوة الأولى والثانية ، ولقد تناول بعضُ العلماء حقيقة الواقع المركب والمتغير، والذي تحول إلى جزئيات كثيرة لا يمكن أن تقع تحت الإحصاء أو العد بسبب ما أفرزته تكنولوجيا العصر التي لا تعرف توقفاً، فذكروا أن إدراك الواقع لا بد فيه من عوامل أربعة^(١)، هي :

١- عالم الأشياء : ومفتاح إدراكه الحِسُّ، والذي من خلاله يتم إدراك أن الأحكام تبنى على الواقع لا على نفس الأمر .

(١) سمات العصر، د. علي جمعة، ط١، ٢٠٠٦م، دار الفاروق، الجيزة، ص (٤-٧).

٢- عالم الأشخاص : ومفتاح إدراكه التفرقة بين الشخصية الطبيعية والشخصية الاعتبارية، التفرقة بين الشخصية التي لها ذات ونفس ناطقة ويخشى عليها القدح في الشهامة والقيم والأخلاق، وهي الشخصية الطبيعية كالإنسان، ومن جانب آخر الشخصية التي ليس لها نفس ناطقة ولا يخشى على أخلاقها من القدح، وهي الشخصية الاعتبارية كالمؤسسات، وبالتالي عن طريق عالم الأشخاص تتغير الأحكام بين الشخصيتين .

٣- عالم الأحداث : ومفتاح إدراكه هو تحليل المضمون من حيث البحث في دلالة الأحداث وتفسيرها وبيان آثارها .

٤- عالم الأفكار : ومفتاح إدراكه هو معيار التقويم الذي يقبل الصالح ويرفض الطالح، وهذا العالم مرتبط بالنموذج المعرفي المأخوذ من الكتاب والسنة وفهم الصحابة والتجربة التاريخية، والرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة ، ومراعاة السنن الإلهية والمبادئ القرآنية ومنظومة القيم ، ومقاصد الشرع الشريف .

- أن مؤسسات صناعة العقل وتشكيل الوعي، وإنتاج الفكر، ليست منحصرةً في جانب دون جانب، فهناك مؤسسات مشتركة تقوم بهذا الواجب الرصين، ومن بينها مؤسسات الإعلام بأنواعه المختلفة، إضافة إلى تكنولوجيا العصر الحديثة التي يجب استثمارها كأداة لتبليغ الدعوة إلى كل مكان وعبر كل زمان ، ومن هنا فالإسلام لا ينحصر في مكان أو زمان ، ولكن يعرف الخروج إلى الدنيا مهما اتسعت أطرافها ، لا سيما

في عصر لا يعرف توقفاً من حيث العلم والتكنولوجيا الحديثة التي جعلت العالم كله كقرية صغيرة ، وهذا لا يكون إلا مع مكونات الخطاب الديني المستنير الثلاثة وهي: حُسن فهم الدين الصحيح، وحُسن تطبيق الدين، وحُسن عرض الدين على الآخر، مع ضرورة ضبط آليات التعامل مع هذه الوسائل، والتي تعمل على مسارين، هما :

الأول : إعادة بناء العقل الجمعي للأمة في كل مكان بفهم واضح ودقيق ومبني للنصوص المشرفة قائم على مكونات رئيسة من السكينة، والحكمة، وفهم أدوات الشريعة، وفهم مقاصد الشريعة، وفهم الواقع المتغير، والمنطقية، والعقلانية، ومن ثم الوصول إلى الجمال، وهو الخطاب الديني المستنير، الذي يجد طرباً وقبولاً .

الثاني : معالجة بناء العقل الجمعي للعالم كله بالبيان الصحيح الذي يعبر عن حقيقة تعاليم الإسلام، والتي ترفض الحماس الجارف المبني على فراغ نفسي بعيد عن القراءة الصحيحة للشرع الشريف، وترفض الاندفاع الطائش الذي يقوم بسيل من الإجراءات التي لا رؤية لها ولا دليل، وترفض التفسير المغلوط أو الفوضوي للنص المشرف، وترفض تحرير المصطلحات بصيغتها بصيغة الإسلام، وهي على خلاف مرادها الحقيقي، وذلك لخدمة هوى أو انتماء، وترفض اللامنطقية، وترفض اللاعقلانية، وكل هذا يؤدي نهاية إلى القبح، وهو الخطاب الذي يجد صدوداً ونفوراً، وهو ليس من الدين في شيء .

- قيمة الاستفادة من الحضارات الأخرى، والمشاركة في بناء الإنسانية، وهذا نأخذه من هذا الملحظ الدقيق في هذه اللفظة التي اختارها رسول الله ﷺ حين صعد جبل الصفا وجمع بطون قريش، حيث جمعهم بقوله: "يَا صَبَاحَاهُ"، وهذه الكلمة كانت من الكلمات التي اعتادها العرب ليجمعوا الناس حولهم وليسمعوهم ما أرادوا قوله، ولكنهم مع هذه الكلمة كانوا يصنعون أفعالاً أخرى معها، كالتعري وحثو التراب وغير ذلك، وهنا فإن رسول الله ﷺ، في إشارة دقيقة وملح رائع، لم يتخل عما اعتاده العرب وعن طريقتهم في جمع الناس، بل صعد جبل الصفا، ونادى بطريقتهم، إلا أنه لم يقلدهم فيما يصنعون بعد هذا النداء من عاداتٍ تتنافى مع المروءة من تعرُّ وحثو للتراب وغير ذلك .

فكان رسول الله ﷺ هنا قد استفاد الاستفادة المنضبطة التي تخدم غايته، ولا تتنافى مع قيم دينه وتعاليمه ، وهذا ملمح دقيق وهو أن يكون هناك معيار دقيق في الأخذ من الغير بما يحقق مصلحة الدين والدنيا . ونستطيع من خلال ذلك أن نقرر مبدئاً رئيساً في تاريخ الإسلام بدأه رسول الله ﷺ من خلال هذه التجربة البسيطة من حيث الاستفادة من الآخر، فالإسلام نَسَقٌ مفتوح ؛ حيث إن المسلمين فتحوا قلوبهم وعقولهم للعالم، واستفادوا من كل حكمة في الشرق والغرب وأفادوا ، ولم يمنعوا أي علم أن ينتشر وينتقل للعالمين ، فهذا هو حالهم في الكتاب والسنة ، حيث أمروا بذلك ، وهذا هو أيضاً حالهم في مسارهم التاريخي .

وإذا كنا نعيش الآن عالمًا وكأننا في قرية واحدة ، فلا مانع عقلاً ولا شرعاً من أن نستفيد وأن نفيد من كل التقنيات الحديثة والتكنولوجيا العصرية، ومن ثم فلا بد من الانفتاح على الحضارات الأخرى، وأن نتطور مع التطور، بل وأن نبتكر ونخترع بناء على هذه الحضارات المختلفة، وبذلك نشارك في بناء الحضارة الإنسانية^(١) .

الإيذاء والفتنة والثبات على الأمر:

لقد أراد رسول الله ﷺ الوصول من خلال الدعوة الإسلامية إلى تنقية التفكير وإلى البحث السليم، واستهدف مقصوداً جليلاً عزيزاً، وهو اليقين والتفكير الحرّ، الذي يقود إلى كمال الإيمان بالله ﷻ، وترك ما كان عليه الآباء والأجداد من عبادة الأصنام ، فتحدث رسولُ الله ﷺ عن الشرك وعن الأصنام وأنها لا تتجاوز مجرد حجارة لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لنفسها شيئاً ؛ لينقلهم من هذا التفكير الضال الموروث إلى ما هو خير، إلى طريق الهداية والنور، إلى التفكير الرشيد الذي يقود إلى الصراط المستقيم .

وقد اتخذ النبي ﷺ كلَّ أداةٍ تُمكنه من ذلك، ولم يألُ أيَّ جهد فيه، بل كان يدعو إلى الله متصفاً في نفسه بالشجاعة والعزيمة والصبر وقوة التحمل، وفي قلبه باليقين والاطمئنان وحسن التوكل على الله، وفي دعوته بالرحمة واللين والحكمة والموعظة الحسنة .

(١) انظر : وقال الإمام، د. علي جمعة، ط ١١، ٢٠١٠ م، الوابل الصيب، القاهرة، ص (٢٢١) و (٢٣٦).

إلا أن قريشاً قد عادت رسولَ الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ووقعت ألوانٌ وصنوفٌ من الإيذاء له ولأصحابه، فلقوا من عداوة مشركي قريش وعنتهم الشيء الكثير، مع اعتبار عدم ردِّ المسلمين عليهم، بل كان المسلمون يدعون إلى سبيل ربِّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، يتفاعلون مع المجتمع بِسِمَاتِ الرحمة واللين، يتحمَّلون وسائلَ الإيذاءِ المختلفة في سبيل الله ﷻ، متصفين بالصبر والحلم، وتنزل عليهم الآيات القرآنية المشرفة التي تُخبرُ عن فسادِ عادات المشركين وتقاليدهم وأفكارهم الموروثة .

ومن النماذج التي وردت في هذا الإيذاءِ الواقع لرسول الله ﷺ، ما جاء عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: "بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَأْخُذُهُ، فَيَضَعُهُ فِي كِنْفِي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَأَنْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ ^(١) فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كِنْفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَيَّ بَعْضٍ، وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُورِيَةٌ ^(٢) فَطَرَحْتُهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ يَقْرِيشٍ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحْكُ،

(١) هو: عقبة بن أبي معيط كما ثبت في بعض الروايات.

(٢) أي: صغيرة .

وَحَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ عَلَيكَ يَا أَبِي جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَيْبَعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَيْبَعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، وَأُمِّيَةَ بْنَ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ" وَذَكَرَ السَّابِحَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ، فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَى صَرَعى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُجِبُوا إِلَى الْقَلْبِ قَلْبِ بَدْرٍ" (١).

ومما لاقاه ﷺ أيضاً من الإيذاء ما جاء عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ قَالَ: (سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ، أَخْبَرَنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ تَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ حَتَّى أَخَذَ يَمْنَكِيهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ (٢) (٣).

وأما عن الإيذاء الواقع لصحابة النبي ﷺ، فقد وقع لكثير منهم، كبلال بن رباح (٤) وعمّار وأبواه ياسر وسمية (٥)، وخباب بن

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمُنافقين، (١٤١٨/٣).

(٢) سورة غافر: الآية رقم (٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار/ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بيمكة، (٤٦/٥).

(٤) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت (٤٥٦/١) والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت (١٧٩/١)، والطبقات الكبرى، لابن سعد، (١٧٩/٣).

(٥) انظر: الإصابة، (٤٧٣/٤، ٤٧٤)، والاستيعاب، (١١٣٦/٣)، وطبقات ابن سعد، (١٧٨/٣) - (١٨٨)، (١٠١/٤).

الأرت^(١)، وصهيب الرومي^(٢)، وغيرهم، ولم يتوقف إيذاء المشركين للمسلمين على الإيذاء الجسدي فقط، بل إن المشركين استحلوا أموالهم فأكلوها بالباطل.

فقد قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: (كنت رجلاً قيناً^(٣))، فعملت للعاص بن وائل، فاجتمع لي عنده، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: «أما والله حتى تموت ثم تُبعث فلا»، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: «نعم»، قال: فإنه سيكون لي ثم مال وولد، فأقضيك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ أُؤَدِّهِمْ﴾^(٤) (٥).

هكذا وقع الإيذاء من مشركي قريش، إلا أن محاولاتهم المستمرة في الإيذاء الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد باتت محاولات يائسة؛ حيث أعجزهم هذا الإيذاء المستمر عن رده عن دعوته، بل وفي أوج هذا الإيذاء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألهم، ويدعوهم بالرحمة واللين، وكذلك ما قاموا به من صب لألوان وصور ووسائل الإيذاء المتنوع والمتعدد على أصحابه -رضي الله عنهم-، ما قابلته الصحابة إلا بالصبر وعظيم الثبات، وقوة التحمل.

(١) انظر: الإصابة، (٢٢١/٢)، والاستيعاب، (٤٣٨/٢-٤٣٩).

(٢) انظر: الإصابة، (٣٦٥/٣)، والاستيعاب، (٧٣١/٢، ٧٣٢)، وطبقات ابن سعد: (١٧١/٣).

(٣) أي: حداداً.

(٤) سورة مريم: الآيات رقم (٧٧).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب هل يوأجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب (٩٢/٣).

لقد حاولت قريشُ أن تنال من رسول الله ﷺ ومن أصحابه، وأن تردَّ دعوته بوسائل مختلفة، ولكن لما رأت ثبات المؤمنين على الإسلام، لجأت إلى سياسة جديدة وهي سياسة المفاوضات، فأخذ المشركون يسلكون ثلاثة مسالك مع الإيذاء والاضطهاد^(١):

أولها: محاولة استمالة النبي (عليه الصلاة والسلام) ليمنعوه من الجهر بدعوته، وذلك عن طريق عرض المال عليه أو السيادة أو الملك، ظناً منهم بتفكيرهم الضال أن هذه هي وسائل الشرف والرفعة، وأن الإنسان لا يستطيع أن يتركها بحال .

وثانيها: مجادلته لإعجازه أو إظهار ضعفه في زعمهم.

وثالثها: الشكوى منه لعمه أبي طالب.

إلا أنها جميعها لم تنجح مع قوة وثبات النبي ﷺ والصحابة على الإيمان .

ومن فقه هذه المرحلة :

- أن الثبات على الحق واليقين في نصر الله ووعده كان صفةً رئيسةً للنبي ﷺ؛ حيث هناك الرؤية الواضحة الصريحة اليقينية في العقيدة، والتشريع، والهدف، والمآل، فكانت هذه الرؤية أصلاً أصيلاً وركناً ركيناً للثبات، وأنها أساس لا يُمسّ، فرسول الله ﷺ كان يرى المستقبل بفضل قيمة الثبات والرؤية الواضحة التي ليست محللاً للمفاوضات، وهذا ما اتضح حين روى لنا سيدنا خباب ؓ قوله: (أَتَيْتُ

(١) انظر: خاتم النبيين، ص (٣٣٤) ، وما بعدها .

النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ؟ فَعَدَّ وَهُوَ مُحَمَّرٌ وَجْهَهُ، فَقَالَ: " لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لِيَمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيَشَقُّ بِأَثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيَتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّأكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ" (١).

- الإعراض عن جملة الإغراءات التي تأتي من أهل الباطل والشر، فهذا هو رسول الله ﷺ لم يسأل قريشاً ما لهم أو شيئاً من ثرواتهم، وما سألهم شرفاً فيهم ولا سيادة ولا ملكاً، ولا قبل ذلك منهم .

- فقه الإعداد التربوي والتهيئة الفكرية، بحيث يحسنُ معهما قوة التحمل، والصبرُ على المحن المختلفة، والتدريب العملي على بناء الملكات الفكرية والذهنية والتعاملية في حسن الحوار مع الآخر، وحسن العرض عليه، فمن المعلوم أن تلك الأحداث واللقاءات التي وقعت من زعماء قريش مع رسول الله ﷺ من ناحية، ومع عمه أبي طالب من ناحية أخرى؛ بغية أن يوقفوا الدعوة ومن ثمَّ يمنعوا الإيمان بالله، ويعوقوا سير الرسالة إلى أودية الحياة وساحات القلوب والعقول، كانت هذه الأحداث واللقاءات والمفاوضات دروساً تربوية، تلقاها رسول الله ﷺ فيما تلقى من تربية ربانية وتعليم إلهي؛ ليعده لتحمل أُنْقَالِ الْقِيَامِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، (٤٥/٥).

بواجبات تبليغ الرسالة ، ويعدّه إعداداً كاملاً ، يستجمع به شجاعة الإيمان ، وقوة الصبر، وبراعة العرض، وسداد الرأي ، وجودة التفكير، وروعة البيان ، لا سيما وأن رسالة رسول الله ﷺ هي رسالة عقل وتفكير واقتناع واطمئنان^(١).
- أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً، قال تعالى : ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(٢)، فالابتلاء لا يُذم في ذاته، بل في طريقة استقباله ، والمطلوب هنا أن يُحسِنَ الإنسانُ استقبالَ الابتلاء ، فإن كان في خير أو نعمة ، فيستقبله بالشكرِ عليها ، وباستخدامها في كل ما يُرضيه ﷻ ، وأن يستحيي أن يستخدمها فيما لا يُرضيه - سبحانه وتعالى- ، وإن كان الابتلاءُ في غير ذلك ، في مصيبة أو نعمة ، فليحسن استقبالها بالرضا عن الله ﷻ ، وبعدم السَّخَطِ ، وليطمئن إلى قدر الله فيه.

* * *

(١) انظر : محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة، محمد الصادق عرجون ، ط٢، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، دار القلم ، دمشق ، (١٩٠/٢) بتصرف.
(٢) سورة الأنبياء، آية رقم (٣٥) .

الهجرة إلى الحبشة وأسس التعايش مع الآخر:

إن الهجرة إلى الحبشة هي أحد النماذج الإسلامية، التي تُبَصِّر الخلق بجمال وحسن الشريعة الإسلامية^(١)، التي تُيسِّر على المسلمين العيش في أي مكان بمنهج الله ﷺ.

إن الهجرة إلى الحبشة هي نموذج رصين له أهمية بالغة في الرد على أصحاب الفكر الأحادي الذين يصطدمون بالخلق، ولا يفهمون عن دراية حقيقة تعاليم الإسلام التي تؤسس لاحترام الآخر والإقرار بالتعددية، مع الالتزام من المسلمين بالواجبات نحو وطنٍ آخر نزلوا به تحكمه قوانين خاصة.

-
- (١) هي نماذج أربعة تؤكد على أهمية التعايش والتعارف بين بني الإنسان وإن اختلفت الأوطان والمعتقدات واللغات، وقد أبرزت السيرة النبوية المشرفة ذلك من خلال:
- نموذج مكة: حيث كان المسلمون قلة في بيئة معادية، وكان المقام فيها هو الصبر والتحمل، وحسن المعاملة، والدعوة إلى الإسلام.
 - نموذج الحبشة: حيث كان المسلمون قلة في بيئة عادلة منصفة، والمقام فيها مقام الاندماج والوفاء والمشاركة.
 - نموذج المدينة في عهدها الأول: حيث كان المسلمون أكثرية يعيشون في مجتمع تشاركيهم فيه أقليات مختلفة ومتنوعة من حيث الدين والعرق وغير ذلك، ينتظم الجميع تحت حكومة مسلمة، والمقام فيها مقام المساواة والإخاء والتعاون والمواطنة للجميع.
 - نموذج المدينة في عهدها الأخير: حيث اختلفت الأقليات من المجتمع المسلم، واقتصر الأمر على أفراد غير مسلمين يعيشون في الدولة المسلمة التي تخضع للنظام الإسلامي، وقد استتب لهذه الدولة سلطانها، وتغلّبت على القوى المناوئة لنشأتها ونهضتها، والمقام فيها مقام العدل والانفتاح والحوار. انظر: وقال الإمام، للدكتور/ علي جمعة: ص (٢٥٩) وما بعدها للتفصيل، ومقدمة كتاب حماية الكنائس في الإسلام، د. محمد مختار جمعة، د. شوقي علام، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص (٩).

إن نموذج الهجرة إلى الحبشة يُمكن المسلم من إقامة حياة اجتماعية فاضلة ، تتكيف مع الواقع المتغير والسياسات المختلفة ؛ ومن ثمّ (فلا يكون المسلم نشازاً أو خارجاً أو نافرأ ، بل يكون إلغاً يألّف الناس ويألّفونه ، ويندمج مع الكون من حوله وينسجم ، فيحرص على التعاون على البر والتقوى والاتحاد من أجل المصالح المشتركة)^(١).

فبعد أن اشتد الإيذاء والاضطهاد والتعذيب للصحابه - رضي الله عنهم- في مكة ، أذن النبي ﷺ لهم بالهجرة والخروج من مكة ، ولننظر إلى هذا التصرف الدقيق من رسول الله ﷺ لاختيار المكان الذي يأمن فيه على أصحابه - حيث المقدمات التي يعقبها النتائجُ المُحكّمةُ، وحيث التصرفات المبنية والمستندة على العلم وفقه إدراك الواقع المُحيط - فرسول الله ﷺ بناءً على إدراك الموقف الذي يتقلب فيه أصحابه - رضي الله عنهم - من شدة الإيذاء والتعنّت من قبل المشركين، قد قام بدراسة دقيقة للبيئة المحيطة به، فوجد أن هناك قوتين (الفرس والروم)، فاستبعد (الفرس) ؛ لكونها ليس لها كتاب، بل هم يعبدون النار، ثم تحوّل إلى نظرٍ آخر ودراسةٍ أدقّ ؛ حيث نظر إلى القوة الأخرى وهي (الروم) وهم أصحابُ كتاب، إلا أنه ليس كلُّ صاحبِ كتاب يلتزم بمنهجه، فكان النظر إلى من يلتزم ويتبع المنهجَ تطبيقاً وترجمة واقعية، فوجد أن أنسبَ مكانٍ للهجرة هي الحبشة، وبناءً على هذا التقدير

(١) التعايش مع الآخر في ضوء السيرة النبوية، الأسس والمقاصد، د.علي جمعة، ط١/٢٠١٨،

شركة بروج للأدوات المكتبية والمدرسية ، القاهرة ، ص (٧-٨) .

الدقيق للموقف، أذن الرسول ﷺ لأصحابه بهجرة مؤقتة إلى الحبشة، وصدر القرار النبوي بقوله لأصحابه: " إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُّوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ " (١).

وبذلك كانت الهجرة إلى الحبشة هي أول هجرة هاجر إليها المسلمون، وكانت في السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ، والغاية الرئيسة منها: الأمان والأمن، وقد اختُلف في عدد من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً، أو ولدوا بها، فقيلاً: ثلاثة وثمانون^(٢)، وقيل: ثمانون، كما جاء عن ابن مسعود، قال: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ نَحْوُ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا) (٣).

خطة الهجرة إلى الحبشة:

ونستطيع أن نلمح من جملة ما كُتب^(٤) عن هذه الهجرة إلى الحبشة، أنها قد اشتملت في خُطتها على ركنين رئيسيين، وضعهما الرسول ﷺ بحكمة القائد البصير المدرك للواقع والأحداث:

الركن الأول: عامل المفاجأة؛ وهو أن تكون هجرة الصحابة إلى

الحبشة بصورة خفية، وذلك حتى لا ينتبه المشركون لهم ولخطة الهجرة،

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة، (١٦/٩).

(٢) البداية والنهاية، (٨٥/٣).

(٣) مسند أحمد، (٤٠٨/٧).

(٤) انظر: إمتاع الأسماع، (٣٧/١) وما بعدها، والمواهب اللدنية، (١٤٥/١) وما بعدها، ونهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، رفاة رافع ابن بدوي بن علي الطهطاوي، ط١، ١٤١٩هـ، دار الذخائر، القاهرة، ص (١١١-١١٣)، والبداية والنهاية، (١٨٤/٣)، وما بعدها، والسيرة النبوية، لابن هشام، (٣٢١/١) وما بعدها.

فيسارعون إلى إحباطها ، ومن ثم يشتد الإيذاء بصورة أبلغ لهم .

الركن الثاني: النطاق الضيق؛ وهو أن تكون الهجرة إلى الحبشة في شكل مجموعات قليلة ، وليست على نطاق واسع ، وذلك حتى لا ينتبه إليها نظرُ المشركين .

وقد قام الصحابة بتنفيذ هذه الخطة على أكمل ما يكون، وأيدها الله ﷻ بالنجاح، فخرج الصحابة - رضي الله عنهم - في شكلٍ قريبٍ من أسرٍ متفرقة وبعدد قليل، واتجهوا نحو البحر، واستقلوا سفينتين تجاريتين، اتجهت بهن - رضي الله عنهم - إلى الحبشة، وبمجرد وصول الصحابة إلى الحبشة لقوا معاملة طيبة، وتحققت لهم رؤية رسول الله ﷺ من حيث الحماية والأمن.

كلمة جعفر بن أبي طالب للنجاشي:

ولم تتوقف ثمار الهجرة إلى الحبشة على مجرد دفع الأذى ، ومنع ما أوقعهم في العسرة من فتنة المشركين وإيذائهم، بما يحقق لهم الأمن والأمان، بل كانت هناك ثمرة أخرى، وهي التعريف بقيم ومبادئ وأخلاق الإسلام، ويتجلى ذلك في موقف جعفر بن أبي طالب ﷺ ، والذي تحدث باسم المهاجرين أمام النجاشي ؛ مبيناً تعاليم الإسلام ، وحقائق ما يدعوا إليه ، فكانت هذه الكلمة تعكس الفطنة والبلاغة والفهم الواعي ، وهذه الكلمة في ذاتها هي نموذج عملي تُبين الهدى النبوي المشرف في تعليمه أصحابه - رضي الله عنهم - كيفية مخاطبة الآخر وحسن إدارة الحوار معه .

فالمسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة اتسموا بالقوة والثبات ، ولم يتزعزعوا أمام النجاشي ، وبطريقة محكمة اختاروا فيما بينهم قائداً يتحدث باسمهم وعنهم ؛ حتى لا يضطربوا أو يتشتتوا أو يختلفوا ، وباختيار جعفر بن أبي طالب ﷺ ممثلاً عنهم ، خاطب النجاشي بالحكمة والمنطق والعقل ، وبقِيَم المودة والتقرب ، كما أنه خاطب فيه إيمانه بسيدنا عيسى - عليه السلام - ، وخاطبه بالقيم الأخلاقية والجمالية التي آمن بها وتعلمها من رسول الله ﷺ ، والتزم في خطابه بالقول اللين الرفيق ، وفي نفس الوقت لم يكذب أو يدلس أو يغش^(١).

المواطنة في أسمى معانيها :

معلوم أن المواطنة هي مفاعلة بين طرفين ، مواطن ووطن يعيش فيه ، وأنه نتيجة هذه المفاعلة تترتب حقوق وواجبات على كل منهما للآخر ، والمهاجرون من المسلمين إلى الحبشة (مجتمع غير مسلم) قد ضربوا مثلاً رائعاً في التزامهم بواجبات المواطنة في أرض الحبشة والتعايش بقوانينهم ، مع الالتزام منهم بالحماية والحرية الدينية .

ولما عاد العدو مرة أخرى لمقاتلة النجاشي ، أصرّ المسلمون على المشاركة في القتال ، وبالفعل قاتلوا معه تحت رايته للدفاع عن الوطن^(٢). فهذه مشاركة ما أوقعها دلالة على قيم المواطنة الكاملة التي ضربها المسلمون وهم في الحبشة ، وعن مشاركة المسلمين مع النجاشي

(١) انظر : التعايش مع الآخر، د. علي جمعة ، ص (٣٨-٣٩) .

(٢) وقال الإمام، د. علي جمعة ، ص (٢٦٥) .

في حربه مع عدوه، قال السرخسي: وَالْأَصْلُ فِيهِ حَدِيثُ جَعْفَرٍ رضي الله عنه، فَإِنَّهُ قَاتَلَ بِالْحَبْشَةِ مَعَ الْعَدُوِّ الَّذِي كَانَ قَصَدَ النَّجَاشِيَّ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ آمِنًا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ فَكَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِهِ، فَعَرَفْنَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْخَوْفِ^(١).

ومن فقه هذه الهجرة إلى الحبشة:

- تكوين شخصية المسلم البصير بالرؤية الإسلامية الصحيحة المنضبطة، البعيدة عن التطرف أو الغلو أو التوظيف لانتماء أو لهوى، شخصية قائمة على الإنسانية والعقلانية والحوار، قادرة على التعايش في أي مكان أو زمان، ومع مختلف الأحوال والأحداث وفق منهج التعايش والانفتاح والتعاون والوفاء والمشاركة والعدل والوعي بالشأن والزمان، فلقد أرسى النبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذه الهجرة إلى الحبشة قواعد جامعة، هي أسس رصينة للحضارة الإسلامية التي تؤسس لقيم التواصل والاندماج - لا الذوبان - والتعارف والتفاعل مع كل من اختلف مع المسلمين، دون تفريط في هويتهم ولا في الثوابت الإسلامية.

- تصرف النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه الأمة في كيفية اتخاذ القرار في ضوء أحسن معرفة ممكنة ومعلومات متاحة، وبرؤية مستقبلية لهذا القرار الذي يتم اتخاذه، وهذا ما يقوم عليه التخطيط العلمي السليم.

(١) المبسوط، أحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، ط٤١٤١هـ/١٩٩٣م، دار المعرفة، بيروت، (٩٧/١٠، ٩٨).

- القدرة على إدارة الحياة والارتقاء بها مهما كانت الأحداث العظام، وفي ذلك إعداد رصين للمواقف المستقبلية وكيفية التعامل معها، ولا شك أن العالم كله قد شهد المسلمين وهم قادة للعلم والفكر والابتكار، ومن يقرأ التاريخ قراءة منصفة يدرك ذلك على وجه التحقيق.

المقاطعة وسياسة الحصار الاقتصادي :

على الرغم من كل ما قامت به قريش من محاولات لصد هذه الدعوة، وما قاموا به من إيذاء وتعذيب واضطهاد، وما قدموه من حيل ووسائل مختلفة ؛ بغية تحقيق ما يريدون من وقف لهذه الدعوة، إلا أنهم قد اعتزموا أمراً آخر لا يبالون معه لا أبا طالب ولا بني هاشم، حيث أجمعوا أمرهم على منابذة ومقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، والتضييق عليهم من خلال حصار اقتصادي ومعنوي واجتماعي، حصار لا بيع فيه ولا شراء ولا مصاهرة ؛ بغية أمر واحد فقط، وهو النيل من رسول الله ﷺ بتسليمه لهم للقتل.

وقد صاغ المشركون بنود هذا الحصار بتفاصيله في صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، حيث تعاقدوا فيما بينهم على مقاطعتهم في النكاح والمصاهرة، والبيع والشراء، وعدم قبول الصلح منهم، وألا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ لهم، وانفقوا فيما بينهم على الوفاء بها ؛ ولأجل ذلك لجأ أبو طالب ومن معه من أهل النبي ﷺ وعمومته إلى شعب أبي طالب، فانحاز إليهم من بني هاشم وبني عبد المطلب سواء من آمن أو غيره ؛ ليكونوا جميعاً في حمايته من مشركي

قريش؛ وذلك لتسهيل عملية الدفاع عنه ﷺ من قرار طواغيت قريش، ومكثوا قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء، لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية، بل وجهدوا حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، ولقد صور لنا عتبة بنُ غزوانَ هذا قائلاً: (وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي سَابِحَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ)^(١).

وقال ابنُ هشامٍ: (وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي طَالِبٍ: يَا عَمُّ، إِنَّ رَبِّي اللَّهُ قَدْ سَلَطَ الْأَرْضَةَ عَلَى صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ، فَلَمْ تَدْعُ فِيهَا اسْمًا هُوَ لَلَّهِ إِلَّا أُثْبِتَتْهُ فِيهَا، وَنَفَتْ مِنْهُ الظُّلْمَ وَالْقَطِيعَةَ وَالْبُهْتَانَ، فَقَالَ: أَرَبُّكَ أَحْبَبَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا يَدْخُلُ عَلَيْكَ أَحَدٌ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ ابْنَ أَخِي أَخْبَرَنِي بِكَذَا وَكَذَا، فَهَلُمَّ صَحِيفَتِكُمْ، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَخِي، فَانْتَهُوا عَن قَطِيعَتِنَا، وَأَنْزِلُوا عَمَّا فِيهَا، وَإِنْ يَكُنْ كَاذِبًا دَفَعْتُ إِلَيْكُمْ ابْنَ أَخِي، فَقَالَ الْقَوْمُ: رَضِينَا، فَتَعَاقَدُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ نَظَرُوا، فَإِذَا هِيَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ شَرًّا)^(٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، (٢٢٧٨/٤)، والزهد والرقائق، لابن المبارك، باب هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ (عز وجل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ص (١٨٨).
(٢) انظر: السيرة لابن هشام، (٣٧٧/١)، والدرر في اختصار المغازي والسيرة لابن عبد البر، ص (٥٤)، والروض الأنف (٢١٨/٣)، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسيرة، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، اليعمري الربيعي، أبو الفتح، فتح الدين، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، دار القلم، بيروت، (١٤٨/١)، والخصائص الكبرى، للسيوطي، (٢٤٩/١).

من فقه هذه المرحلة :

- حمية الكرامة والانتصار للحق: حيث صبر بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم، على هذه المحنة الشديدة، وهي حمية لرد الظلم عن صلة الرحم والدم، وإباء الذل الذي كان سيتلبس بهم إذا هم فعلوا ما يريد المشركون، ولا شك أن هذه الحمية إنما تدعو إلى حماية القريب والذب عنه من بطش العدو وظلمه، فهؤلاء لم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله ﷺ.

- مراحل تربوية متتالية، هي بمثابة الابتلاء المركب؛ لأجل التأكيد على قيم الثبات والتضحية، وقوة اليقين، فهي مراحل صنعت جيلاً من الصحابة، علّمنا كيف نواجه الصعاب؟ وكيف ندير الأزمات؟ وكيف ننجح في الابتلاءات؟.

* * *

الفصل الثاني النبوة بعد عام الحزن

موقف النبي ﷺ في عام الحزن :

عُرِفَ العام العاشر من البعثة بـ (عام الحزن) ؛ وذلك لأن هذا العام قد شهد وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ ، والسيدة خديجة (رضي الله عنها) .

فأما أبو طالب، فقد كان في حياته شديد الدِّفاع عن رسول الله ﷺ، وقد كان لَهُ عَضُدًا وَحِرْزًا فِي أَمْرِهِ، وَمَنْعَةً وَنَاصِرًا عَلَى قَوْمِهِ^(١) من أن ينالوا منه ﷺ، ما دام حيًّا، فهو يذبُّ عنه ويرد كلَّ من يُؤذيه، فلما ماتت تجرأت قريش وشدّدت في الإيذاء ؛ ولذلك كانت وفاته مبعثَ حزنٍ عميق للنبي ﷺ.

ثم ماتت السيدة خديجة - رضي الله عنها- في نفس العام بعده بثلاثة أيام، وَكَانَتْ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ تَخْفَفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَمُومَهُ وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ عِدَاوَةِ قَرِيْشٍ، فَقَدْ آمَنَتْ بِهِ، وَأَزْرَتْهُ فِي أَصْعَبِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ، وَأَعَانَتْهُ عَلَى إِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ، وَوَاسَتْهُ بِنَفْسِهَا وَمَالِهَا وَذَاتِهَا، وَشَارَكَتَهُ كُلَّ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ أَعْبَاءٍ، وَعَنْ وَفَاةِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنين، قال هشام بن عروة، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: (تُوْفِّيتُ خَدِيجَةَ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ)^(٢).

(١) السيرة، لابن هشام، (٤١٦/١) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ عائشة، وَقُدُومِهَا الْمَدِينَةَ، وَبَنَائِهِ بِهَا، (٥٦/٥) .

الخروج إلى الطائف و عرض الإسلام على القبائل:

بعدما توفي أبو طالب وتوفيت السيدة خديجة - رضي الله عنها - اشتد البلاء من قريش على رسول الله ﷺ، فبدأ يفكر بالخروج من مكة إلى مكان آخر، لعله يجد قبولا واستجابة للرسالة؛ حيث قام النبي ﷺ بأمرين، هما:

١- الخروج إلى الطائف: حيث خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا، يَلْتَمِسُ النَّصْرَةَ مِنْ تَقِيفٍ، وَالْمَنْعَةَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَرَجَاءً أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ ﷻ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَحْدَهُ^(١)، ولكنه ﷺ لما انتهى إلى الطائف لم يجد إلا الإيذاء والإعراض^(٢)، فلم يكونوا أقل قسوة من أهل مكة، فلما لم يجد ﷺ النصير، وعزَّ عليه أمره، وابتعد عن الطائف، وجلس قريبا إلى حائط بستان، يستظل بظل شجرة، حتى اطمأن، ناجى رَبَّهُ ﷻ بدعاء كله مقومات الإيمان واليقين، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ﷺ، قَالَ: (لَمَّا تُوفِّيَ أَبُو طَالِبٍ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ، فَدَعَاَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فَأَنْصَرَفَ فَأَتَى ظِلَّ شَجَرَةٍ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ

(١) السيرة، لابن هشام، (٤١٩/١).

(٢) انظر في تفصيل ذلك: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، أبو ربيع، ط١، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٤٦/١)، والإشارة إلى سيرة المصطفى، لمغلطاي، (١٣٣/١) وما بعدها، ودلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، دار النفائس، بيروت، (٢٦٦/١)، والدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر، ص (٦٢).

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكَلَّمْتُ، إِلَى عَدُوِّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَكَتَهُ
أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضَبَانَ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ
بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى،
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ" (١) .

ولا بد وأن ندرك هنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل هذه المحنة
راضياً، وصبر على المشقة محتسباً، فلم يكن متضجراً ولا ساخطاً؛ ولأجل
ذلك كانت تلك المناجاة بالدعاء لربه ﷻ بعد أن اطمأن في بستان ابني
ربيعة.

٢- عرض نفسه على القبائل؛ حيث كان رسولُ الله ﷺ يُعْرِضُ
نَفْسَهُ عَلَى الْعَرَبِ فِي مَوَاسِمِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ نَبِيُّ
مُرْسَلٌ، وَيَسْأَلُهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُ وَيَمْنَعُوهُ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ مَا بَعَثَهُ بِهِ (٢).

وهكذا ظل رسولُ الله ﷺ يُعْرِضُ نَفْسَهُ فِي الْمَوَاسِمِ عَلَى قَبَائِلِ
الْعَرَبِ أَنْ يُؤْوُوهُ أَوْ يَنْصُرُوهُ لِيُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمْ يَقْبَلْهُ أَحَدٌ، إِلَى أَنْ
قَبِضَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْأَنْصَارَ فَبَايَعُوهُ، وَأَذِنَ لِأَصْحَابِهِ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ
فَانْتَهَرَ هُوَ ﷺ لِيَأْذَنَ اللَّهُ ﷻ لَهُ فِي الْهَجْرَةِ (٣).

(١) المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، ط٢، مكتبة ابن تيمية -
القاهرة، (٧٣/١٣)، والسيرة، لابن هشام، (٤٢٠/١).

(٢) السيرة، لابن هشام، (٤٢٢/١)، وما بعدها، السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص
(٣٦٥) وما بعدها.

(٣) دلائل النبوة، للأصفهاني، (٢٦٦/١).

ومن فقه عام الحزن وتبعاته:

- أن النبي ﷺ قد استخدم الأسباب التي يسرّها الله له ابتداءً ، فلما انقطعت عنه اجتهد وسعه، وبذل طاقته، وأعمل فكره في البحث عن أسباب ممكنة أخرى ومتاحة لديه؛ رجاء أن تكون سبيلاً تعينه على الدعوة .

- فقه البدائل والتفكير الشبكي ، فلا شك أن تصرف النبي ﷺ بعد عام الحزن لهو درس رصين ينبغي الإفادة منه، وهو ما يسمى بالتفكير المنطقي، أي: تحديد المشكلات، ثم تحليلها إلى عواملها وأسبابها القريبة منها والبعيدة، ثم طرح الحلول، ثم الاختيار بينها، ثم تطبيقها، وهذا التفكير الشبكي هو أداة رصينة من أدوات التجديد، وينتج عنه قرار صائب مترتبٌ على المقدمات السابقة، وهو ما نستطيع أن نطلق عليه أيضاً (هندسة القرار).

- الشكوى إلى الله تعبدٌ؛ فإذا أعييتك الأسباب، وكنت في موقف المضطر، فقف ضارحاً بين يدي الله ﷻ، وهذا درس آخر من أروع الدروس بعد عام الحزن في سيرة النبي ﷺ؛ حيث إن رسول الله ﷺ بعد عام الحزن ، قد استقبل يدَ الله الممدودة له بالأسباب، وذهب إلى الطائف ، وبعدها عرض نفسه على القبائل، فلما انقطعت به الأسباب وأصبح مضطراً، لجأ إلى الله ﷻ بالمناجاة التي قال فيها: " اللهم إني أشكو ضعف قوتي ... إلخ "

- الرؤية المستقبلية ، فبعد المناجاة النبوية المملوءة بقمة اليقين والإيمان، أنت الإجابة من الله ﷺ من خلال ملك الجبال ، والذي قال له : **إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟**، غير أن رسول الله ﷺ كانت له هذه الرؤية العميقة والبصيرة النبوية التي تجلّت في كلامه ﷺ، وهو ينظر للمستقبل ويستشرفه ويحاول استدعاء ما يرجوه من أن يكون من أصلاب من يقومون الآن بإيذائه وصدّ دعوته، أن يكون منهم من يحمل لواء الدعوة فيما بعد ؛ حيث قال : **" بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا "** وذلك درس في تعليم الأمة كيفية بناء الأجيال الذين هم سواعد بناء الأمم.

- الرحمة واللين ، فبالرغم مما وقع له ﷺ من إيذاء ، إلا أنه لم يدعُ عليهم، وإنما دعا لهم ﷺ .

- المواساة والاعتذار ؛ وذلك حتى لا يجتمع الألم المركب (التألم والضجر) في نفس رسول الله ﷺ ، وتظهر هذه المواساة من خلال "عداس" ، ذلك الرجل النصراني الذي جاء إلى رسول الله ﷺ - بعدما لاقى ما لاقاه من السفهاء - وهو عند البستان ، وكأنه من جند الله ﷺ الذين أرسلهم لرسوله يعتذر له عن فعل السفهاء وغلظتهم ؛ مواساةً له ﷺ، واعترافاً بصدق نبوته ، وإشارة إلى أنه أرسل بالدين الصحيح .

- كما تظهر المواساة أثناء عودة النبي ﷺ مرة أخرى إلى مكة في الصباح ، وقبل أن يزاول النبي مكانه الذي بات فيه ، حيث تلقى خبر

السَّمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾^(١).

فكان هذا عزاءً كريماً للرسول الكريم ﷺ ، ومواساة رقيقة مسّت مشاعر النبيّ، وذهبت بكثير مما خالطها من الألم والحزن، فشاع في كيانه الرّضا والاطمئنان، حيث إنه ليس وحده، وإن صوت السماء متصل به، وإن جنداً من جنود الله - لا يراهم - يحفّون به، ويستمعون إليه، ويؤمنون به، وبالكتاب الذي أنزل عليه. ومَنْ هذا الذي يستمع إلى كلام الله، ويستجيب لرسوله؟ إنهم جماعة من «الجنّ» .. الجنّ الذي يضرب به المثل في الخروج على كل نظام، والتأبّي على كل نداء! فكيف لا يكون لهذا القرآن مثل هذا الأثر في نفوس الناس ، وفي أضلّهم ضلالاً، وأعتاهم عتواً؟ ولا شك أن في هذا قدراً كبيراً من التنفيس عن رسول الله ﷺ ، والتطيب لخاطره^(٢).

(١) سورة الأحقاف: الآيات (٢٩-٣٢) .

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة،

(٤٢٠،٤١٩/٨) .

- دور القادة الدعاة في مواجهة آلية تدمير الإنسان معنويًا ، حيث إن هذا المشهد من سيرته ﷺ المشرفة، يبرز لنا دوراً رئيساً قام به سيدنا زيد بن حارثة ؓ ، من حيث الذبّ والوقاية بنفسه عن رسول الله ﷺ من حجارة السفهاء، حتى إنه (أي: زيد بن حارثة) قد شجَّ في رأسه شِجَاً^(١)، فكان نموذجاً للتضحية والإسهام بشيء من تحمّل الجهد والمشاق ؛ دفاعاً عن النبي ﷺ وعن الدين - بمفهومه الصحيح المعتدل المستنير - ومن هنا لا بد وأن نأخذ ملاحظاً في غاية الدقة بأن ننتبه إلى أصحاب التيارات المتطرفة بأفكارهم المغلوطة الفوضوية، الذين يحاولون تشويه، الرموز الدينية أصحاب الفكر الصحيح المعتدل. ولا شك أن هذا الأمر هو أداة ممنهجة لأصحاب الفكر المتطرف، يهدفون من خلاله إلى صناعة الهزائم النفسية المتتالية، وهدم القدوة من الرموز العلمية في مجالاتها المختلفة، فأصحاب الفكر المتطرف تلتصق بهم صفتان، وهما: الاستعلاء والإقصاء ، وهم، يعملون بناء على ذلك على مسارين، الأول منهما: تشويه الرموز الفكرية والعلمية وأصحاب الفكر المستنير ، والعمل على هدمهم، والثاني: تعبئة وإغواء مَنْ يستطيعون استقطابه بأفكارهم الفوضوية، والتي يوظفون الدين من خلالها لخدمة انتماءاتهم ، والتي هي بعيدة كل البعد عن المعنى الأصيل الرصين لحقيقة الدين . فلا بد إذن من رجال مخلصين يقفون لأمثال هؤلاء، ويصدون بغيهم .

(١) انظر: المختصر الكبير في سيرة الرسول، ص (٤٠) ، وسبل الهدى والرشاد، (٤٣٨/٢) .

- فقه الثقة ، وذلك من خلال هذه الرحلة إلى الطائف بكل ما فيها من تبعات القسوة والإيذاء، وهو ما يظهر جلياً في جوابه ﷺ على سؤال زيد بن حارثة أثناء رجوعهما مرة أخرى إلى مكة، حيث وجه زيد بن حارثة - والذي صاحب رسول الله ﷺ في هذه الرحلة - سؤالاً للنبي ﷺ قائلاً له: كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَخْرَجُوكَ؟ فَقَالَ ﷺ بمنطق الواثق في الله، الذي لم تزعزعه تلك الأحداث، ولم تؤثر في قوة عزيمته: " يَا زَيْدُ، إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَى فَرْجًا وَمَخْرَجًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ، وَمُظْهِرُ نَبِيِّهِ " (١)، فهو يقين قلبي ثابت مستمد من القوة بالله ﷻ.

الإسراء والمعراج (حكم وأسرار) :

قدم ابن إسحاق للإسراء بكلمة رائعة؛ حيث قال: (وَكَانَ فِي مَسْرَاهُ، وَمَا ذُكِرَ عَنْهُ بَلَاءٌ وَتَمَحِيصٌ، وَأَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﷻ فِي قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْأَابِ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ وَتَبَاتٌ لِمَنْ آمَنَ وَصَدَّقَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى يَقِينٍ، فَأَسْرَى بِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كَيْفَ شَاءَ، لِيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ مَا أَرَادَ، حَتَّى عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ أَمْرِهِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، وَقُدْرَتِهِ الَّتِي يَصْنَعُ بِهَا مَا يُرِيدُ) (٢).

لقد جاء الإسراء والمعراج؛ للإشارة إلى أنه إن فاتته ﷺ حماية العم - بوفاته - فإنه محاط بحماية الرب ﷻ، ولئن فاتته مؤانسة الزوج - بوفاتها -

(١) انظر: إمتاع الأسماع، (٤٦/١)، والسيرة الحلبية، (٥٠٧/١)، والمختصر الكبير في سيرة الرسول، ابن جماعة، ص (٤١).

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام، (٣٩٦/١-٣٩٧).

فإنه مشمول بمؤانسة الملاء الأعلى، ولئن أحاط به تكذيب أهل مكة وأذاهم، فإنه مصدق من أهل السماء، مكرم فيهم غاية التكريم^(١).

فبعد أن استنفذ النبي ﷺ الأسباب، وناجى ربه متضرعاً بدعاءٍ يشمل كل مقومات الإيمان واليقين، أرادت مشيئته - سبحانه وتعالى - مستجيبة لضراعة النبي ﷺ أن تعوضه عن جفاء أهل الأرض بحفاوة أهل السماء، والاطلاع على بعض الآيات الكونية، فقد تركه الله ﷻ لينفعل للأسباب والبدائل المطروحة ليجتهد فيها؛ وذلك حتى يكون أسوة للأمة كلها في ألا تدع الأسباب التي يسرها الله ابتداءً والاجتهاد فيها.

والذي يتتبع الآيات القرآنية المشرفة التي تناولت الإسراء والمعراج، سيجد أن سورة الإسراء بدأها الله ﷻ واستهلها بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢)، في إشارة دقيقة إلى أن نُزَّهَ فعلَ الله ﷻ عن فعل البشر؛ فقد بدأ الله الكلام عن الإسراء بقوله: ﴿سُبْحَانَ﴾ التي تفيد التنزيه، وتفيد أيضًا أنك ستستقبل حدثًا عجيبيًا فريدًا، تقف أمامه العقول وتدهش له النفوس؛ لأنه لا يقدر عليه إلا الله. وما دام الفاعل في الإسراء هو الله، فنزَّه الفعل الإلهي عن فعل البشر؛ لأن كل فعل يختلف باختلاف فاعله، وبناء على قدرته وإمكاناته، فكيف إذا كان الفاعل هنا هو الله ﷻ؟!

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، دار الشروق، (١/٥٤٠).

(٢) سورة الإسراء: الآية رقم (١).

وسوف نعرضُ قصَّةَ الإسراءِ والمعراجِ^(١) على هيئة سؤال وجواب، نجمع من خلالهما جُلَّ أحداثها، وبطريقة موجزة ومركزة، مع اعتبار لغة العصر والواقع؛ لتشكلَ العقليَّةُ المسلمة بصورة ذهنية رصينة، تحمل معها حقيقةَ الإسراءِ والمعراجِ، مُستندةً إلى ما ورد من صحيح الأخبار، مع بيان جملة من الإعجازات الحسيَّة التي أجراها الله لرسوله ﷺ؛ تكريمًا واحتفاءً به .

الزمن في الإسراء والمعراج :

ما دام الله ﷻ هو الفاعل في الإسراءِ، إذن فالفعل هنا إنما هو بقدرته - سبحانه وتعالى - وإمكاناته، ومعلوم أنه إذا انتقل الإنسان من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، حسب قدرته وإمكاناته، فلا بد له من زمن لهذا الانتقال، وهذا الزمن يتناسب مع تلك القدرة والإمكانية، فكلما زادت القدرة والإمكانية قلَّ الزمن، وبالعكس.

ولما كان الإسراءُ بقدره الله ﷻ، الذي لا يعجزه شيء، وبإمكاناته التي لا يستطيع العقل أن يستقل بإدراكها، وبإرادته التي خصت الكون كله لاستقباله ﷻ، وبعلمه الذي لا يعزب عنه صغيرة ولا كبيرة، كان بالضرورة أن زمن هذا الفعل (الإسراءِ) يتناسب مع كل هذه الصفات

(١) انظر في قصة الإسراء والمعراج : السيرة، لابن هشام ، (٣٩٦/١) وما بعدها، والدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر ، ص (٦٥) وما بعدها، والروض الأنف، للسهيلى ، (٢٥١/٣) وما بعدها، والمواهب اللدنية، للقسطاني، (٤٢٦/٢) وما بعدها، وخاتم النبيين، محمد أبو زهرة ، (٤١٣/١) وما بعدها،

الإلهية، ومعنى ذلك أن النتيجة (لا زمن)، ومن هنا يأتي السؤال : إذا كان لا زمن في الإسراء والمعراج، فلماذا ذكر الله ﷻ أنها أخذت زمناً، وهو الليلة، حين قال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (١) ؟

والإجابة : أن هناك فرقاً واسعاً بين حدث الإسراء في ذاته ، أي : بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، وبين المرائي التي رآها ﷻ بشريته، فالإسراء في ذاته، والذي هو انتقال من مكان إلى مكان، ليس فيه الزمن ؛ لأن الفاعل فيه هو الله ، وأما المرائي التي رآها ﷻ بشريته، فهي التي احتاجت إلى زمن ؛ ثم إن رسول الله ﷺ لم ينسب الإسراء إلى نفسه، بل إن الأمر متعلق بقدرته ﷻ (٢).

إن الحركة في الإسراء والمعراج بهذه السرعة ممكنة في نفسها، فقد جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان - عليه السلام - إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة، فقد قال تعالى : ﴿عُدُّوْهَا شَهْرًا﴾ (٣)، وجاء فيه أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر، كما قال تعالى : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (٤)، وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم (٥).

(١) سورة الإسراء : آية رقم (١).

(٢) المواهب اللدنية، للقسطلاني، (٤٣١/٢).

(٣) سورة سبأ : آية رقم (١٢).

(٤) سورة النمل : آية رقم (٤٠).

(٥) تفسير المراغي، (٦/١٥).

ثم إن ما يُستجدّ كل يوم من ضروب المخترعات، والتوسل بها إلى طيّ المسافات، وقطع المحيطات في قليل الساعات، من قارة إلى قارة، ومن قطر إلى قطر، ليجعلنا نعتقد أن ما جاء في وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التي ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة^(١).

المشركون أدركوا أن الإسراء كان يقظة لا مناماً وبالروح والجسد معاً:

وهنا نأتي لسؤال آخر يتضح من خلاله أن الله ﷻ قد هيا من الكافرين من يكون جنداً للإسلام، بإثباتهم أن الإسراء كان يقظة لا مناماً، والذي جاء على هيئة سؤال في قولهم: (نَحْنُ نَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِيلِ^(٢) إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ مُصْعِدًا شَهْرًا وَمُنْحَدِرًا شَهْرًا، تَزْعُمُ أَنَّكَ أَتَيْتَهُ فِي لَيْلَةٍ^(٣)).

هذا التعتت والتكذيب من المشركين بما كانوا يطلبون من آيات حسية، لهُو دليل أكيد منهم أنهم أدركوا أنه ﷻ لا يتكلم عن منام وقع له، وإلا ما ناقشوه؛ لأنه معلوم أن الرؤيا المنامية لا يُماري فيها أحد، ولا يناقش فيها أحد؛ لأنها ليست محل إنكار^(٤)، فقانون المرائي المنامية

(١) تفسير المراغي، (١١/١٥).

(٢) أي: نركب ونسير.

(٣) انظر: عيون الأثر، (١٦٦/١)، والخصائص الكبرى، (٢٩٤/١)، وسبل الهدى والرشاد، (٩٣/٣) وما بعدها.

(٤) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، ط١، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، (٦/١٥)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ط١، ١٩٩٨، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، (٢٨٦/٨).

فوق قانون المادة واليقظة ؛ وحيث إنهم قد ناقشوا الأمر، فهذا دليل على أنهم أدركوا أن حدث الإسراء كان يقظة، وكان بالروح والجسد، وليس مجرد رؤيا منامية^(١).

ويأتي هنا سؤال، وهو : هل كان الإسراء بالروح فقط ؟

وللإجابة، نقول : إن الناظر المدقق في النص الإلهي المشرف، الذي هو عمودنا في توثيق الإسراء لرسول الله ﷺ، سيجد أن الحيشة التي ذكرها الله ﷻ هي ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، ومعلوم أن هذه الحيشة ﴿بِعَبْدِهِ﴾ لا تطلق إلا على الروح والجسد معاً، بحيث لا يطلق على واحدة منها منفردة، وفي ذلك رد على الذين قالوا إنه أسري بالروح فقط، فهذا مجال الإعجاز، ولو كان بالروح فقط ما كان عجباً، وما كذبه كفار مكة .

وكذلك فإنه - سبحانه وتعالى - قال : ﴿لُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّا﴾، والظاهر أن ما أراه الله تعالى لنبيه ﷺ إنما كان رؤيا عن طريق العين ويؤيده قوله تعالى : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(٢)، فلا يزيغ البصر ويطغى إلا في الجسم، ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم .

(١) انظر : الإسراء والمعراج، محمد متولي الشعراوي، ط ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص (٢٧-٢٨).

(٢) سورة النجم : آية رقم (١٧، ١٨) .

ولأنه ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الرسول ﷺ قد استعمل في رحلته البراق، واستعماله البراق يدل على أن هذا الحادث كان بالروح والجسد وفي اليقظة لا في المنام^(١)، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ الدواب لا تحمل إلا الأجساد^(٢). وفي حكمة الإسراء به ﷺ ركباً مع القدرة على طي الأرض له، قيل: إنه وقع كذلك تأنيساً له بالعادة في مقام خرق العادة؛ لأن العادة جرت بأن المليك إذا استدعى من يحبه يبعث إليه بما يركبه^(٣). ومما يدل أيضاً على أن الإسراء كان بالروح والجسد معاً، ما قام به ﷺ من وصفه للمشركين ما رأى وعان في تلك الرحلة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "لَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي الْحَجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلْتَنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبَتْ كُرْبَةً مَا كُرِبَتْ مِثْلَهُ قَطُّ"، قال: "فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ" ^(٤).

إذن فقد كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد معاً، وتواردت على ذلك ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدوّل عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل^(٥).

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، (٢٨٦/٨).

(٢) تفسير المراغي، (٧/١٥).

(٣) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، (٥٥٥/١).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم، والمسيح الدجال، (١٥٦/١).

(٥) فتح الباري، (١٩٧/٧).

لماذا كان الإسراء ليلاً ؟ :

إن السُّرى هو السير ليلاً ، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلاً ، ولكن الحق - سبحانه - أراد أن يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً ؟ .

نقول : حدث الإسراء ليلاً ، لتظلَّ المعجزة غيباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ ، فلو ذهب في النهار لرآه الناس في الطريق ذهاباً وعودة ، فتكون المسألة إذن حسيّة مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب^(١) .

ومما أوجب به أيضاً على كون الإسراء كان ليلاً ؛ "كي يزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنهم ؛ إذ الليل أخفى حالا من النهار ، قيل : ولعله لو عرج به نهاراً لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب ، ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي ووجد"^(٢) .

الفرق بين الرؤية والإراءة :

إن الإراءة هي أن تجعل من لا يرى يرى ، وذلك إما بتحويل المرئي إلى قانون الرائي ، أو بنقل الرائي إلى قانون المرئي .

وبالنظر في رحلة الإسراء فهي رحلة أرضية انتقل فيها برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكانت فيها الإراءة ، فقال تعالى : ﴿لُنُرِيَهُ﴾ ؛ لأن محمداً ﷺ على الأرض ، وبشري بقانون البشرية ،

(١) خواطر الشيخ الشعراوي ، (١٣/٨٣١٤) .

(٢) المواهب اللدنية ، (٢/٤٣٠) .

وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء، وقانون الضوء لا يختلف فيه أحد، فإذا كانت هناك آيات من غيب الله في الأرض، فلا بد أن تحدث له إراءة؛ لأنه بطبيعته لا يرى هذه الأشياء، فالإراءة إذن ناسبت الإسراء. إن رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء، حين كان جبريل - عليه السلام - يعرض عليه الأشياء، يقول ﷺ: " ما هذا يا جبريل ؟ "، فيقول: هذا كذا وكذا، ولكن لما صعد ﷺ إلى السماء كان يرى المرأى، فلا يستفهم من جبريل - عليه السلام - عنها، فناسب أن يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَى﴾. ومعنى هذا أن هناك شيئاً تغيّر في ذاتيته ﷺ، وأصبحت له ذاتية فاهمة بلا واسطة جبريل - عليه السلام -، ففي الأرض إراءة، وأما في السماء فقد رأى بالرؤية (١).

ثم إن هذا النصّ المشرف ﴿لِرَبِّهِ مِنْ آيَاتِنَا﴾، لهو نص على إشراف النبي ﷺ فوق الزمان والمكان، يرى بغير حجاب الحواس مما مرجعه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه؛ بخلاف ما لو كانت العبارة: " لِيرَى مِنْ آيَاتِنَا "، فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام، ويتطرق إليه الاعتراض ولا تكون معجزة، وتحويل فعل "الرؤية" من صيغة إلى صيغة كما رأيت، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرأى من شكل إلى شكل وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل؛ فتبارك الله منزل هذا الكلام! (٢).

(١) انظر: الإسراء والمعراج، الشيخ الشعراوي، ص (٥٠-٥٣).

(٢) وحي القلم، (٢٦/٢).

المَرَائِي وقانون صيانة الإنسان :

من المعلوم أن كلَّ صنعة لها صانع ، وصاحب الصنعة هو وحده الذي يدرك قانون تشغيلها، ويدرك أيضاً كيفية إصلاحها إن فسدت ؛ وحيث إن الإنسان هو صنعةُ الله ﷻ فإن قانونَ صيانة هذا الإنسان إنما يأتي من خالقه، وهو الله عز ﷻ ؛ لأجل ذلك كانت المَرَائِي التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج تُعد كأنها وسائلُ إيضاحٍ بطريقة عملية لبعض الأوامر المنهجية التي أتى بها التكليفُ .

لقد أرى اللهُ رسولَه بعضاً من المَرَائِي^(١) في صورة الثواب أو الذي يناله من وافق والتزم التكليف أو من خالف وخرج عن مقتضى التكليف ، والغاية من هذه المَرَائِي: الارتقاء بكريم الأخلاق ، والوصول إلى مجتمع مترابط نقي زكي النفس .

وقد أتت هذه المَرَائِي بطريقة عملية لتؤسس المجتمع الإسلامي على عدة أمور، منها :

- أن يتحمل الأمانات .
- أن يحافظ على أموال اليتامى .
- ألا يأكل أموال الناس بالباطل .
- أن يبتعد عن الربا الذي هو جريمة مركبة ، فبدلاً من التعاون والتكافل لمن هو في حاجة إلى المال ، يزيد دَيْئَه أكثر وأكثر عن طريق الربا .

(١) انظر فيما ورد عن المَرَائِي التي رآها رسول الله ﷺ: فتح الباري ، (٢٠٠/٢)، وفتح المنعم، (٥٥٦/١) .

- أن يتعد عن بعض القضايا الأخلاقية ، كالهمز ، واللمز ، واحتقار الآخر ، والسخرية .

- أن يحفظ اللسان ويدرك خطورة الكلمة وأثرها على المجتمع .
- أن يتعد عن مجالي الإفساد في الأرض (المال والعرض).
- إلى غير ذلك مما ورد في المرآئي التي وقعت في الإسراء والمعراج.

التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم :

لا شك أن هناك وسائل كثيرة وفيرة للتعليم تبعاً لما أفرزته التكنولوجيا الحديثة بأدواتها وآلياتها المختلفة والمتنوعة ، إلا أنه ستظل وسيلة التعليم بالطريقة العملية والمشاهدة الحسّية مع حسن استثمار تكنولوجيا العصر هي أفضل وسائل التعليم ؛ لأنها ترسم صورة ذهنية مبنية على واقع محسوس لا ينفصل عن الذهن، بل كلما أراد الذهن أن يذكره استدعاها مباشرة ؛ لأجل أن الذهن قد انطبع به صورة وحسّاً وواقعاً .

وفي الإسراء والمعراج قد أطلع الله رسوله ﷺ على ما في هذا الكون من العظمة والجلال ؛ ليكون ذلك درساً عملياً لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة، أو يجلس إلى معلم، أو يسبح في أرجاء المعمورة، أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء، فقد كفل له ربّه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم ، التي لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأئى لنا أن نصل إلى ذلك ، وقد حُبس عنا الكثير من العلم ، ولم نُؤت إلا قليلاً^(١)،

(١) تفسير المراغي ، (١٥/١٠) .

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ﴾ (١).

الاهتداء إلى الفطرة :

لقد عُرض على رسول الله ﷺ كأس من اللبن، وكأس من الخمر، فاختار ﷺ كأس اللبن، وهنا قال له جبريل - عليه السلام - : (هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ).
فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ، أَحَدُهُمَا لَبَنٌ وَالْآخَرُ فِيهِ خَمْرٌ، فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبْنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ لِي: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ، أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ " (٢).

ونحن إذا نظرنا إلى الأمرين (اللبن والخمر)، سندرك على جهة التحقيق والتدقيق أن اللبن الذي نشربه من حيث مصدره ، لا صنعة للإنسان فيه، فنحن نشربه كما نزل ، ولا نخرجه عن طبيعته المخلوق عليها، فهذا ما يسمى بالفطرة، وأما الخمر فهو إتلاف لطبيعة ما خلق الله ﷻ وإخراجه عن فطرته، فالخمر هو نتيجة أخذ نعمة من نعم الله ﷻ كالعنب مثلاً، ثم إتلافه بجعله ينتن ويتحلل ، فيخرج عن طبيعته وفطرته ؛ ليصبح سكرًا بدلا من كونه رزقًا .

(١) سورة الإسراء: آية رقم (٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ " وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيِمَ إِذْ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا " ، (١٦٦/٤) ، وأخرجه أيضًا في كتاب تفسير القرآن ، بَابُ قَوْلِهِ : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " بلفظ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ) ، (٨٣/٦) ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرَضِ الصَّلَوَاتِ ، (١٥٤/١) .

ثم إن العقلَ هو مناط التكليف، وهو آلة الاختيار بين البدائل المختلفة، والعقل ما سُمي بالعقل إلا لأنه يَعْقِلُ حركةَ الإنسان؛ ليجعلها منضبطةً مع المنهج الإلهي، فكيف إذا تناول الإنسان الخمر الذي يستر العقل ويفقده وظيفته الرصينة؟!، وما كان ذلك إلا بسبب الخروج عن الفطرة الصحيحة النقيّة، فكأن من تناول الخمر قد عمد إلى تعطيلِ مناط التكليف وضابطِ الحركة مع المنهج الإلهي؛ لأجل ذلك لما اختار النبي ﷺ كأس اللبن، قال له جبريل - عليه السلام - : (هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ)، في إشارة دقيقة إلى أن رسول الله ﷺ يختار كلَّ ما يؤكد الفطرةَ السليمة والنقيّة.

بعد فرض الصلاة :

لقد اختصت الصلاة كركن من أركان الإسلام الخمس بخاصية تميزها عن غيرها من الأركان؛ حيث إنها قد فرضت بالأمر المباشر من الله ﷻ في عروج النبي ﷺ، وكانت هدية القرب من الله لأمة النبي ﷺ. وفي دلالة رصينة على محبة موسى - عليه السلام - لأمة النبي ﷺ، ونقل تجربته الواقعية لرسول الله ﷺ، يقدم موسى - عليه السلام - نصحه لرسول الله ﷺ، حيث إنه لما عُرج به ﷺ وفُرضت عليه الصلاة، كان النصح من سيدنا موسى - عليه السلام - للتخفيف عن المسلمين في عدد الصلوات المفروضة؛ فقد فرضت ابتداءً خمسون صلاة، ثم خُففت إلى خمسة فقط .

فيروي لنا سيدنا أنس بن مالك ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " .. فَأَوْحَى إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَزَلَّتْ إِلَيَّ

مُوسَى - عليه السلام - فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ " (١).

ولنلاحظ هنا هذا التعبير الدقيق، حين يقول موسى - عليه السلام -: (فَأِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ)، فهذه شهادة من موسى - عليه السلام - ليست ضد الأمة كما يتوهم الواهمون، بل إن موسى - عليه السلام - يتكلم عن تجربة واقعية مرَّ بها مع قومه، فينقل هنا موسى - عليه السلام - تجربته مع أمته إلى سيدنا محمد ﷺ مفترضاً أن الأمة قد لا تستطيع أو لا تقوى على إقامة خمسين صلاة؛ بناءً على تجربته مع أمته - كما أشرنا - فهذا إذن دليل من موسى - عليه السلام - على محبته لرسول الله ﷺ، ولأمته أيضاً.

البحث في الفضاء الخارجي :

لا شك أن الإسراء والمعراج كمعجزة أكدت على تشریف النبي ﷺ وإحاطته بعناية الله ﷻ من خلال خرق النواميس الكونية له، إلا أنها أيضاً جاءت لتؤكد للعقل البشري أنها من الزاوية العلمية ممكنة عقلاً؛ وبناء على ذلك فقد فتحت باباً واسعاً لإمكانية البحث في الفضاء الخارجي، لا سيما وأن محاولات الإنسان كانت وما زالت وستظل مستمرة للبحث في الفضاء والوصول إلى أسرارهِ بما شاء الله أن يصل إليه العقل البشري.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَفَرَضِ الصَّلَوَاتِ، (١/١٤٥).

ثم إننا الآن وفي ظل عصر الاختراعات والابتكارات رأينا من صعد وانتقل من الأرض إلى القمر، وربما وصلت سرعة مركبته الفضائية أكثر من أربعين ألف كيلو متر في الساعة، وكأن هذا الأمر الذي يُعبر عن تقدّم العلم، قد كشف عن جانب من جوانب الإعجاز في الكون، من حيث إمكانية الصعود والعروج إلى السماء .

وكلمة العروج معناها : سير الجسم في خط منحن منعطف، وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن حركة الأجسام في الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة، بل لا بد لها من التعرج والانحناء ؛ نظراً لانتشار المادة والطاقة في كل الكون، فكل جرم متحرك في السماء مهما كانت كتلته محكوم بكل من قوى الجذب والطرْد المؤثرة فيه، وهذا ما يصفه القرآن بالعروج .

ولولا معرفة حقيقة عروج الأجسام في السماء، لما تمكن الإنسان من إطلاق الأقمار الصناعية، ولا استطاع كذلك ريادة الفضاء (١) .

إذن إسراء ومعراج النبي ﷺ فتح باباً واسعاً عميقاً للعقل البشري، للاختراع والابتكار ؛ حتى يصل إلى أسرار هذا العالم ، ونحن إلى سنوات قريبة، لم يكن في علم أحد من الناس أن السماء على اتساعها ليست فراغاً، بل هي بناء محكم، لا يمكن وُجُوه إلا عن طريق باب يفتح يتم الدخول منه .

(١) الموسوعة الكونية الكبرى، د. ماهر أحمد الصواف، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (٣٣١/٢، ٣٣٢) .

ولا شك أنه من عدل الله ﷻ أنه جعل سننه الكونية في هذا الكون غير خاضعة لأحد، بمعنى أنها محايدة، لا تتأبى على أحد، فمن طلبها وجدها ؛ لذا فإني أرى ضرورة أن يطّلع الداعية على الأبحاث العلمية قدر الإمكان، ومحاولة الربط بينها كأداة من أدوات الدعوة إلى الله تعالى، إذ إن البحث العلمي من أولويات الدعوة الإسلامية، ومن ثمّ فيجب التحدث بلغة العلم في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، مما يعطي مجالاً واسعاً وفسيحاً أمام الداعية للنظر والتأمل في السنن الكونية ومظاهر الإعجاز فيها .

وحدة الأنبياء في الرسالة والهدف :

لقد قال الله ﷻ : ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(١)، فكان المسجد الأقصى هو منتهى مسرى رسول الله ﷺ، ومبتدأ عروجه، وهو- سبحانه وتعالى- يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى في مقدسات الإسلام .

والمسجد الأقصى هو مسجد بيت المقدس، فعن أنس بن مالك ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيْتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضٌ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَعْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ»، قَالَ: «فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ»، قَالَ: «فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرِبُطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ»، قَالَ: " ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ "^(٢).

(١) سورة الإسراء: الآية رقم (١) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، (١٤٥/١) ، وأحمد في مسنده (٤٨٥/١١) .

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه " أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَتَى بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ مُسْرَجًا مُلْجَمًا لِيَرْكَبَهُ، فَاسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا؟ فَوَاللَّهِ مَا رَكِبَكَ أَحَدٌ قَطُّ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ، فَارْفُضْ عَرَقًا ^(١).

فالإسراء قد حدث من مكة إلى القدس - المسجد -، وهو قد أقام رباطاً بين هذين الحرمين المقدسين، وهو رباط يجسد وحدة الدين الإلهي عبر كل النبوات والرسالات .

إن المسجد الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس في الأرض، والذي أصبح قبلة أمة الرسالة الخاتمة، عندما يربط الله (بالإسراء) بينه وبين القدس - قبلة النبوات السابقة - إنما يرمز بذلك إلى وحدة الدين الإلهي، وإلى اكتماله بالإسلام، وإلى العقيدة الإسلامية جمعت الإيمان بكل الرسل والرسالات من آدم - عليه السلام - إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لانفراق بين أحد من رسله .

إذن ففي الإسراء من مكة إلى بيت المقدس الإشارة إلى وحدة الأنبياء في الرسالة والهدف والتوجه إلى الله تعالى وحده، وإن تمايزت الشرائع، وتمادى الزمان في فترات إرسال الأنبياء - عليهم السلام -، فهم من أولهم آدم - عليه السلام - إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم دعاء إلى توحيد

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (١٠٧/٢٠)، والبزار في مسنده، والمسمى (البحر الزخار)، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق: عادل بن سعد، ط١٩٨٨/١م، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، (٤٠٤/١٣).

الله (عز وجل) وعبادته ، وإلى إصلاح الإنسان والمجتمع ، وإسعاد الفرد والجماعة، وتصحيح مسيرة الناس قاطبة على أساس من الحق والعدل والاستقامة والأخلاق السوية .

وإذا كان المسلمون هم الذين سموا هذه المدينة (القدس) ، و (القدس الشريف) ، و (بيت المقدس) ، و (الحرم القدسي) ، منذ فتحهم لها سنة ١٥ هـ/٦٣٦م ، وذلك بعد أن كان اسمها يومئذ (إيليا الكبرى) ، فلقد صنعوا ذلك ليعلنوا بهذه الأسماء القدسية عن قداستها، ولم يكن قد قام فيها يومئذ مسجد من مساجد الإسلام، ولا دخل أحد من أهلها في دين الإسلام .

تمحيص للهجرة وبناء الدولة:

لقد صبر الصحابة الكرام -رضي الله عنهم - على أنواع وصنوف وألوان التعذيب والآلام التي وقعت عليهم في مكة من صنائد المشركين، صبروا على الفتنة في جميع مظاهرها، تخلّصت أنفسهم من جميع النزعات المادية والدينيوية ، صفت قلوبهم من جميع الأهواء، فأصبحت خالصة لله وحده ، فكان حقاً أن تقوم عليهم الدولة الإسلامية في نشأتها ؛ ولأجل ذلك كان لا بد من فقه التهيئة لهم حتى يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات .

وقد كان من وسائل هذه التهيئة والتصفية والتمحيص : الإسراء والمعراج .

لقد كانت رحلة الإسراء أرضية في طوق العقول أن تتبّع مشاهدتها، لكن المعراج لقاء رباني ليس في طوق الإنسان أن يدرك حقيقته ؛ لذلك

جاءت الإشارات الربانية والإيقاعات القرآنية في شأنه سريعة خاطفة، قال تعالى: ﴿مَازِعَ الْبَصُرِ وَمَا طَعَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١).
إن هاتين الرحلتين: الرحلة الأرضية (الإسراء)، والرحلة السماوية (المعراج)، حدثتا في ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة؛ ليمحص الله المؤمنين، ويبين منهم صادق الإيمان، ومن في قلبه منهم مرض، فيكون الأول خليقاً بصحبة رسوله الأعظم ﷺ إلى دار الهجرة، والانضواء تحت لوائه، وجديراً بما يحتمله من أعباء وتكاليف عظام (٢).

من مقاصد الإسراء والمعراج:

ونستطيع أن نستفيد أيضاً جملة من القيم الرصينة نستخرجها من الإسراء والمعراج، ومنها:

- قيم التخطيط والتنظيم والأخذ بالأسباب من خلال المراحل التي تعرض لها الرسول ﷺ قبل وأثناء الإسراء والمعراج [التهيئة للرحلة - البراق - الرحلة الأرضية (الإسراء) - العروج إلى السماوات - سدرة المنتهى - هدية الأمة ... إلخ].
- قيم سلامة الصدور وصفاء القلوب من الأحقاد، وتحقيق الأمن الاجتماعي من ملمح اختياره ﷺ للبن الذي يمثل الفطرة.
- قيم التعاون والتكافل وتحقيق الوحدة ونبذ الفرقة من ملمح اصطفاة الأنبياء خلف النبي ﷺ.

(١) سورة النجم، الآيتان (١٧، ١٨).

(٢) انظر (بتصرف)، تفسير المراغي، (١٥/٩-١٠).

- حفظ اللسان وقيمة العفة وحفظ الأنساب والأعراض ونبذ الشائعات والحذر من الذنوب صغيرها وكبيرها وأثر ذلك على الفرد والمجتمع ، ملمح من بعض المرثي التي رآها النبي ﷺ في العروج.
- الإخلاص وقوة الإيمان، ملمح من قول أبي بكر الصديق ؓ: " إن كان قد قال ذلك فقد صدق ".
- قيم التسامح والرحمة والتأكيد على ثقافة الألفة ونبذ العنف في موقفه ﷺ من أحداث الطائف .
- فقه الحوار وقبول الآخر وأمانة الكلمة وخطورتها ، من ملمح لقاء النبي ﷺ مع عدّاس .
- قيم الحياء ملمح من قول موسى - عليه السلام - للنبي ﷺ: " ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك "، قال النبي ﷺ له: " قد راجعت ربي حتى استحيت منه ولكن أَرْضَى وَأَسْلَمَ".
- دور الشباب في بناء الأمة من خلال تأسيس الأجيال وتنشئتهم
- النشأة الجيدة ملمح من تسامحه مع أهل الطائف، فالرسول ﷺ يهدف في بنائه ليس فقط للأحياء أمامه وإنما للنطف في أصلاب الرجال يقول النبي ﷺ: " بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ".
- أمانة تقديم النصيحة وتقديم الخبرات والتجارب ملمح من تقديم موسى - عليه السلام - النصح للرسول ﷺ في أمر الصلاة .

بيعتا العقبة وبدء إسلام الأنصار:

عرفنا أن رسول الله ﷺ كان يستقبل وفود العرب من كل مكان ، والتي جاءت إلى مكة في موسم الحج، يعرض عليهم الإسلام ، حتى قابل جماعة من يثرب استجابوا لدعوته، إلا أنهم لم يبايعوه، ثم كان بعد ذلك بيعة العقبة الأولى .

بيعة العقبة الأولى .. وثمرة الصبر وبذل الوسع في الدعوة :

في السنة الحادية عشرة من البعثة عاد وفد يثرب بعد أن قابلهم النبي ﷺ العام الماضي (العاشر من البعثة)، وبايعوا رسول الله ﷺ، وكان عددهم اثني عشر رجلاً من الأوس والخزرج، وقد أرسل النبي ﷺ معهم "عبد الله بن أم مكتوم" و "مصعب بن عمير"؛ يُعَلِّمَانِ مَنْ أَسْلَمَ الْقُرْآنَ، ويدعوان الناس إلى الإسلام .

فأقبل هذا الوفد، ولقوا رسول الله ﷺ بالعقبة - بمنى - فبايعوه، وقد روى لنا سيدنا عبادة بن الصامت ؓ خبر هذه البيعة، حيث قال لهم ﷺ: " تَعَالَوْا بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسْتَرَهُ اللَّهُ فَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقِبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ." قال: فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة، وبيعة العقبة (٥٥/٥) .

وما أجمل الدقة في قوله ﷺ: " وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ "، إنه ﷺ لم يقل : ولا نعصيه ويسكت، وإنما كان هذا القيد الدقيق المنير بقوله: " في معروف "؛ ليؤكد على أن هذه البيعة هي بيعة فضيلة وخير، إنها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها؛ ولأجل ذلك عاد المسلمون في هذه البيعة إلى المدينة بأخلاق وقيم أخرى، وبوجوه مملووة بنور الإسلام وتعاليمه، وبقلوب انشرفت بالرحمة، فكانوا خير دعاة إلى الله ﷻ.

بيعة العقبة الثانية .. وتهيئة أسباب الهجرة إلى المدينة :

يعود مصعبُ بن عمير إلى مكة في العام التالي (الثاني عشر من البعثة) ومعه جمع وعدد كبير ممن أسلموا في المدينة ، وكان عددهم بضعة وسبعين، بينهم امرأتان ؛ حيث خرجوا مستخفين مع من جاء إلى مكة من قومهم المشركين حجاجاً ؛ ليبايعوا رسول الله ﷺ .

وهذه البيعة الثانية كانت هي الأساس في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ؛ ولما انتهى إلى سمع المشركين من أهل مكة خبر البيعة الثانية، وما قد تم فيها بين النبي ﷺ والمسلمين من أهل المدينة ، كان لذلك أثرٌ كبيرٌ في تضيقهم الأمر على رسول الله ﷺ، والذي وصل إلى إجماع الرأي على قتله .

إذن لقد كانت بيعة العقبة الثانية المقدمة الأولى لهجرته ﷺ إلى المدينة.

بيعتنا العقبة مبعث فخر الأنصار :

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن كلا من البيعتين كانتا مبعثَ فخر ، حملهما الأنصارُ في ذاكرتهم ، بل وحملهما لهم التاريخُ كله ؛ ولذلك عندما يتحدث الرجال متباهين بإنجازاتهم أمام الجميع، نرى الأنصارَ الذين بايعوا رسول

الله ﷺ في بيعتي العقبة الأولى والثانية، يجعلون في مقدمة إنجازاتهم
وصدارتها ذكر بيعتهم له ﷺ، ولنستمع لبعض من هؤلاء الأنصار:

فهذا هو كعب بن مالك ؓ يقول: (وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاتَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدٌ بَدْرٍ، وَإِنْ
كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا) (١).

وهذا هو جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنهما - ممن
شهد العقبة الثانية، يقول: (أَنَا، وَأَبِي، وَخَالِي، مِنْ أَصْحَابِ الْعَقَبَةِ) (٢)
ويقول أيضاً: (شَهِدَ بِي خَالَايَ الْعَقَبَةَ) (٣).

من فقه بيعتي العقبة الأولى والثانية :

- الشدائدُ الجسام تقابلها بشائرُ عظام ، وأن الدعوةَ بالحكمة
والموعظة الحسنة سبيلٌ عظيمٌ لتحقيق كمال الإيمان ، هذا للكل - قدر
علمه ومعرفته - فما بالنا بمن أوقفهم الله ﷻ على مقام الدعوة إليه ، وهم
أهل الفهم والإفهام ، والتثبت والتوثيق ، والحجية والتحليل ، وبناء
الإنسان !!؟

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، بابُ وفود الأنصارِ إلى النبي ﷺ بمكة ، وبيعة
العقبة (٥٤/٥) ، ومسلم في كتاب التوبة ، بابُ حديثِ توبةِ كعب بن مالك وصاحبيه ،
(٢١٢٠/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، بابُ وفود الأنصارِ إلى النبي ﷺ بمكة ، وبيعة
العقبة ، (٥٥/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، بابُ وفود الأنصارِ إلى النبي ﷺ بمكة ، وبيعة
العقبة ، (٥٥/٥) .

القسم الثاني من الهجرة إلى حجة الوداع

**الباب الأول : من فقه الهجرة النبوية
الباب الثاني : الجوانب الإدارية في السيرة النبوية.**

الباب الأول من فقه الهجرة النبوية

الفصل الأول الهجرة ... وفقه الأمة الواحدة

نظرات في الهجرة :

بينما كانت مكة تتآمر ضد رسول الله ﷺ ، كانت المدينة على العكس من ذلك ، تهيئ له استقبالاً حافلاً .

وكانت بيعتا العقبة ، واللذان مثلتا ميثاق النبي ﷺ مع رجال المدينة والملقبين منذ ذلك الحين بالأنصار، هما اللتان مهّدتا للهجرة، حتى جاء الأمر من الله ﷻ، وفي إحدى الليالي، بينما كان المتآمرون يحيطون ببيت النبي ﷺ، خرج تحت أعين أعدائه، دون أن يروه، وانطلق في رحلة الهجرة ومعه صاحبه أبو بكر ﷺ، بعد أن قام بالإعداد الرصين معتمداً على الأسباب المتاحة أمامه ؛ حيث اختار عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) لينام في فراشه ، وعبد الله بن أبي بكر ليتسمع الأخبار ، وأسماء بنت أبي بكر لتأتي لهما بالطعام، وعامر بن فهيرة ليزيل آثار الأقدام، وعبد الله بن أريقط ليكون دليلاً لهما في الطريق، وحين خرج ﷺ اتخذ طريقاً مخالفاً للطريق المألوف عند الذهاب للمدينة ؛ ليكون أبلغ في التورية من المترصدين والمتربصين به ﷺ.

لقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة من الأحداث العظيمة التي تعد من أكبر التحولات في تاريخ الإسلام ، وفي الهجرة نظراتٌ روحية أحب أن أعرج على بعضها بشيء من الإيجاز والتركيّز، وهي كالاتي :

الهجرة إلى المدينة :

لماذا لم تكن هجرة رسول الله ﷺ والصحابة إلى الحبشة كما مرّ في الهجرة الأولى ، وكانت إلى المدينة؟! للإجابة نقول : إذا قارنا بين الحبشة والمدينة ومدى انتشار الدعوة الإسلامية بعد الهجرة، فإننا سنجد ما يلي :

١- أن الحبشة طبيعتها وبيئتها ولغتها أعجمية، وهي بذلك بعيدة عن البيئة التي هي موطن الدعوة الإسلامية، وهي البيئة العربية، ومعنى هذا أنه لو كانت الهجرة إليها، لفسر ذلك على أن الدعوة الإسلامية غير صالحة للعرب .

٢- أنه بالنظر إلى المدينة وموقعها، سنجد أن لها تميزاً واضحاً من حيث التجارة ؛ وذلك لأن تجارة مكة ذهاباً وإياباً إنما تأتي عن طريق المدينة، ومن هنا يمكن التأثير من أهل المدينة على من أتى إليها من مكة .

٣- أن الحبشة تختلف في بيئتها ولغتها عن المدينة، حيث تتكلم بلغة أخرى وهي لغة الأعاجم، وهذا معناه أنه لو كانت الهجرة للحبشة لكان في ذلك تأثير سلبي على الدعوة وعلى نشر الإسلام.

عناية الله ﷻ ورعايته لرسوله الكريم :

ويظهر ذلك في مواطن كثيرة ، منها : من يتدبر قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوا أَيْفُتُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾^(١) يجد أن الكفار أرادوا أن يمكروا برسول الله ﷺ، واتفقوا في النهاية على قتله، لكن أمرهم هذا

(١) سورة الأنفال : آية رقم (٣٠) .

كان مفضوحاً ومعروفاً لمن لا تخفى عليه خافية، وهو الله ﷻ، ومن ثمَّ عرّف اللهُ رسولهُ بأمرهم وبمكرهم، فأبطل الله مكرهم .
من يتدبر قول الله تعالى: ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(١)، هذه الآية تجعلنا نتساءل: وهل الكفار بالفعل أخرجوا رسول الله ﷺ أم أن الله ﷻ هو الذي أخرج رسوله، وما هو هدف الكفار من ذلك، وما هو الهدف الأسمى من هجرته ﷺ؟ .

حين خرج رسولُ الله ﷺ ظنَّ هؤلاء الكفار أن الدعوة ستضيق ولن تنتشر، بينما نستطيع أن نقرر هنا أن الهدف الأسمى من هجرة رسول الله ﷺ، هو انتشار دعوته ﷺ في كل القبائل، فأخرج الكفار لرسول الله ﷺ كان هدفه التعتت أمام دعوته والتضييق عليه والقضاء على الدعوة بتمامها، لكن الله أراد من هذا الخروج أمراً آخر وهو النصر والمؤازرة لرسوله ﷺ .

كذلك من الأمور المدهشة في حادث الهجرة أنهم قد وقفوا جميعاً أمام بيت النبي، يترصدون خروجه ﷺ ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في البلاد، والسؤال هنا: كيف خرج رسول الله من بين أيديهم، بأن يفتح باب بيته، ثم يميل إلى الأرض ليأخذ حفنة من التراب، ثم بعد ذلك ينثرها في وجوههم، كل هذا وهم ينظرون إلى رسول الله ويدعونه يفعل كل ذلك دون أن ينقض أحدهم عليه، ونحن نعلم أن من يترصد أحداً ويقف له بالمرصاد فإنه يكون في أتم حالات

(١) سورة التوبة: آية رقم (٤٠) .

الانتباه والاستعداد واليقظة والذكاء لينقض على رصده ! إلا أننا هنا نجد أنفسنا أمام إعجاز حسي لرسول الله ﷺ وهو أن يخرج من بين أيديهم جميعاً وينثر عليهم التراب، فتعشى أبصارهم .

الراحة بالثمن :

حينما أعلم رسول الله ﷺ أبا بكر بصحبته له في الهجرة، قال له أبو بكر ؑ : فَخُذْ يَا بَيَّ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتِي هَاتَيْنِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : بِالثَّمَنِ " (١) . وهنا نتساءل : لماذا لم يقبلها رسول الله ﷺ إلا بالثمن؟!

والإجابة : إنما فعل ذلك رسول الله ﷺ لتكون هجرته إلى الله تعالى بنفسه وماله ؛ رغبةً منه ﷺ في استكمال فضائل الهجرة إلى الله، وأن يكون على أتم الأحوال (٢) .

التخطيط الجيد والأخذ بالأسباب :

من رحمة الله ﷻ بنا أنه وهبنا عقلاً، وأمرنا أن نتدبر به ونتأمل سننه الكونية، ونعمل الأسباب فيها، وسؤالنا هنا : هل السنن الكونية تحابي أحداً على أحد ؟ لا، إذن فلا بد من الأخذ بالأسباب ، فإذا تعذرت الأسباب وجب أن نجتهد وأن نبذل الوسع، وهذا يدفعنا إلى أن نتساءل: كيف كان طريق الهجرة ؟

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، (٥٨/٥) .

(٢) راجع في ذلك : المواهب اللدنية، للقسطلاني ، (١٧٠/١) .

إن النبي ﷺ قد اتخذ طريقاً مخالفاً للطريق المعتاد الذي تذهب فيه قريش إلى المدينة وهو شمال مكة، واتخذ طريقاً عكسياً، وهو جنوب مكة، وكان في مشيته ﷺ يمشي بالتعريج، أي يميناً تارة ويساراً تارة أخرى، والعلة في ذلك ألا يراه أحد ويعلم بخروجه ومكانه، وفي أثناء سيره يمر النبي ﷺ بجبل عُسْفان، وسمي بذلك لتعسف السيول فيه، ولك هنا أن تتخيل إذا كانت السيول التي لا يقف أمامها شيء تتعسف عند هذا الجبل، فكيف كان يمضي رسول الله ﷺ؟

وقد انتهى رسول الله ﷺ بعد مشقة الطريق إلى جبل ثور، وهو جبل عال وعِبر، ولنا هنا أن نتساءل عن ارتفاع هذا الجبل، وتكوينه الصلب، وما به من أحجار وغير ذلك، وكيف صعد رسول الله ﷺ وهو حافي القدمين؟ مع العلم أن النبي في حالة رصد، أي أن القوم يطلبونه، ومن ثم، فمشية رسول الله ﷺ سريعة، وخلفه رصدٌ يريده، والمطلوب أن يتخفى منهم، وأن يُسرِع في صعود هذا الجبل، هذا بالإضافة إلى كثرة الرمال التي تنقلها الرياح نقلاً يتعذر معه بقاء الطريق ممهداً أصلاً.

نحن إذا سألنا الآن من يصعد هذا الجبل من الناس في عصرنا هذا، سنجد أنه في كل خمس دقائق يأخذ قسطاً من الراحة، وقد تم إعداد الجبل بما يتناسب مع صعوده، أي نقشت السلالم له، وأصبحت ميسرة للصعود عليها، بل هناك أماكن للراحة أُعدت على هذا الجبل، هذا كله لم يكن موجوداً على عهد النبي ﷺ حينما صعد.

فإذا تأملت صعود رسول الله ﷺ للجبل وعلى أرضه الصلبة وارتفاعه الوعر، دون راحة، لعلمت قوة وتجلد رسول الله ﷺ في ذلك، بل لك أن تتخيل أن فتحة الغار التي دخل منها رسول الله ﷺ كانت ثلاثة أشبار في شبرين تقريباً، أي أن من يدخلها لا بد وأن يزحف على بطنه، فكيف حدث كل ذلك لرسول الله ﷺ؟ إنه التخطيط الجيد والأخذ بالأسباب.

قصاص الأثر:

لقد تتبع كُرُزُ بن علقمة (أحد قصاص الأثر) أثر أقدام رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر، حتى انتهت آثار الأقدام عند الغار، وهنا قال: هذه أثر أقدام محمد، وهو أشبه بالموجود في الكعبة - يقصد أنه أشبه بأثر قدم إبراهيم - عليه السلام -، ثم قال: وهذه أثر قدم أبي بكر أو قدم ابنه، ثم وضح في ثقة ويقين وقال: وما تجوزا هذا المكان إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في جوف الأرض.

هذا هو موقف كُرُزُ بن علقمة في تقصيه أثر رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر، فما هو موقف الكفار من ذلك؟

إنه بالرغم من هذا التأكيد الذي أكده لهم كُرُزُ، إلا أنهم لم يدخلوا الغار، ولم يخطر ببالهم أن ينظروا فيه، مع أن آثار الأقدام انتهت عنده، ولم يفكر أحدٌ في أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه، مع أن هذا هو أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن، فما دامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله، لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك، وهذا دليل على أنه قد عميت قلوبهم قبل عقولهم.

دليل الرسول ﷺ في الهجرة :

إذا تساءلنا وقلنا : من كان دليل رسول الله ﷺ في هجرته ؟ ألم يكن هو عبد الله بن أريقط، وكان لم يزل على الكفر ، كيف كان عبد الله بن أريقط أميئاً على رسول الله ﷺ، وهو ما زال على الكفر؟، وكيف لم يغيره الرصد والجائزة العظيمة التي رصدها قريش لمن يخبر عن رسول الله ﷺ؟ ألا يلفتنا هذا إلى التخطيط الجيد والأخذ بالأسباب من رسول الله ﷺ، وإلى أن الله ﷻ بقدرته جعل عبد الله بن أريقط أميئاً على رسول الله، وسخره في خدمة الإيمان ونبي الإسلام ؟ .

الباطل لا يعلو على الحق :

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ^(١)، ومعنى هذا أن الله سبحانه لا يجعل كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت في وقت ما في علو، ولكن: لماذا أوجد الله علوًا ولو مؤقتًا للكفر؟ .

أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شيء عال فيجعله أسفل ، وكلمة الله هي العليا ؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هي العليا، وليست كلمة الله عُلْيَا جَعْلًا، فهي لم تكن في أي وقت من الأوقات إلا وهي العليا، ولهذا لم يعطفها بالنصب في سياق الآية؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هي العليا دائماً وأبداً وأزلاً.

(١) سورة التوبة: آية رقم (٤٠) .

المحبة الصادقة :

وإذا سألنا : ماذا فعل أبو بكر مع النبي ﷺ في طريق الهجرة ؟ ما هذه المحبة الصادقة من أبي بكر لرسول الله ﷺ ؟ سأترك مع هذا النص المبارك لتأمل موقف أبي بكر مع النبي ﷺ، يقول أبو بكر : ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فأوي إليه، فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له : اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي ﷺ.

ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحدا، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ قال : لرجل من قريش، سماه فعرفته، فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم، قلت : فهل أنت حالب لنا ؟ قال : نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال : هكذا ضرب إحدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كئبة من لبن .

وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت : اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله ؟ قال : بلى، فارتحلنا والقوم يطلبوننا . فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت : هذا

الطَّلَبُ قَدْ لَحِقْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : ﴿لَا تَحْزَنَنَّ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^(١).

وحين قال أبو بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهما في غار ثور : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد في ثقة بربه: " مَا ظَنُّكَ يَا ثَنِينِ اللَّهِ تَالِئُهُمَا " ^(٢) ، ولم يقل صلى الله عليه وسلم : " لن يرونا " ، حيث أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلفتنا لفتة إيمانية إلى العليِّ الأعلى ، فقال : " مَا ظَنُّكَ يَا ثَنِينِ اللَّهِ تَالِئُهُمَا " .

أول كلمة سمعت منه صلى الله عليه وسلم بالمدينة تدعو للسلام :

يذكر صاحب مختصر السيرة ^(٣) أن أول كلمة سمعت منه صلى الله عليه وسلم كانت الدعوة الرصينة للسلام، فعن عبد الله بن سلام، قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمْتُ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، (٣/٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، (١٨٥٤/٤).

(٣) مختصر السيرة، لمغلطاي، ص (٦٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل، (٣٦٠/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب حقوق الأولاد والأهلين، (١٨٢/١١)، وابن أبي شيبه في كتاب الأدب، ما قالوا في البر وصلة الرحم، (٢١٧/٥)، انظر: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبه، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١، ١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

والجذر اللغوي لكلمة السلام يشترك في جوانب واسعة من المعاني؛ حيث السلم، والمسالمة، والعدل، وقبول الآخر، والمختلف^(١). والسلام هنا ليس وقفاً على أحد أنواعه، بل هو سلام شامل، مع النفس، ومع الآخر، ومع المجتمع، ومع كل أجناس الكون، من خلال قيم رسّخها النبي ﷺ في مستهل إقامة الدولة بمؤسساتها؛ ليصنع رسول الله ﷺ بذلك وعياً أولاً بقيمة السلام كسبيل رئيس في استقرار الوطن، ومن ثم ترجمة هذا الوعي ثانياً وتحويله لواقع عملي، يؤدي إلى أن يكون الوطن بالنسبة لكل فرد من أفرادهِ حياة، وهوية، وانتماء، وأمانة، وليس مجرد نقطة جغرافية يعيش الإنسان عليها.

وقد كان هذا هو شغل النبي ﷺ بالمدينة ابتداءً، أن يقر فيها السلام، ويخلصها من خصوماتها الداخلية، ويصلح ما بين الأوس والخزرج؛ لتنظيم دفاع فعال ضد الأعداء في الخارج.

هذه الفلسفة هي الرؤية التي يجب أن تقوم كل دولة بصياغتها برؤية عصرية شاملة ومتكاملة؛ فيتحقق من خلالها بناءً في شتى المجالات المؤسسية (الثقافية، والإعلامية، والتعليمية، والتربوية، والاقتصادية، والاجتماعية... وهكذا)^(٢).

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٣٦/٢).

(٢) الدين والدولة، د. محمد مختار جمعة، ط ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، مطابع أخبار اليوم، ص (١١٥) بتصرف.

الهجرة وبناء المؤسسات:

لقد كانت المدينة المنورة تُمَثِّلُ دولةً في طور التكوين والإنشاء، يلزمها بناء مؤسسات وتحديد سلطات وصلاحيات، ورسم سياسات وخطط، ومواجهة صعوبات وتحديات خارجية وداخلية، ولقد مثَّل التعايشُ في المجتمع المدني أهمَّ القضايا بسبب الحالة الاجتماعية التي اقتضت أن يمتزج خليطٌ متنوع ومختلف من البشر في بيئة واحدة، ولك أن تتخيل صعوبة الجمع والتعايش في ظل هذا التنوع والتمايز الكبير، والذي يمثله الآتي:

١- أصحاب الأرض الأصليون، وهم أهل المدينة "الأنصار"، وكانوا منقسمين إلى أوس وخزرج، وكان الصراع بين القبيلتين شديداً على من تكون له السيادة على المدينة .

٢- وافدون يشاركون أصحاب الأرض في السكن والتجارة والأسواق وغير ذلك وهم "المهاجرون"، الذين لم يكونوا عصابة واحدة، ولكنهم أتوا من بقاع شتى، وينتمون لقبائل وبطون مختلفة، ربما كان بينها تاريخ من الصراع والتناحر والتنافس.

٣- اليهود، وكانوا يعيشون في حصون يستقلون بها، ومعهم السلاح والعتاد، وكانوا فرقةً، وهي: قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، ويهود خيبر .

٤- هذا غير التنوع في الأصول الوافدة على المدينة، فكان فيها العرب والأحباش، والأبيض والأسود، والأحرار والعبيد، والرومي والفارسي^(١).

(١) التعايش مع الآخر في ضوء السيرة النبوية، د. علي جمعة، ص (٥٣-٥٤).

بناء المسجد من أوائل الأعمال والمؤسسات :

مما هو معلوم أن الدولة العظيمة هي التي تقوم على مؤسسات قوية، وتعمل على تقوية مؤسساتها الوطنية، وترسيخ دعائمها^(١)؛ ذلك لأن الدولة حماية، الدولة أمان، الدولة ثقة، الدولة استقرار، الدولة نظام، الدولة مؤسسات، الدولة بنى فكرية، وسياسية، واقتصادية، وتنظيمية وتشريعية^(٢).

ولقد بدأ رسول الله ﷺ بتكوين فرق العمل لبناء المسجد، والذي سوف يكون هو المؤسسة الكبرى، الذي يجمع المسلمين بفئاتهم المختلفة؛ مما يترتب على ذلك أمور كثيرة، منها :

- التآلف والتوحد والمشاركة .
 - أن يكون المسجد مقراً للقضاء بينهم في نزاعاتهم .
 - أن يكون المسجد مدرسة علمية رصينة يتعلم فيها المسلمون كل التعاليم الإيمانية من قيم وأخلاق ونظام .
- هذا بالإضافة إلى كونه مكان تأدية الشعائر والاجتماع بالنبي ﷺ، فكان المسجد إذن، وبهذا التصور، هو مجموعة من المؤسسات المختلفة، وكان مشروعاً مصيرياً جمع كلمة المسلمين في المدينة، ووحد صفهم، وصرّفهم عن كل اختلاف^(٣)؛ حيث كان داراً للفتوى، وداراً للقضاء

(١) مشروعية الدولة الوطنية، أ.د محمد مختار جمعة، ط٢، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، طبع بمطبعة

وزارة الأوقاف، ص (٣١).

(٢) المرجع السابق، ص (١٣).

(٣) التعايش مع الآخر، ص (٥٥) بتصرف.

والفصل بين المتخصصين، وداراً للتربية، وداراً للتعليم، وداراً للعبادة، وداراً للتشاور، وغيرها كثير، كما كان امتداداً للمدرسة العلمية الأولى بمكة.

الهجرة وفكرة الوطن :

لقد أسس النبي ﷺ الدولة الإسلامية من أول يوم بعد الهجرة المشرفة إلى المدينة على فكرة " الوطن " بأدق وأحدث معاني ودلالات هذه الكلمة .

ووجدنا لأول مرة في التاريخ أمة واحدة متحدة، تضم بين جناتها العربي، والفارسي، والرومي، والوثني، واليهودي، والمسيحي، والمجوسي الصابئي، وشعارهم جميعاً تحت راية الإسلام : الدين لله، والوطن للجميع^(١) .

إن حب الوطن فريضة، وإن الانتماء إليه شرف، وإن الولاء للأمة من شعب الدين وشعائر الحق، به نتعاون ونتضامن، ونتألف ونتكاتف، ونتوحد ونتماسك ؛ ولذا جاءت كل شرائع السماء تحض عليه وتدفع إليه، وترفض تقطيع الأمة وتمزيقها، وإثارة الفرقة بينها، وترويع الآمنين من أبنائها ؛ وذلك حتى يظل المجتمع كله ماضياً في درب الحق، سالكاً سبيل الصدق، منتمياً إلى وطنه، محبباً له، عاملاً من أجله، مرتهاً على خيره ونفعه، حركته وسكونه وليله ونهاره، وحياته وموته، وعاداته وعبادته^(٢) .

(١) زاد المسلم للدين والحياة، د محمد عبد الله دراز، ط ٣، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م، دار القلم للنشر والتوزيع - القاهرة، ص (١١٧-١١٨) بتصرف.

(٢) الانتماء واجب ديني وضرورة وطنية، طبعة وزارة الأوقاف ١٩٩٢م، ص (٧).

إن انتماء الإنسان لوطنه يتحقق بإرساء قيم حب الوطن والدفاع عنه، والعمل على دفعه نحو التقدم؛ ليكون له مكان في هذا العالم الذي لا يعرف توقفاً.

فقد كان النبي ﷺ واقفاً وهو على راحلته بالحزورة (موضع بمكة)، يقول: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"^(١).

وقد جاء في حديث أصيل الغفاري أنه قدم من مكة، فسأته عائشة كيف تركت مكة يا أصيل؟ فقال تركتها حين ابيضت أباطحها، وأحجن ثمامها، وأغدق إذخرها، وأمشر سلمها، فأغرورقت عينا رسول الله ﷺ وقال " لا تُشوفنا يا أصيل "^(٢).

ثم لما هاجر ﷺ إلى المدينة واستوطن بها، أحبها وألفها كما أحب مكة، بل كان يدعو أن يرزقه الله حبها كما في صحيح البخاري: "اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا، وفي مدنا، وحوّل حماها إلى الجحفة"^(٣)، ودعا ﷺ بالبركة فيها وفي بركة

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب المناسك، باب فضل مكة، (٢٨٩/٤)، والترمذي في أبواب المناقب، باب في فضل مكة، (٢٠٧/٦)، وأحمد، (١٠/٣١).

(٢) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط١، ١٢٤٢هـ/٢٠٠٣م، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، باب فضائل المدينة، ما جاء في وباء المدينة، (٣٦٤/٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تُعرى المدينة، (٢٣/٣)، ومسلم في كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، (١٠٠٣/٢).

رزقها كما دعا إبراهيم لمكة. ونلاحظ أن حبَّ النبي متأثر بالبيئة التي عاش فيها، فقد كان يحب مكة ويحن إليها، ثم لما عاش في المدينة وألفها أصبح يدعو الله أن يرزقه حبًّا لها يفوق حبه لمكة، ودعا لها بالأمن والرزق وهما سبيلا حفاظ وأمن أي وطن .

وكذلك كان رسول الله إذا خرج من المدينة لدفع عدوٍّ أو نحوه تحركت نفسه إليها ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا ^(١) . معنى حركها : أي من حبها ، فالإسلام إذن ليس عقيدة دينية فقط، ولا نظامًا أخلاقيًا فحسب .

وهكذا ينبغي أن يستحضر كلُّ إنسان منا قيمة وطنه الذي يعيش فيه، وينفعل له بالمحبة والانتماء والرد، محبة تدفعه دفعًا لأن يكون ساعدًا حقيقيًا لبناء وطنه، والانتماء لكل ما من شأنه أن يكون سببًا لتقدمه، والردُّ لكل شيء يكون سببًا في تخلفه وتأخره أو تمزقه وتفراقه .

وثيقة المدينة وفقه المواطنة:

لا شك أن أي دولة في العالم إنما تسعى لتقنين وتحديد الأسس والقواعد والنظم التي تضبط حركة مواطنيها، وتبين حقوقهم وواجباتهم داخل مجتمعهم، هذه القواعد والنظم هي التي تكون أساسًا رئيسًا في رسم علاقات المواطنين مع بعضهم البعض من جهة، وعلاقتهم بالدولة ومؤسساتها من جهة ثانية، وهو ما يمكن أن نسميه بلغة العصر (المواطنة) .

(١) أخرجه البخاري في أبواب العمرة ، باب مَنْ أَسْرَعَ نَاقَتَهُ إِذَا بَلَغَ الْمَدِينَةَ، (٧/٣) .

لقد رسّخ رسول الله ﷺ (المواطنة) في أسمى معانيها حينما هاجر إلى المدينة، ووضع أول دستور للدولة المدنية في العالم؛ ليكون بذلك سابقاً كل النظم العالمية، حدّد من خلاله الملامح الرئيسة لدولة الإسلام حيث إن هذه الوثيقة تعبر عن مجموعة من القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها .

من فقه الوثيقة (1) :

- التعايش السلمي بين الجميع، ووجوب الدفاع عن الوطن، والنصرة تكون في الحق والعدل، لا في الظلم والإثم .
- توفير الأمن للجميع ، فالإنسان آمن في حرية اختياره، فمن رضي بالوثيقة وعقدها فهو آمن، ومن رفضها واعترض عليها فهو آمن أيضاً، لا يضطهد، ولا يعتدى عليه، ولا يُنقص حقاً وجب له .
- الإنسان حرٌّ في انتقاله من المدينة، وحرٌّ في إقامته فيها، ينعم بما ينعم به أهلها من حقوق، ويتحمل مثل ما يتحملون من المسؤوليات والواجبات، له ما لهم وعليه ما عليهم .
- إقرار مبدأ المسؤولية الفردية ، فكل إنسان يتحمل مسؤولية جرمه وما كسبه، يُسأل عنه ويؤاخذ به، ولا يحل مؤاخذاً الجماعة بجريمة الفرد. وقد ظهر ذلك في نص الوثيقة من خلال بنود عديدة، منها :
 - أنه لا يكسبُ كاسبٌ إلا على نفسه .
 - وإن الله على أصدق ما في هذه الصّحيفة وأبرّه .

(1) انظر: التعايش مع الآخر، د . علي جمعة ، ص (٦٤-٦٦).

• وَإِنَّهُ لَمْ يَأْتُمْ أَمْرٌ يُحْلِيهِ .

• وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ .

- كما نصّت الوثيقة على قاعدة المسؤولية الجماعية بمعنى أن الدولة كلها مسؤولة عن محاصرة الظالم أو الجاني ومحاكمته، والحرص على نواله العقاب على ما اقترف من الجرم .

- وحلّت الصحيفة تشابك العلاقات الإنسانية، فهناك علاقة القرابة والدم، وهناك علاقة الدين، وهناك علاقة الجوار، وهناك علاقة المصالح المشتركة، فإن عاشت هذه العلاقات جميعها في وئام وتوافق استطاع الإنسان أن يحقق التعايش والسلام الاجتماعي .

- الكرامة الإنسانية حق لكل إنسان ؛ حيث قالت الوثيقة : (الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم)، فمن لم يدخل في المعاهدة أو الوثيقة فهو جار لأهلها لا يصيبه ضرر ولا إثم .

- سنّت الوثيقة سنة (التكافل) بين أفراد الأمة في مختلف الميادين، سواء كانت تلك الميادين مادية أو دنيوية، فالأمة متكافلة ومتضامنة في "الحق"، فجاء في نص الوثيقة: (وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ)، وهي متكافلة ومتضامنة في المساواة القانونية (وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ)، الأمر الذي يعني رفض "الطبقية" الجاهلية، عرقية كانت أو اجتماعية.

إن فلسفة هذه الوثيقة إنما تقوم على رعاية مصالح أفراد الوطن، من حيث كل ما يحقق الأمن والأمان والاستقرار، ويعمل على تحقيق العمارة، وسعادة البشر، ونبذ كل ما يؤدي إلى الظلم أو الفساد أو

التخلف، فوضع ﷺ الأسس والمعايير الرصينة التي تضمن تحقيق ذلك، مع بيان أنه إذا أصابها الخلل أدى ذلك إلى الاضطراب وعدم الاستقرار^(١).

وحيث إننا قمنا بتوصيف سابقٍ ودقيقٍ للتنوع البشري في العقائد والعادات والأجناس لسكان المدينة، فقد أسس النبي ﷺ بهذه الوثيقة مجتمعاً واحداً جعل من خلالها كلَّ سكان المدينة شركاء في نظام سياسي واحد، يضمن لهم حقوقاً متساوية، ويستظلون جميعهم بحماية الدولة، وذلك في مقابلة أداء واجباتهم من حيث الدفاع عن وطنهم .

لذا فقد وقَّع على هذه الوثيقة سكان المدينة كلهم، ورضوا بها دستوراً حاكماً بينهم ؛ لما وجدوه بها من عدل ومساواة^(٢) .

الوحدة الإنسانية وقبول التعددية :

إن الإسلام دين الوحدة، كما هو دين الوحدانية، فإذا كان شعار الإسلام الخالد إلى يوم القيامة هو وحدانية المعبود، ووحدانية الخالق، ووحدانية الذات الإلهية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣)، فكذلك أحكام الإسلام كلها تتجه نحو الوحدة، والتي منها أحكام التنظيم

(١) فلسفة الحرب والسلم والحكم، د. محمد مختار حمعة، ط ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، المجلس

الأعلى للشؤون الإسلامية، ص (٥٣) وما بعدها بتصرف.

(٢) التعايش مع الآخر، ص (٦٠) .

(٣) سورة الشورى: الآية رقم (١١) .

الإنساني العام، فالإسلام بأحكامه وشرائعه يدعو إلى الوحدة الإنسانية، لا فرق بين جنس وجنس، ولا لون ولون، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١).

ولقد صرح القرآن الكريم بالوحدة الإنسانية، وأن من غايات الأديان السماوية إحياء هذه الوحدة وإزالة الأحقاد، والقضاء على أهل الشر الذين يسعون في الأرض مفسدين، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

علاقة الإسلام بالأديان الأخرى :

لا بد وأن ندرك أن علاقة الإسلام بالأديان الأخرى إنما تتسم بطابع الإنصاف والتبصير، فهي من ناحية علاقة تصديق وتأيد كلي في صورتها الأولى، ومن ناحية ثانية هي علاقة تصحيح لما طرأ من إضافات غريبة عنها في صورتها المنظورة .

ومن هنا فالإسلام ليس فاتراً أو منطوياً على نفسه ؛ ولأجل ذلك وجدنا الآيات القرآنية تحرص على حث المسلمين على الدعوة والعمل الصالح،

(١) سورة الحجرات : الآية رقم (١٣) .

(٢) سورة البقرة : الآية رقم (٢١٣) .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١)، وقال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢).

كما أن الإسلام ليس عنيفاً ولا محارباً ، ولا من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضاً ؛ يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ^{وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} ﴾^(٣)، ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤)، ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾^(٥).

ومن هنا نشأت القاعدة المحكمة المبرمة في القرآن، قاعدة حرية العقيدة، تتجلى في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(٦) ؛ ولأجل ذلك رسم القرآن الكريم أسلوب الدعوة ومنهاجها، فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفقٍ ولين، يقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^{وَجِدْ لَهُمْ بِلَاتِي هِيَ أَحْسَنُ} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٧).

(١) سورة فصلت : الآية رقم (٣٣) .

(٢) سورة آل عمران : الآية رقم (١٠٤) .

(٣) سورة هود : الآية رقم (١١٨) .

(٤) سورة يوسف : الآية رقم (١٠٣) .

(٥) سورة يونس : الآية رقم (٩٩) .

(٦) سورة البقرة : الآية رقم (٢٥٦) .

(٧) سورة النحل : الآية رقم (١٢٥) .

على أن الإسلام لا يكتفي بمجرد النصح فقط، أو بمجرد الالتزام بموقف سلمي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل إن الإسلام يتقدم إلى الأمام، فيرسم خطوات إيجابية يكرم بها الإنسانية في شخص غير المسلمين .

وهذا ما قام به النبي ﷺ تطبيقاً وواقعاً ملموساً؛ حيث تحرك بالتعاليم الإيمانية، وأقام مجتمعاً واحداً، هو مجتمع المدينة، فعندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة وجد بها يهوداً توطنوا، ومشركين مستقرين، وأعراباً، وغيرهم، فلم يتجه بفكره ﷺ إلى رسم سياسة للإبعاد أو الإقصاء أو المصادرة أو الخصام .. بل دعا ﷺ إلى التعاون الخالص - بين الأطياف المختلفة في الدولة -؛ لنشر السكينة في ربوعها، والضرب على أيدي العادين ومدبري الفتن أيّاً كان دينهم .

فهل ترى أعدل وأرحم، وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الرصينة، التي لا تكتفي بأن تكفل لغير المسلمين في الدولة حرية العقيدة والعادات، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من الحقوق العامة، وفق قاعدة: " لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا "، ولا شك أن هذا يؤكد على حفظ دمه وعرضه وماله.

ثم هل ترى أوسع أفقاً، وأرحب صدرًا وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والتعايش السلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التي لا تكتفي بأن تجعل هذه العلاقة محددة في مبادلة السلم

بالسلم فقط، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّيْرِ فَاجْحَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١)، بل تندب المسلمين إلى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر، وعدل وقسط، ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَنُقِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢).

ليس هذا هو كل شيء في تحديد الموقف الإنساني النبيل الذي يفقه الإسلام عملياً من غير أتباعه، بل إن الإسلام لا يكف لحظة واحدة عن مديده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة في سبيل التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تُنتهك، ولو على شروط يبدو فيها الإجحاف، فهذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام يقرره النبي ﷺ ورسول السلام بمجرد دخوله المدينة وإقامة الدولة الإسلامية وفق هذا الفهم المنير للمراد الإلهي، المبين من خلال رسوله ﷺ^(٣).

التعددية تدافع لا صراع :

إن الإسلام ينحاز إلى فلسفة التعددية كروية كونية، فالواحدية هي فقط للذات الإلهية، وما عداه سبحانه وتعالى يقوم على التعدد والتساند والتوازن والارتقاء .

(١) سورة الأنفال : الآية رقم (٦١) .

(٢) سورة الممتحنة : الآية رقم (٨) .

(٣) حصاد القلم ، د/ محمد عبد الله دراز ، تحقيق : أحمد مصطفى فضلية ، ط٢،

١٤٣٩هـ/٢٠١٧م ، دار القلم - القاهرة ، ص (٣٦٨-٣٧١) بتصرف .

ومن هنا وبإدراك عميق من رسول الله ﷺ كانت هذه الرؤية النبوية التي تؤسس للدفاع لا للصراع ؛ بناء على أن التعددية هي سنة إلهية وقانون كوني في كل شيء، فأراد رسول الله ﷺ أن يصنع حضارة عميقة بناء على فقه التعددية لا أن تكون هناك حضارة واحدة تصارع غيرها من الحضارات .

المواطنة بناء أخلاقي وإنساني متكامل :

لقد جاء الإسلام ليؤسس وليؤصل البناء الأخلاقي في المقام الأول، جاء ليحقق إنسانية الإنسان، جاء ليؤكد على أن الإنسان ينبغي أن يعيش مادية الأرض بقيم السماء، جاء الإسلام يدعوا إلى المحبة والمودة، والتعاون والتآلف والتعاطف، ومعلوم أن بناء الأمم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبناء الأخلاقي، وأن انهيار الأمم يرتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بانهيار الأخلاق، فأمة بلا أخلاق ماذا ننتظر منها ؟

فكل من يبذر بذور الفتنة، ويفرق بين أفراد الأمة، ويمشي بالنميمة، والغيبة، والخوض في أعراض الغير، كأنه يمسك بيده معول (فأس) يهدم به البنيان الذي جاء الإسلام ليقيمه، وكأنه ينسف الإنسان قِيَمًا وَأَخْلَاقًا وَرُوحًا .

إذا كانت الحروب والأزمات والكوارث تستهدف الإنسان بأسلحتها الفتاكة، فإنما تستهدف الإنسان كجسد، لكنَّ هناك حرباً أخرى أشد فتكاً وهي حرب الشائعات والفتن وضرب التلاحم الإنساني الذي أراده

الإسلام للإنسانية، إنها حرب تستهدف الإنسان ليس باعتباره جسداً وإنما باعتباره قيماً وروحاً ، ونحن نعلم أن الإنسان لا يقاس أبداً بطول قامته، أو بقوة عضلاته، أو بجمال صورته، وإنما يقاس بقلبه وعقله .

إن من ضرورات الحفاظ على المواطنة والوحدة الوطنية ودفع الفتنة : الوسطية والاعتدال ، والتسامح والواقعية ، والاجتهاد العقلاني، وروح التسامح والسلام في العيش المشترك بين الجميع.

إننا يجب علينا في كل زمان ومكان أن نعمل على تعزيز مفهوم المواطنة والوحدة الوطنية، فإنها مقتضيات الوحدة الوطنية لهي مما يقصدها الإسلام ويدعو إليه، كالمحافظة على أمن البلاد، واحترام النفس الإنسانية - مطلق النفس - والمحافظة على أرواح الناس وعلى أموالهم وعلى أعراضهم، والعمل على حماية ثروات الوطن ومقدراته، والمساواة والعدل بين جميع المواطنين، ومدافعة الظلم، وهذا كله يدخل في باب التعاون على البر والتقوى .

* * *

الفصل الثاني فقه السيرة النبوية وحل المشكلات

من فقه تصرفات النبي ﷺ:

لقد اتسم النبي ﷺ في تناوله للمشكلات التي سيواجهها المجتمع الناشئ في المدينة بذكاء عجيب ، وبنفسية منزّهة عن الخطأ ، وبإرادة لا يعترها أي وهن ، وبإخلاص مطلق^(١)، حيث أظهر النبي ﷺ عبقرية ذات رحابة لا مثيل لها ، مستهدياً فيها بالوحي المشرف .

ولا شك أن رسول الله ﷺ كان له الكثير من التصرفات أثناء بناء الدولة، وهذه التصرفات لها آثارها المختلفة في الشريعة والأحكام. فأما تصرفه ﷺ باعتبار النبوة والتبليغ، فهو مقتضى الرسالة، والرسالة هي أمر الله تعالى له بذلك التبليغ . ومعنى ذلك أنه ﷺ ينقل عن الحق للخلق في مقام الرسالة ما وصل إليه ، فهو في هذا المقام مبلغٌ وناقلٌ عن الله تعالى .

وهذا التصرف يؤخذ على النحو الذي بينه ﷺ للأمة، ولا يختلف أمر البيان فيه باختلاف الزمان أو المكان ؛ لأنه من الأمور الثابتة، سواء اتصل بأمر الفرائض، كصوم رمضان، والصلاة، والزكاة، والحج، أم اتصل بأمر السنن الثابتة عنه ﷺ كصوم عرفة أو صوم عاشوراء^(٢) .

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ط١، ١٩٥٨م، دار الجهاد ، القاهرة ، ص (١٠٣-١٠٤) بتصرف.

(٢) الفهم المقاصدي للسنة ، د. محمد مختار جمعة، ط٣، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، مطابع وزارة الأوقاف ، ص (٦٤) .

وأما تصرفه ﷺ باعتبار الفتيا، فهو إخباره عن الله تعالى بما يجده في الأدلة من حكم الله تبارك تعالى .

وأما تصرفه ﷺ باعتبار الحكم والقضاء، فهو مغاير للرسالة والفتيا؛ لأن الفتيا والرسالة تليغ محض واتباع صرف، والحكم إنشاء وإلزام من قبله ﷺ بحسب ما يسح من الأسباب والحجاج؛ ولذلك قال ﷺ: " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ " (١).

فدل ذلك على أن القضاء يتبع الحجاج وقوة اللحن بها، فهو ﷺ في هذا المقام منشيء، وفي الفتيا والرسالة متبع مبلغ، وهو في الحكم أيضا متبع لأمر الله تعالى له بأن ينشيء الأحكام على وفق الحجاج والأسباب، لا أنه متبع في نقل ذلك الحكم عن الله تعالى، لأن ما فوض إليه من الله تعالى لا يكون منقولا عن الله تعالى.

وأما تصرفه ﷺ باعتبار الإمامة، فهو وصف زائد على النبوة والرسالة والفتيا والقضاء؛ لأن الإمام هو الذي فوضت إليه السياسة العامة في الخلائق، وضبط معاقد المصالح، ودرء المفاسد، وقمع الجناة، وقتل الطغاة، وتوطين العباد في البلاد، إلى غير ذلك مما هو من هذا الجنس. وهذا ليس داخلا في مفهوم الفتيا ولا الحكم ولا الرسالة ولا النبوة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب مؤعظة الإمام للخصوم، (٦٩/٩)، ومسلم في كتاب الأفضية، باب الحكم بالظاهر، واللحن بالحنة، (١٣٣٧/٣).

آثار تصرفات النبي ﷺ وكيفية التعامل معها :

وبناء على إدراك وتصور جهة تصرفات النبي ﷺ ، تتضح آثار هذه التصرفات، وكيفية التعامل معها، وذلك كالاتي :

- ما فعله ﷺ بطريق الإمامة ، كقسمة الغنائم، وتفريق أموال بيت المال على المصالح، وإقامة الحدود، وترتيب الجيوش، وقاتل البعثة، وتوزيع الإقطاعات في القرى والمعادن، ونحو ذلك: فلا يجوز لأحد الإقدام عليه إلا بإذن إمام الوقت الحاضر؛ لأنه ﷺ إنما فعله بطريق الإمامة، وما استُبيح إلا بإذنه، فكان ذلك شرعاً مقررًا لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١).

ومثال ذلك: قوله ﷺ: " مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً، فَهِيَ لَهُ " ^(٢)، فقد قال الإمام أبو حنيفة: هذا منه ﷺ تصرف بالإمامة، فلا يجوز لأحد أن يحيي أرضاً إلا بإذن الإمام؛ لأن فيه تمليكاً، فأشبهه الإقطاعات، والإقطاع يتوقف على إذن الإمام، فكذلك الإحياء.

وعليه فلا يجوز لأحد أن يضع يده على قطعة أرض، ثم يقول: أحييتها، فهي لي، وبيني وبينكم حديث رسول الله ﷺ؛ وذلك لأن تصرف النبي ﷺ هنا ليس من جهة أنه مبلغ، بل من جهة كونه إماماً وحاكماً، ولا يجوز لغير الحاكم إصدار مثل هذا القرار المتعلق بالحق العام، أو المال العام، أو الملك العام، وإلا لصارت الأمور إلى الفوضى

(١) سورة الأعراف: آية قم (١٥٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في إحياء الموات، (٦٨٠/٤).

وفتح أبواب لا تسد من الفتن والاعتداء على الملك العام (١).

- ما فعله ﷺ بطريق الحكم والقضاء، كالتمليك بالشفعة، وفسوخ الأنكحة والعقود، والتطليق بالإعسار عند تعذر الإنفاق والإيلاء والفيئة، ونحو ذلك: فلا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم الحاكم في الوقت الحاضر؛ اقتداءً به ﷺ؛ لأنه ﷺ لم يقرر تلك الأمور إلا بالحكم، فتكون أمته بعده ﷺ كذلك.

ومثال ذلك: قوله ﷺ في قضية الخلع، حين أتته امرأة ثابت بن قيس، فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، مَا أَعْتَبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟" قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اقْبَلِ الْحَدِيثَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً" (٢).

- وأما تصرفه ﷺ بالفتيا والرسالة والتبليغ، فذلك شرعٌ يتقرر على الخلائق إلى يوم الدين، يلزمنا أن نتبع كل حكم مما بلغه إلينا عن ربّه بسببه، لأنه ﷺ مبلغٌ لنا ارتباط ذلك الحكم بذلك السبب، وحلّى بين الخلائق وبين ربّهم، ولم يكن منشأً لحكمٍ من قبّله ولا مرتباً له برأيه على حسب ما اقتضته المصلحة، بل لم يفعل إلا مجرد التبليغ عن ربّه كالصلوات والزكوات وأنواع العبادات وتحصيل الأملاك بالعقود وغير ذلك من أنواع التصرفات: لكلٍّ أحدٍ أن يباشره ويحصل سببه، ويترتب له حكمه.

(١) الفهم المقاصدي للسنة، د. محمد مختار جمعة، ص (٦٦،٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، (٤٦/٧).

ولأجل ذلك وبناء على ما سبق، فقد ذكر الإمام القرافي تقسيماً رائعاً للوقوف على جهة تصرفات النبي ﷺ، وبيان أثر هذه التصرفات، فقال^(١): فاعلم أن تصرفه - عليه الصلاة والسلام - ينقسم إلى أربعة أقسام:

١. قسم اتفق العلماء على أنه تصرف بالإمامة، كالإقطاع، وإقامة الحدود، وإرسال الجيوش، ونحوها.
٢. قسم اتفق العلماء على أنه تصرف بالقضاء، كالزام أداء الديون، وتسليم السلّع، ونقد الأثمان، وفسخ الأنكحة، ونحو ذلك.
٣. قسم اتفق العلماء على أنه تصرف بالفتيا كإبلاغ الصلوات، وإقامتها، وإقامة المناسك، ونحوها.
٤. قسم وقع منه ﷺ مُتَرَدِّدًا بين هذه الأقسام، اختلف العلماء فيه على أيها يُحمَلُ؟.

الرسول ﷺ وحل المشكلات :

لقد كانت مهمة النبي ﷺ شاقة وصعبة، ولا سيما في ذلك المجتمع البدوي والبدائي الغارق في الضلالة، فتناول رسول الله ﷺ مشاكل هذا المجتمع مشكلة ومشكلة ومعضلة ومعضلة، وبدأ يفك عقدها ويحل مصاعبها، فأوصل المجتمع إلى شاطئ الاطمئنان وإلى ساحل السلامة .

(١) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (٩٩/١) وما بعدها.

وما كان ذلك إلا لأن الحلول التي وضعها رسولُ الله ﷺ، لم تكن تهتم فقط بجانبٍ دون جانبٍ، إنما كانت تشمل كلَّ جوانب الحياة المختلفة (الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والوطنية، والعسكرية، والتعليمية،... الخ).

المشكلة الاقتصادية:

إن المتأمل لحياة رسول الله ﷺ يجد أنه بيّن المقومات الأساسية للاقتصاد من الزراعة والتجارة والصناعة، والتي من شأنها أن تضمن للأمة حياة طيبة، لا تضيق فيها الأرزاق ولا تُهدر فيها الأموال، فقد علّمنا رسول الله ﷺ - وقبل أربعة عشر قرناً - ما يجب علينا فعله ليتحقق لنا التوازن الاقتصادي، وقام بتوجيهنا نحو التجارة والزراعة والصناعة وسبل العيش؛ للوصول إلى الإنتاج الرصين المشمول بقيمة الإتقان وتمايز الصناعات، بما يحقق التنمية الاقتصادية وبالتالي الاستقلال الاقتصادي، ومن يقرأ بعمق سيرته ﷺ، يظهر له ذلك من خلال هذه الحلول، والتي منها:

- الترشيد في الإنفاق والنهي عن الترف في المال وإهداره فيما لا ينفع، وهذا ما عبّر عنه الشرع بأنه من المكروهات في قول النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"^(١)، "فتبديد الفرد ثروته هكذا هباءً منثوراً فيما لا ينفع هو مرض يصيب المجتمع كله؛ ذلك لأن ثروة الفرد هي في حقيقتها جزء من ثروة المجتمع، ومن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، (٢٦٥٩/٦)، ومسلم في كتاب القضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، (١٣٤٠/٣).

ثم فإن تبيدها وإضاعتها يضر بالمجتمع ويضر بالبلد ككل ، ويصيبها بالكساد الاقتصادي .

- الاعتماد على الذات، من خلال استخدام الجوارح والمواهب والقدرات والإمكانات التي وهبها الله ﷻ للإنسان وتوجيهها لطلب الرزق، فهذا هو رسول الله ﷺ كان يعمل بالتجارة في مال السيدة خديجة -رضي الله عنها-، وقبل ذلك كان ﷺ يرعى الغنم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ"^(١)، وقد بين رسول الله ﷺ ثواب ذلك وأنه في سبيل الله ، حيث أخرج الطبراني عن كعب بن عجرة ﷺ قال: مرّ على النبي رجل ، فرأى الصحابة من قوته ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: "إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صَغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبْوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعْفُهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ"^(٢).

- القدرة على الابتكارات والاختراعات ، فإذا كان الاعتماد على الذات يفيد ألا تكون عالية على غيرك، فيكون زمامُ أمرِك بيده، فإنه لا بد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة ، باب رَعَى الْغَنَمِ عَلَى قَرَارِيطَ ، (٨٨/٣) ، وأحمد في مسنده: (٤١٠/١٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، (٥٦/٧) .

من تقديم الخبرات والتجارب التي ترقى بالأمة في هذا الجانب الحيوي (الجانب الاقتصادي)، فعن رافع بن خديج، قال: قيل: يا رسول الله، أيُّ الكسب أطيب؟ قال: "عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ يَبْعٍ مَبْرُورٍ: (١)، وقد أخرج البخاري من حديث المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ (٢)، وفي رواية: " إِنْ أَطِيبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ " (٣) .

- النهي عن البطالة والتأكيد على توجيه الطاقات نحو العمل، فإن رسول الله ﷺ قد حثَّ على العمل والسعي وطلب الرزق بعزّةٍ وشرفٍ؛ ولأجل ذلك نبّه ﷺ أمته، فقال: " لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُرْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْتَنِعَهُ " (٤)، والمعنى: لأن يذهب الرجل إلى الغابة فيقطع الحطب، ويجمعه ويحمله على ظهره، ثم يأتي السوق فيبيعه، أشرف وأكرم له من أن يمدَّ يده لغيره، سواء أعطاه أو منعه، فإن منعه فقد أهانه، وإن أعطاه فقد منَّ عليه، فالأصل تعليم المهن والصناعات والحرف الشريفة المختلفة.

- (١) أخرجه أحمد في مسنده: (٥٠٢/٢٨)، والطبراني في المعجم الأوسط، (٤٧/٨) .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ: (٥٧/٣)، وأحمد في مسنده، (٤١٨/٢٨) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في أبواب التجارات، باب مَا لِلرَّجُلِ مِنْ مَالٍ وَوَلَدِهِ، (٣٩٠/٣)، وأحمد في مسنده، (٢٣٢/٦) .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ، (٥٧/٣) .

- النهي عن التسول، فقد جاءت التعليمات النبوية تدعو كل إنسان أن يكون عزيز النفس، يُحَقِّقُ كَرَامَتَهَا وَيَعْفَى عَنِ السُّؤَالِ بِالْعَمَلِ وَجَلِبَ الْأُرْزَاقَ، وقد قال رسول الله ﷺ: " لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ " (١)، وقد قال الإمام النووي (رحمه الله): قِيلَ: مَعْنَاهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَلِيلًا سَاقِطًا لَا وَجْهَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَقِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ فَيُحْشَرُ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ لَا لَحْمَ عَلَيْهِ عُقُوبَةٌ لَهُ وَعَلَامَةٌ لَهُ يَذْنِبُهُ حِينَ طَلَبَ وَسَأَلَ بِوَجْهِهِ ... وَهَذَا فِيمَنْ سَأَلَ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ سُؤَالًا مِنْهَا عَنْهُ وَأَكْثَرَ مِنْهُ (٢).

- رفض الإسلام للبطالة المقنّعة، فهي أحد الأسباب الرئيسة لتأخر البلاد اقتصاديًا، كما أن فيها أيضًا الحصول على الأموال بالباطل، والإسلام هنا من خلال التطبيقات النبوية في عصر الرسالة، يؤكد على كل عامل في عمله، أن يحرك الأعمال المعطّلة، فتتسارع الأعمال، فتُنَجَزُ، فيكون هناك إنتاج يكفي حاجيات الناس، وربما يكون هناك فائض فيتم تصديره، بما يعود بالنفع والدخل على الدولة، وبالتالي يكون ذلك دفعًا لعجلة الاقتصاد فيها، فيعود بالخير على الجميع.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، بَابُ كَرَاهَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ، (٢/٧٢٠)، وأحمد في مسنده (١٤١/٥).

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ط ١٣٩٢/٢هـ، تحقيق: دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٧/١٣٠).

- تكريم العمل والعمال ، ويتجلى ذلك في كثير من أحاديثه ﷺ والتي منها : " إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ " (١) ، وقد بيّن رسول الله ﷺ أن الله ﷻ قد جعل لكل من سعى وعمّر الأرض ثوابًا وفيرًا، فله بكل مَنْ أَكَلَ مِنْ أَرْضِ زَرْعِهَا صدقةً، ومعلومُ ثواب الصدقة وما فيها من مداواةٍ للأمراض، وجعل صاحبها واحدًا من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم والسنة المشرفة .

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ. " (٢)، وفضل هذا العمل وأثره الباقي حتى بعد الممات أخرج الإمام أحمد عن أنس أن النبي ﷺ قال: " إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا " (٣) .

فرسول الله ﷺ من خلال كل هذه التوجيهات وغيرها يدعو الأمة إلى التنمية، والتقدم، والنمو، وبناء كيان اقتصادي لها تواجه به كلَّ

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ، (٢٧٥/١) حديث رقم (٨٩٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، (٣١٩/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المزارعة ، بَابُ فَضْلِ الزَّرْعِ وَالغَّرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ ، (١٠٣/٣) ، ومسلم في كتاب المساقاة ، بَابُ فَضْلِ الغَّرْسِ وَالزَّرْعِ ، (١١٨٩/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (باب اصطناع المال)، انظر : الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، دار البشائر الإسلامية، بيروت، (١٦٨/١) .

الصعاب، وتلبي من خلاله كل حاجياتها، لقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١).

إن استخراج هذه المعايير التي أخبرنا عنها ربنا (جل وعلا) يحتاج إلى مجتمع يعمل بكل طاقاته، فيعود نفعها على المجتمع كله، وهذا هو معنى التنمية الاقتصادية التي من خلالها نعلم أجيالنا مهناً وصناعاتٍ وحرماً متنوعةً ليكونوا أدواتٍ حقيقيةً للتنمية الاقتصادية، ولن يتأتى ذلك إلا بالعمل وزيادة الإنتاج؛ لنكون في مصاف الدول المتقدمة، وهذا ما أراد النبي ﷺ أن يؤسس عليه الأمة في سائر توجيهاته التي تتعلق بالبناء الاقتصادي.

قيمة العمل والإنتاج :

هي قيمة من خلالها أراد النبي ﷺ أن يُنتجَ أجيالاً يحملون رايات التقدم في كل اتجاه، فتتمايز الصناعات والمهن والحرف، فتتقدم الأمة . ومن ثم جاءت التوجيهات والتعليمات النبوية المشرفة، التي تدعو إلى أن يكون كلُّ إنسان عضواً فاعلاً في مجتمعه وفي أمته ، بأن يكون منتجاً ، بأن يكون أداةً من أدوات صناعة الجمال في الكون ، وذلك بالمشاركة في إعمار الأرض وتنميتها بالزراعة والتجارة والصناعة وبناء المصانع، وإقامة الشركات المنتجة التي تلبي حاجيات الناس وضرورياتهم، كما دعت أيضاً بالأفراد أن يكون الإنسان أداةً من أدوات صناعة

(١) سورة الأعراف: آية رقم (١٠).

القبح بأن يكون كسولاً راكداً متسولاً لغير حاجة، وقد نبّه القرآن المجيد على أهمية العمل، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وتبرز لنا أحداث السيرة النبوية تربية الرسول ﷺ لأصحابه على العمل وتوجيههم إليه، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: لَمَّا قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ مُهَاجِرًا، آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ. فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: لِي مَالٌ فَنِصْفُهُ لَكَ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَانظُرْ أَحَبَّهُمَا إِلَيْكَ حَتَّى أُطَلِّقَهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا تَزَوَّجْتُهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ؟

قَالَ: فَمَا رَجَعَ يَوْمَئِذٍ حَتَّى رَجَعَ بِشَيْءٍ قَدْ أَصَابَهُ مِنَ السُّوقِ.
قَالَ: وَفَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيَّامًا، ثُمَّ أَتَاهُ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ صُفْرَةٌ.
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَهِيمٌ؟ "
قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ.
قَالَ: " مَا سُقَّتْ إِلَيْهَا؟ "
قَالَ: نَوَآةٌ مِنْ ذَهَبٍ، - أَوْ قَالَ: وَزَنَ نَوَآةٍ مِنْ ذَهَبٍ - .
قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ " ^(٢).

(١) سورة التوبة: آية رقم (١٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب إحصاء النبي ﷺ بين المهاجرين، والأنصار (٣١/٥)، وأحمد في مسنده، (٣٨٤/٢٠) .

وهكذا يترجم لنا عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه تربيةَ النبي صلى الله عليه وسلم له وللصحابة على التدافع والعمل والسعي، وأن يكونوا منتجين نافعين لمجتمعهم، فيذهب إلى السوق ويبدأ في التجارة وطلب الأرزاق .

فقه المراقبة الداخلية وقيمة الإتقان:

إن من الحقائق الآكدة: أن بناء الأمم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقيمة الإتقان، وعلى العكس انهيار الأمم والحضارات يرتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بعدم الإتقان .

ولأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يريد للأمة الارتقاء والتحضر فقد وجهها بالنظر إلى ما يُفعل ويسخر لها، وأن نتعامل معه حتى ينفعلَ لنا، فالأصل أن ينفعلَ كلُّ إنسانٍ بما وهبه الله صلى الله عليه وسلم من أسبابٍ في نفسه وفي الكونِ مِنْ حَوْلِهِ؛ ليؤدي بذلك طريقاً من طرق الارتقاء بالمجتمع، والاستفادة بما هو موهوب له في صناعة حياة طيبة له ولمجتمعه ولأتمته؛ ولذلك كانت مطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتقن الإنسان عمله: " إِنْ اللَّهَ يُجِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَقَّنَهُ"^(١).

والكمال في الإتقان يتحقق بالتزام الأمانة في العمل، فلا غش ولا خداع ولا تزيف ولا حيلة، فالعبادات ليست شعائرية فقط، بل العبادات

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: (٢٧٥/١) حديث رقم (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، (٣١٩/٤)، ومسند أبي يعلى، لأبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، دار المأمون للتراث، دمشق، (٣٤٩/٧).

شعائرية وتعاملية، ولا تصح العبادات الشعائرية بدون التعاملية، فكن أميئًا، متقنًا، صادقًا، وهكذا فلا بد من تمثل الأخلاق المحمودة في العمل؛ لنجد إنتاجًا قويًا يدفع عجلة الاقتصاد ، ويترتب عليه دخل قومي يكفيينا . ومن هنا فإننا في حاجة إلى تفعيل التربية الأسرية والمدرسية والاجتماعية التي تجعل خلق الإتقان في حياتنا مهارةً داخلية، تُعبّر عن قوة الشخصية التي تُكسب الإنسان الاتزان والثقة والاطمئنان والتفرد، إلى جانب اكتساب المهارة المادية والحركية.

ومعلوم أن الإتقان يرتبط بما نستطيع أن نطلق عليه (المراقبة الداخلية)، والتي هي الأصل في عملية الإتقان والسلوك الإنساني الصحيح، إذن فحين نقول : إننا نريد طريق الارتقاء، فطريق الارتقاء لا يتحقق إلا بقيمة الإتقان.

لقد أراد النبي ﷺ استحضار تلك القيم متضامنة (الإتقان والمراقبة الداخلية)؛ لأنها سبيل رئيس لدفع عجلة الاقتصاد في أي دولة، ولأنه ﷺ أراد من الأمة الوعي التام بأن :

- الإتقان يحوّل الدولة من الكسل والخمول إلى الإصرار والبذل والعطاء، وهي قيم نبيلة دعانا إليها الإسلام .
- الإتقان يحوّل الدولة من كونها راكدة إلى أن تكون رائدة .
- الإتقان يجعل الصناعات تتمايز ولا يوجد مجال للشكوى؛ لأن كل إنسان منا أحسن في صنعه للآخر.
- الإتقان يقضي على النفاق واختلال الأمور ، ويؤدي إلى الإخلاص والأمانة .

- الإتقان ينقل الأمر من إفساد يرفضه الكون إلى صلاح يحبه الكون .
 - الإتقان يجعل حركة الناس لبعضهم البعض متساندة وليست متعاندة، فيستفيد الكل من الكل، ويعود ذلك بالنفع على الجميع .
- فالإتقان إذن هو الذي يصل بنا إلى نموذج مثالي لإنسان منظم متقن يستطيع الإدارة والتخطيط والانفعال بما حوله ، كما أنه سبيل النهوض والارتقاء والحضارات .

تأسيس سوق للمسلمين :

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة رأى رسول الله ﷺ اليهود هم المسيطرون على الحياة التجارية فيها، فأصدر أمره ﷺ بتأسيس سوق للمسلمين؛ لكي يتعاطى المسلمون عمليات البيع والشراء، ومن أجل أن يدخل المسلمون إلى عالم التجارة ويزدادوا قدرة وقوة، وبؤسسوا محالهم التجارية الخاصة.

ولقد وضع رسول الله ﷺ ضوابطاً وقيماً أخلاقية ينبغي على التجار أن يترسموها في تجاراتهم من حيث البيع والشراء، وأساس هذه الضوابط والقيم، هو العدل وترك الظلم، ولقد قامت هذه الضوابط على حماية المستهلك من ناحية، وعلى الحفاظ على الأمن الغذائي من ناحية أخرى، وبشيء من الإيجاز نلقي الضوء على توجيه النبي ﷺ لكل منهما:

أولاً : حماية المستهلك :

إن حماية المستهلك في ضوء الشريعة الإسلامية تأتي على

مسارين:

الأول : يتعلق بحماية المستهلك في نفسه ، وهذا يتحقق بالترشيد في حاجياته ومطلوباته، وأن يأتي بما يكفل ويضمن له حياة مستقرة وهادئة دون إسراف أو ما هو فوق الحاجة، ومن هنا وجدنا النص القرآني المشرف يقول : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(١)، وقد جاءت النصوص النبوية المشرفة تترى، تؤكد على قيم الترشيد وعدم الإسراف .

وكذلك حماية المستهلك في نفسه تكون بزيادة الإنتاج، وإلا لن يجد المستهلك ما يكفي به حاجياته، وحينئذ مع فقد المنتج سوف يكون هناك استيراد ؛ مما يعود عليه بدفع المبالغ الباهظة للحصول على حاجياته، فكانت الدعوة المستمرة من رسول الله ﷺ إلى العمل والكسب وزيادة الموارد لتكفي حاجيات المستهلك.

الثاني : يتعلق بحماية المستهلك مما يقابله، وهو المنتج ، ومن الضوابط التي وضعت لذلك :

١- جودة الإنتاج، وهذا يتطلب الإتقان حتى لا تكون هناك شكوى من المستهلك، فحين يُتقن كل مُنتج في صنعه ويجودها لا تجد الشكوى، بل ستمايز الصناعات، ويكون ذلك سبيلاً رئيساً للتقدم الاقتصادي .

٢- إنجاز الأعمال لكفاية حاجة المستهلكين، والقضاء على البطالة المقنعة الي تُعطلُّ الأعمالَ وتؤخرها.

(١) سورة الأعراف، آية رقم : (٣١) .

٣- الصدق والأمانة وعدم الغش في عرض أو بيع المنتج للمستهلك ؛ ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ يتابع بنفسه حركة السوق، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَتَالَتْ أَصَابِعُهُ بِلَا فَقَالَ: " مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ " قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيَ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي " (١) .

فنهى النبي ﷺ عن كتم العيب، ومن هنا قيل لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: مَا سَبَبُ كَثْرَةِ مَالِكَ؟ قَالَ: مَا كَتَمْتُ عَيْبًا وَلَا رَدَدْتُ رِبْحًا (٢) .
وقد بين النبي ﷺ أن " التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصَّدِيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ " (٣)، ومعنى هذا أنه ينال أشرف وأسمى رفقة ؛ لأنها في رحاب النبيين والصديقين والشهداء .

٤- النهي عن التطفيف المركب ، فقد وضعت الشريعة ضابطاً رصيناً يحمي المستهلك من جشع بعض التجار الذين يبالغون في تطفيف الميزان والكيل، والتي من خلالها يُنْقِصُ الميزان ويبخس الناس أشياءهم، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ (٤)، وقال تعالى في آية

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : « مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا »، (١/٩٩) .

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، ط، ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، (٢/٤٧٧) .

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب البيع ، باب ما جاء في التَّجَارِ وَتَسْمِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهُمْ ، (٢/٥٠٦) ، والدارقطني في كتاب البيوع ، (٣/٣٨٧) .

(٤) سورة الإسراء، آية رقم: (٣٥) .

أخرى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَلَا إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُحْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ (١).

ثم إن هناك معنىً دقيقاً يتعلق بالمطففين ينبغي أن ننتبه إليه حتى لا نخزل المعنى في مفهوم دون آخر، فالتطفيف لا يكون في الكيل والميزان فحسب، لكنه أيضاً يكون في السعر، فالبائع الذي ينقصك الكيلو مثلاً عشرين جراماً، فقد بخسك في الوزن، وطفف عليك في الثمن أيضاً.

ويؤكد الله تعالى على الدقة في الوزن لاستقامة وتحقيق العدل بين الناس في البيع والشراء، يقول تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيرِ﴾ (٢) أي: اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جور فيه.

فالوزن ينبغي أن يكون دقيقاً، بعيداً عن التلاعب وبخس الناس حقهم، وهذا ما وجه إليه النبي ﷺ في تربيته للصحابة - رضي الله عنهم - من حيث يقظة الضمير، والدقة في إعطاء الحقوق .

ثانياً: الأمن الغذائي :

إن من أهم الوسائل التي لا غنى للناس عنها في تحقيق مطالبهم وتحصيل معاشهم، ما يتعلق بالأرزاق من حيث وفرة السلع الغذائية التي تُؤمّنُ احتياجات الناس، وتُحقّقُ لهم السلامة من الآفات التي يتعرضون

(١) سورة المطففين، الآيات : (١-٣) .

(٢) سورة الإسراء، الآية رقم : (٣٥) .

لها من جذب ومجاعة وغير ذلك من الأمور التي لا بد فيها من وجود السلع الغذائية بشكلٍ دائمٍ؛ وذلك وقاية للدين، والنفس، والنسل، والعرض، والمال، وهو أيضاً باب من أهم أبواب التعاون بين الناس وتحقيق الأمن الغذائي لأفراد المجتمع، والذي جاء النبي ﷺ ليؤسس الأمة عليه، فكان ﷺ حريصاً أشد الحرص على ضمان الأمن الغذائي وحفظه، من حيث القدرة على إنتاج الغذاء بما يكفي حاجة أفراد المجتمع، ومن حيث المرتكزات الرئيسة التي تضمن الأمن الغذائي لأفراد المجتمع، وهي: وفرة السلع الغذائية مع الإلتقان وعدم الغش، وعدم التلاعب بأقوات الناس .

فالأمن الغذائي لا يتحقق إلا بمجموعة من المراحل لا بد منها متعاونة، وهي (إنتاج وتصنيع وتخزين وتوزيع وإعداد)؛ وذلك حتى يكون الغذاء آمناً، موثوقاً به، صحياً، ملائماً للمستهلك، الأمر الذي يحتاج إلى تربية الضمير على قيمة الإلتقان .

وحتى يتحقق الأمن الغذائي فقد قاوم النبي ﷺ الاحتكار والاستغلال، حيث إن المحتكر قد بنى كسبه الوفير على شقاء طبقة عريضة من الناس، وهي جريمة لا تقل عن سائر الجرائم كالسرقة وغيرها؛ لأنه أصاب دخل الفرد فقلله عندما احتكر السلع بقصد رفع أسعارها ظلماً وعدواناً .

والاحتكار قد حرّمه الإسلام؛ لأنه بعبارة دقيقة يعني دمار المجتمع، وحرمان قطاع عريض من حاجياته، وانتشار الفساد والجرائم،

وجمع المال على شقاء الآخرين ، ومن ثمَّ وجدنا سيدنا رسول الله ﷺ يقول : " لا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِيٌّ " (١).

أما البائع الذي يبيع سلعته بسعر يومه، وبحسب حركة السوق الطبيعية، وبدون احتكار فهذا هو العمل الصالح الذي حثَّ عليه رسول الله ﷺ، بل وقد بيّن النبي ﷺ ذلك ، حيث قال : (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصَّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ) (٢).

ومن أسباب تحقيق الأمن الغذائي أيضًا محاربة الغش والشَّره ، فالغش بلا شك هو خلق قبيح، بل هو جريمة في حق المجتمع كله؛ لأننا بنظرة عميقة في باب الغش بصوره المختلفة والمتعددة، سنجد أنه قد اجتمعت فيه مجموعة من الأخلاق المذمومة التي نهى عنها الإسلام وحثَّ منها، مثل : (الخداع، والكذب، والتحايل، والتدليس، والظلم للنفس وللغير، والخيانة، والتزوير، وضياع الحقوق، والشَّره، والطمع، والمكر، والكسب غير المشروع، والاعتداء على مال الغير، والكفر بالنعمة، وأكل المال بغير حق) .

ولنا أن نتخيل هنا ما يتقلب فيه الغاش بسبب غشه من أخلاق مذمومة تقضي بأنه يتقلب في الكثير من الذنوب والسيئات والآثام، ولا شك أن رسول الله ﷺ قد نهى عن كل ذلك واقعا عمليا .

إن الله ﷻ قد بيّن لنا في كتابه الكريم ما يحل وما يحرم من الأموال والأعراض والأنفس، فينادي الله تعالى عباده المؤمنين بعنوان

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة ، بابُ تَحْرِيمِ الْاِحْتِكَارِ فِي الْأَقْوَاتِ، (٣/١٢٢٨) .

(٢) سبق تخريجه ، ص (٢١٩).

الإيمان فيقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وينهاهم عن أكل أموالهم
بينهم بالباطل - والذي من صورهِ الغش - فيقول: ﴿لَا تَأْكُلُوا
أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾^(١).

إن الله ﷻ لا يريد منا أن نقيم بعض أوامره ونترك بعضها؛ ولأجل
ذلك نبهنا رسول الله ﷺ بقوله: " مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا " ^(٢) ، فهذا نص
صريح واضح في أن الغاش يتقلب في خلق ليس من أخلاق الإسلام،
وليس على سنة النبي ﷺ ولا على طريقته ومنهجه .

ولننظر إلى بعض النصوص التي تبين كيف ربط رسول الله ﷺ بين
العقيدة والأخلاق في سائر المعاملات والعبادات :

- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا " ^(٣) .
- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ
وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ،
وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ " ^(٤) .
- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ " ^(٥) .

(١) سورة النساء، الآية رقم (٢٩) .

(٢) سبق تخريجه، ص (٢١٩).

(٣) أخرجه أبو داود في أول كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه،
(٧٠/٧)، وأحمد في مسنده، (٣٦٤/١٢) .

(٤) أخرجه النسائي في كتاب الإيمان وشرائعه، علامة المنافق، (١١٧/٨)، وأحمد:
(٥٣٩/١٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: (٣٧٦/١٩)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الودعة، باب
مَا جَاءَ فِي التَّرْغِيبِ فِي آدَاءِ الْأَمَانَاتِ، (٤٧١/٦) .

ثم إن رسول الله ﷺ قد بيّن لنا أننا نأتي يوم القيامة ونُسأل عن أمور، منها: "وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ" (١). ومنها: "وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ" (٢). فكيف هو الحال وقد وجدنا إنساناً أفنى عمره في جمع ماله بطريق الغش والخداع والجشع والاحتكار؟ وكيف هي إجابته بين يدي ربه؟

إن رسول الله ﷺ يريد من خلال ذلك كله أن تتلبس الأمة فيما يتعلق بالأمن الغذائي بحال شريف، يقوم على تنمية الرقابة الذاتية للإنسان، وتنمية الضمير، وعلاج هذا السقم الإيماني بالتزام أخلاق العفة، والأمانة، والاستقامة، والعدل، والحق، والصدق، والمراقبة، فإذا حقق كل إنسان هذه الأخلاق في نفسه انعكست على غيره، ومن ثم تنعكس على المجتمع بأسره، فنصبح في مجتمع نقي تقي مترابط، لا يتصور الظلم بين أعضائه.

ومن الأسباب الآكدة في تحقيق الأمن الغذائي لسائر أفراد المجتمع: تحقيق التكافل الاجتماعي والتراحم لتوفير الغذاء لغير القادرين، ويكون ذلك بعدة طرق، منها: أداء الزكاة والصدقات، فمعلوم أن الزكاة الأصل فيها أنها عون للفقراء والمحتاجين، تساعدهم على ظروف الحياة المعيشية، وتحمي المجتمع من الفقر، كما أنه بالزكاة والتكافل نسهم في حماية الدولة من الإرهاق والضعف، فعدم إخراج

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب في القيامة، (٦١٢/٤)، والدارمي في باب من كره الشهرة والمعروفة، (٤٥٢/١).

(٢) المرجع السابق نفس الموضع.

الزكاة سبب أصيل من أسباب الغلاء وعدم تحقيق الأمن الغذائي لكل أفراد المجتمع، بل قد تسبب أحياناً العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع لغياب التكافل فيما بينهم من خلال فريضة الزكاة، فأخراج الزكاة سبب للبركة وسيادة الألفة والموودة والمحبة بين أفراد المجتمع، وهذا ما كان يحرص عليه رسول الله ﷺ.

ومنها أيضاً: المساهمة الفاعلة من القادرين وتفعيل دورهم الاجتماعي بتقديم تجاربهم واقتراحاتهم لمساعدة ودعم غير القادرين، وقد قال ﷺ: (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ) ^(١).

مشكلة الفساد الأخلاقي في المجتمع:

إن الغاية من خلق الإنسان - وهو ما نسميه بالمقاصد العليا للمكلف - إنما تتمثل في ثلاثة أمور: (العبادة - العمارة - التزكية)، وهذه المقاصد هي التي أمر الله بها، والتي لأجلها نزلت النصوص الشرعية.

فأما العبادة، فالله (عز وجل) قد بين لنا الحكمة الأصيلة في خلق الإنسان فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ^(٢).

وأما العمارة، فقد جاء في كتاب الله (جل وعلا) الدليل على ندب الإنسان في هذا الوجود لتحقيق هذا المعنى، وهو العمارة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ^(٣).

(١) أخرجه مسلم في كتاب اللقطة، باب استجباب الموساة بفصول المال، (١٤٥٤/٣).

(٢) سورة الذاريات: الآية رقم (٥٦).

(٣) سورة هود: الآية رقم (٦١).

وأما التزكية ، فقد جاءت الآيات تترى تدعو إلى تزكية النفس عن كل ما هو مذموم إلى كل ما هو محمود، منها قوله سبحانه في سورة الشمس : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾^(١)، ويقول أيضًا في سورة الأعلى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ ﴾^(٢).

إذن لقد جاءنا النبي ﷺ ليمنع انهيارنا ووقوعنا في التهلكة والمفاسد ، وذلك بالتربية الأخلاقية التي هي أساس رسالة سيدنا رسول الله ﷺ ، والتي هي مقصد عظيم من المقاصد العليا للمكلف .

فقه التربية الراشدة على الأخلاق الفاضلة:

لا شك أن السبيل الأول والعامل الرئيس في كل نهضة وحضارة هو التربية الراشدة، وأقصد بالتربية هنا : التربية العقلية والروحية، فإذا كان الإنسان عبارة عن مادة وروح، وهو يطلب للمادة حتى يستبقها الغذاء من طعامٍ وشرابٍ وغير ذلك، فإن الروحَ أيضًا تحتاج إلى غذاء يسمو بها صاحبها ويُزقيها في مدارج العلم والثقافة والتفكير القويم الناضج ؛ وذلك كله حتى لا يكون الإنسان صفر العقل والقلب، ومن هنا ومن خلال التربية الإسلامية الصحيحة يعيش الإنسان في ماديته الأرضية بالقيم السماوية .

(١) سورة الشمس : الآيات (٧-١٠) .

(٢) سورة الأعلى : الآيات (١٤-١٥) .

ومن هنا كان الهدف الأسمى أن يصنع رسول الله ﷺ رجالاً، وأن يصوغ ضمائر، وأن يبني أمة، وأن يقيم مجتمعاً فاضلاً، وقد تحقق ذلك بالفعل، ووجدنا القاضي مثلاً - في عصر صدر الإسلام - يجلس في بيته أشهراً كثيرة وقد يصل إلى ما يقرب من سنتين، ولا يتخاصم إليه أحد، ولماذا يتخاصمون وبين أيديهم القرآن؟ ولماذا يختلفون وهم يحبون للآخرين ما يحبون لأنفسهم؟ ولماذا يتباغضون والإسلام يأمرهم بالمحبة ويحضهم على التعاطف والإيثار؟ فالمبادئ والمنهج لا يعمل كل منهما وحده، ولا يعيش إلا أن يكونا سلوكاً وتطبيقاً.

والتربية الراشدة في الإسلام ليست قاصرة على ناحية دون أخرى، فليست قاصرة فقط على الناحية الدينية مثلاً، وإنما هي تعنى بكل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية وغيرها، فهدف التربية الإسلامية إذن هو المحافظة على هذا البناء الإنساني، والرقي به وإساعده في الدارين من خلال تربية راشدة في رحاب الدين، وسنن وأقوال النبي ﷺ؛ فمنهج الله إذن هو قانون الصيانة الذي يحمينا وينظم حياتنا، فيجب الرجوع إليه والتربية على يديه.

وهذا هو دور رصين قام به رسول الله ﷺ، دور يعمل على حماية المجتمع الإسلامي وصيانتته عن طريق التربية الراشدة بكل أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. إلخ، وذلك بالرجوع إلى تعاليم الإسلام ومبادئه، والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

النظام الاجتماعي للدولة :

إن النظام الاجتماعي للدولة أسسه رسول الله ﷺ ؛ ليهيئ مجتمعاً
فاضلاً، قوامه الدين والأخلاق والقيم ، حيث وضع أسساً ومبادئ وقواعد
تربوية للإنسانية لها صفة الشمول والعمق، وتحتضن الإنسانية كلها في كل
عصر من العصور وفي كل وقت .

ويكفي أن نشير هنا إلى أن تلك الضوابط والأسس لإقامة نظام
اجتماعي رصين في الدولة الإسلامية، إنما هي مستفادة من مقاصد
النبوة المشرفة، والتي تتلخص في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١) وهذه الرحمة ينبغي أن نحولها إلى ترجمة واقعية
في حياتنا، وأن نجسدها في تعايشنا، وذلك بأن نتمثل أخلاق رسول الله
ﷺ في علاقة كل منا مع الآخر (مطلق آخر) .

سياسة الدولة في التعامل مع الآخر:

أسس رسول الله ﷺ في إطار النظام الاجتماعي سياسة الدولة في
التعامل مع الآخر داخل الدولة أو خارجها على عدد من القيم والقواعد
الإنسانية العامة، والتي من شأنها أن تعمل على احترام الهوية الإنسانية،
حيث إن منهج النبوة دائماً يتشوف إلى الحرية، ومما يؤكد ذلك أن
النبى ﷺ لما أرسل ﷺ رسوله حاطب بن أبي بلتعة إلى مصر مثلاً، أرسله
إلى (المقوقس) عظيم مصر في حين أن مصر كانت في ذلك الوقت

(١) سورة الأنبياء : آية رقم (١٠٢) .

مستعمرة للدولة الرومانية، وملكها هو هِرَقْل، في إشارة دقيقة تدل على أن النبي ﷺ لا يعترف بالمستعمر، وإنما يعترف بصاحب البلد الأصلي، ويؤيد حرية الدول واستقلالها.

ونشير هنا إلى سياسة الدولة في التعامل مع الآخر خارج المدينة، وذلك من خلال النقاط الآتية :

أولاً : سياسته ﷺ مع المشركين المحاربين من قريش بعد الخندق :

خرج النبي ﷺ ومعه أصحابه -رضي الله عنهم- يقصدون مكة وهم مُحْرِمُونَ، يسوقون هَدْيَهُمْ إلى البيت الحرام ، لا يحملون سلاحاً، ولا يرومون حرباً، بل خرجوا يبتغون العمرة، فإذا بقريش تتصدى له وتمنعه من دخول مكة، وعندئذ كان صلح الحديبية^(١).

ويُصَوِّرُ (مالك بن نبي) بطريقة فلسفية أدبية هذا الموقف من رسول الله ﷺ، وموافقته على بعض الشروط القاسية في تلك المعاهدة؛ ليرز عمقاً عقلياً وقرأة مستقبلية لدى النبي ﷺ، فيقول: إن عمق آرائه ﷺ ليحير أحياناً صحابته -رضي الله عنهم- أنفسهم، فإن أول عمل دبلوماسي أمضاه مع مبعوثي مكة، سيكون بالنسبة لبعض أصحابه موضع دهشة، لقد وقع النبي ﷺ المعاهدة -التي طبقت في الحال دون أن تكون ذات أثر رجعي- وبدأ هذا النص العجيب وكأنما قد أتاح لمكة نصراً دبلوماسياً، تدمر منه المسلمون، وفي اللحظة التي كان المبعوثون

(١) انظر بنود هذه المعاهدة: السيرة، لابن هشام، (٣٠٨/٢) وما بعدها، والروض الأنف، (٥٣/٧) وما بعدها، وعيون الأثر، (١٥٤/٢) وما بعدها.

يتبادلون فيها وثائق التصديق، تقدم هارب مكّي إلى المعسكر الإسلامي، فطالب به رسل مكة في الحال، ولم يملك النبي ﷺ إلا أن يسلم بالواقع مثيراً بذلك ذهول صحابته، وأعيد الأسير، ولكنه أثناء الطريق، غافل القوم وهرب منهم، وأوى إلى مكمن احتفى به، وبعد قليل انضم إليه الكثير ممن هربوا من الاضطهاد في مكة، وإذا بهؤلاء، يعترضون قوافل قريش فسلّوا بذلك - وفي زمن قليل - تجارة قريش كلها، حتى إنها رأت أخيراً أن تتوسل راغمة إلى النبي ﷺ؛ ليرضى بالمؤمنين ويضمهم إليه .

ولا شك أن النبي ﷺ قد ظفر بجميع امتيازات المعاهدة التي بطل منها الشرط الوحيد القاسي، أبطله من وضعه ظناً منهم أنهم منتفعون به.

وهكذا كان الرسول ﷺ (القائد) يلقي أبطال ملحمة أسمى دروس الدبلوماسية والاستراتيجية الحربية، جاعلاً من المسلمين بهذا التوجيه أعظم الفاتحين نزاهة، في الوقت الذي يعتبرون فيه أكمل المستنيرين في التاريخ، فلم يصنع رسول الله ﷺ نفوساً مؤمنة تقية فحسب، وإنما صنع عقولاً مستنيرة^(١).

ومثل ذلك كان مع خيبر؛ حيث كانت هذه الخطة المحكمة من الرسول ﷺ في أن يحرم اليهود من المؤامرات التي حيكت بينهم وبين قريش في الكيد بالمسلمين والإغارة عليهم، في أنه ﷺ شرط على قريش في صلح الحديبية أن لا يتفقوا مع أحد يحارب رسول الله ﷺ، وهذا هو مفهوم الهدنة المنصوص عليها في الصلح^(٢).

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص (١٠٧-١٠٩) بتصرف.

(٢) التعايش مع الآخر، د. علي جمعة، ص (١٠٩-١١١).

فإذا انتقلنا إلى فتح مكة، سنجد أنه وفق ذلك التخطيط العسكري من رسول الله ﷺ، أنه بفتح خيبر، قد فُكَّ الحصار عن شمال المدينة، ثم جاء فتح مكة بعد نقض قريش لعهدِها مع رسول الله ﷺ ليفكَّ عن المدينة الحصار الجنوبي (١).

ومما يلاحظ في فتح مكة أن رسول الله ﷺ لم يخرج إلى الناس من أهل مكة حتى اطمأنوا أنه لم يأمر فيهم بمكروه أو قتل أو انتقام، بل ذهب إلى بيته واغتسل، ثم خرج إلى الناس، ولم يخاطبهم حتى أتى البيت فطاف به سبعا .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ مَكَّةَ، وَأَطْمَأَنَّ النَّاسُ، خَرَجَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ، فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ، يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِحْجَنٍ (٢) فِي يَدِهِ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ، دَعَا عُمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، فَمُتِحَتْ لَهُ، فَدَخَلَهَا (٣).

من مبادئ العلاقات الدولية في حال السلم :

وبناء على هذا التعامل، فقد ظهرت بعض المبادئ للعلاقات الدولية في حال السلم، منها (٤) :

الانفتاح : ونقصد به التواصل، والدعوة إلى التعاون والمشاركة في عمارة الأرض ، وهذا المبدأ ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله :

(١) التعايش مع الآخر، د. علي جمعة، ص (١١١-١١٢).

(٢) المحجن: العصا معوجة الرأس .

(٣) السيرة، لابن هشام: (٤١١/٢)، وعيون الأثر، (٢٢٦/٢).

(٤) انظر هذه المبادئ في: التعايش مع الآخر، د. علي جمعة، ص (١١٦، ١١٧).

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (١) .

مراعاة الجوار: إن العلاقات الدولية كالعلاقات الإنسانية يجب مراعاة الجوار فيها، فإن للجوار حقوقاً، وكل جوار تبنى للحوار والتعارف تبدأ من الجار .

دعم السلام: إن الأصل في تعامل المسلمين مع غيرهم هو السلم، ولذلك حرص النبي ﷺ على دوام السلم والالتزام بالعهد فيه، فقد بدر من قريش عدة أمور تدفع لنبد السلم، ولكنه ﷺ تمسك به، وما حدث في صلح الحديبية خير نموذج على ذلك، قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُوَلُّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾ (٢) .

ثانياً: سياسته ﷺ في التعايش مع أهل الكتاب خارج المدينة:

يلاحظ أن رسول الله ﷺ قد عقد الكثير من المعاهدات والاتفاقيات مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يعيشون خارج المدينة، ومن هذه العهود والاتفاقيات، ما قام به ﷺ مع نصارى نجران . وكانت أيضاً هناك العلاقات السلمية مع الحبشة، والتي ظلت قائمة قرونًا طويلة دون معاهدة مكتوبة؛ حيث كان الموقف العام من المسلمين

(١) سورة المائدة، آية رقم (٢) .

(٢) سورة الممتحنة، الآيات (٨، ٩) .

للحبشة هو مقام الشكر لما قاموا به وقدموه للمسلمين في بداية الدعوة من حفظهم من أذى قريش والعمل على أمنهم، فاعتبر المسلمون الحبشة مصونة، فلم يتعرضوا لها، إذ هي لم تقف أمام دعوته ﷺ ولم تعمل على اضطهاد المسلمين، ولم تُغر على دولته أو تناصر أعداءه^(١).

الاقْتِبَاسُ مِنَ الْغَيْرِ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ :

إن الإسلام ينظر إلى الاختلاف كطبيعة وسنة كونية، فهو لا يعده انحرافاً أو منكرًا، بل هو طبيعة إنسانية متأصلة؛ ولأجل هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٢).

وبناءً على هذه الرؤية الكلية، فقد نظر رسول الله ﷺ إلى الاختلاف في حد ذاته على أنه رحمة، وعلى أن التعدد في زوايا النظر يؤدي إلى إخصاب الفكر والواقع الإنساني بل والمشهد البشري على الأرض كلها. فالإسلام يقبل الآخر ذاتاً وفكراً، بناءً على أن الآخر أمر واقع، وأن الاختلاف مع الآخر أمر واقع أيضاً؛ ومن ثم وجدناه ﷺ يعطي لنا نموذجاً في حل المعضلات من خلال مشروعية الاقتباس من الغير، ما دام ذلك الاقتباس يتناسب ويتفق مع مصلحة الأمة، ففي حفر الخندق مثلاً، قد أخذ برأي "سلمان الفارسي" ﷺ، مع أن فكرة حفر الخندق فكرة اشتهر بها الفرس، وهم عبّاد نار، ليس لهم كتاب، لكن يعلمنا رسول الله ﷺ هنا أن الإسلام لا يقف موقف الرفض للمذاهب العصرية في السياسة

(١) التعايش مع الآخر، ص (١١٩) بتصرف.

(٢) سورة هود: آية رقم (١١٨).

والاقتصاد، أو الأدب، أو العلم ... وهكذا، بل للمسلمين أن يقتبسوا منها، ما دام فيها الخير للأمة والمصلحة لدينهم ودنياهم.

إن رسول الله ﷺ بهذه التجربة، يوجه الأمة إلى الاستفادة من الحضارات الأخرى، والاستفادة من الحكمة حيثما وجدناها، ما دامت تتناسب ومصلحة الأمة؛ وما كان ذلك إلا لأن الإسلام نَسَقٌ مفتوح، يدعو إلى تجاوز المكان بالبحث والاستفادة من الآخرين فيما يكون سبباً رئيساً لبناء الحضارة الإنسانية التي تعتمد على الشريعة الإسلامية.

وينبغي أن نُنبّه هنا إلى أنه حتى نحسن الاستفادة من الحضارات الأخرى، لا بد من إدراك الواقع المعيش؛ لأنه جزء لا يتجزأ من عملية بناء الحضارة، وأن ندرك أيضاً عالماً واسعاً يتقلب فيه العالم كله، وهو عالم الأفكار.

ومن ثمَّ وجدنا الصحابة بعد رسول الله ﷺ يقتبسون بعض النظم المالية والإدارية من الفرس أو الرومان أو غيرهم، ما دام يحقق لهم المصلحة، وما دام لا يصادم أصلاً ولا نصاً.

فقه الأمانة ومحاربة الفساد:

قال النبي ﷺ حين سأله السائل: متى تقوم الساعة؟ قال: "فَإِذَا صُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"، وقال أيضاً: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ فَالْأَمِيرُ رَاعٍ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ مَسْئُولٌ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى

مَا لِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ ، أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ " (١) .
ولأهمية الأمانة في حفظ الأمة من الفساد، ربط رسول الله ﷺ بينها
وبين الإيمان ؛ حيث قال : " لا إيمان لمن لا أمانة له " (٢) ، ومعنى هذا
أن كلا منهما سبب للآخر ونتيجة له .

مشكلة الأمن الاجتماعي:

لقد أدرك رسول الله ﷺ أن الدولة إذا تحوّلت إلى طوائف
وأطراف، فإن ذلك دلالة على هدم وحدتها، فيسهل بعد ذلك اختراقها
من أي جهة أخرى ، وكذلك تضعف وتخور قوة الدولة ومقاومتها ، وهذا
من شأنه أن يقوي التدخل الخارجي فيتمكن من النفوذ والاختراق
لأمن الدولة .

والنبي ﷺ عندما وجد في المدينة مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث
الاعتقاد، والانتماء ، والتعاش ، وغير ذلك ، وفقّ بين هذه الانتماءات،
وبين هذه الاتجاهات ، بين المؤمنين بدين ، وبين الوثنيين ، وأكّد
رسول الله ﷺ على ذلك وبيّن أن أهل المدينة جميعاً أمة واحدة ،
سلمهم واحد ، وحربهم واحدة .

بل إننا نجد أن رسول الله ﷺ قد أصّل لهويّة الدولة الإسلامية

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها ، (١٩٩٦/٥) ، ومسلم، كتاب
الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل ، (١٤٥٩/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في باب ذكر الفتن ودلائلها: (١٥٢/٤) ، وأحمد في مسنده ، (٣٧٦ / ١٩) ، والبيهقي
في السنن ، (٩٧/٤) .

التي تتجلى فيها المواطنة الكاملة في الحقوق والواجبات ، وهي الهُويَّة التي تكفل وسائل تحقيق العدل والمساواة والحرية ، وتضمن حماية الأنفس والأعراض والأموال .

حرية العقيدة وما يترتب عليها:

من المعلوم أنه من اللحظة الأولى التي ظهر فيها الإسلام قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة قرر أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) ، فالمسلمون دائماً يتركون لمن عداهم حرية الاختيار ، ويعلنون قول الله تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٣) . ويترتب على حرية الاعتقاد تجريم أي مظهر للإكراه في الدين ، أو الاضطهاد ، فللمواطنين ما يشاءون من اعتقاد ، ولهم كذلك حرية إقامة شعائرهم دون أن يمسّ الآخرين بأذى .

ويترتب على ذلك أيضاً التلاحم بين أفراد المجتمع ، وهو ما يعبر عنه بالتعايش السلمي ، الذي لا يُحَيِّرُ فصيل في تجمع دون الآخر ، وإنما هناك المواطنة وانصهار الكل في الكل مع احترام العقائد بين الجميع . لا شك الإسلام يترفع عن معاني الظلم والإيذاء ، ويضفي خصائصه الحضارية الموسومة بالرحمة والتعايش السلمي والحب وسائر القيم الأخلاقية مع أهل الديانات الأخرى .

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (٢٥٦) .

(٢) سورة الكافرون ، الآية رقم (٦) .

(٣) سورة الكهف ، الآية رقم (٢٩) .

فالمسلم يعتقد بكرامة الإنسان من حيث هو إنسان . وفي هذا ما روي في الصحيحين عن جابر : أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهَا جَنَازَةٌ يَهُودِيٌّ ، فَقَالَ : « أَلَيْسَتْ نَفْسًا » ^(١) . فما أعظم الموقف ، وما أروع التعليل ، فهو إنسان يشترك معنا في جوهر الإنسانية وكرامتها .

ومن هنا فإن إثارة المشاعر الدينية بهدف تفكيك أو اصر المجتمع والقضاء على وحدته أمر مرفوض ، فالمنهج الإسلامي يُكْرِمُ الإنسان - أي إنسان - والمسلمون يؤمنون بذلك إيمانًا عميقًا ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ^(٢) ، فالنفس الإنسانية لها حرمتها ولها حقوقها ، بل إن أي اعتداء عليها هو كالعدوان على مطلق الإنسانية ، قال تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ^(٣) .

وغير المسلمين لهم حقوق ، كفلها لهم الشارع (جل وعلا) ، وبينها رسول الله ﷺ ما دام تحقق فيهم كلام الله سبحانه : ﴿ لَا يَنْهَدِكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُجْرِحُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ، باب من قام لجنازة يهودي (٨٥/٢) ، ومسلم في الجنائز ، باب القيام للجنازة (٦٦١/٢) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية رقم (٧٠) .

(٣) سورة المائدة ، الآية رقم (٣٢) .

اللَّهِ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ ، أي : لا ينهاكم الله عن البر والصلة ، والجوار والأمان والمكافأة بالمعروف ، والقسط لغير المسلمين ، فالمسلمون يلتزمون بدفع الظلم عنهم والمحافظة عليهم كما هو مقرر في الفقه الإسلامي ومجمع عليه ^(٢) ، والمسلمون مكلفون بحماية أهل الذمة ، يقاتلون ويدافعون عن الكنيسة كما يدافعون عن المسجد .

إن أهل الذمة ينعمون بالعيش الآمن والحماية المطلقة لهم من قبل المسلمين علاوة على أمنهم على كنائسهم ودينهم ، فمن مقتضيات عقد الذمة أن أهل الذمة لا يظلمون ولا يؤذون ، قال النبي ﷺ : **الْأَمَنُ ظَلَمَ مَعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ حَقَّهُ ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا يَغْيِرُ طَيِّبَ نَفْسٍ مِنْهُ ، فَإِنَّا حَجِجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** " ^(٣) .

وكذلك يقضى عقد الذمة بعدم التعرض لهم في عقيدتهم وعبادتهم ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** ^(٤) ، وفي كتاب النبي ﷺ لأهل نجران : **وَلَنْجْرَانَ وَحَاشِيَّتَيْهَا جَوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَيَبْعِهِمْ وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ** . ^(٥) .
وتصون الشريعة نفس الذمي وماله ، وتحكم له بالقصاص من قاتله ،

(١) سورة الممتحنة ، الآية رقم (٨) .

(٢) راجع في كلام الفقهاء المغربي لابن قدامة ، (٦١٣/١٠) ، دار الفكر - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ ، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، لعلاء الدين الكاساني ، (٣٧/٢) ، دار الكتاب العربي - بيروت .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج ، (١٣٦/٣) .

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم (٢٥٦) .

(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ، (٣٨٩/٥) .

فقد أخذ رجل من المسلمين على عهد علي عليه السلام وقد قتل رجلاً من أهل الذمة، فحكم عليه بالقصاص، فجاء أخوه واختار الدية بدلاً عن القود، فقال له علي: "لعلهم فرقوك أو فزَعوك أو هددوك؟" فقال: لا، بل قد أخذت الدية، ولا أظن أخي يعود إليّ بقتل هذا الرجل، فأطلق علي القاتل، وقال: "أنت أعلم، من كانت له ذمتنا، فدمه كدمنا، وديته كديتنا" (١).

وقال الماوردي: "ويلتزم - أي الإمام - لهم ببذل حَقَّين: أحدهما: الكفُّ عنهم، والثاني: الحماية لهم، ليكونوا بالكفِّ آمنين، وبالحماية محروسين" (٢).

وقال النووي: "ويلزمنا الكفُّ عنهم، وضمان ما تُتلفه عليهم، نفساً ومالاً، ودفعُ أهل الحرب عنهم" (٣).

ولا يتوقف حق أهل الذمة على دفع العدو عنهم، بل يتعداه إلى دفع كل أذى يزعجهم، ولو كان بالقول واللسان، يقول القرافي: "إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وذمة دين الإسلام" (٤).

(١) مسند الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، (٣٤٤/١).

(٢) راجع الأحكام السلطانية، للماوردي، تحقيق الدكتور أحمد مبارك البغدادي ص ١٨٢ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، مكتبة دار ابن قتيبة - الكويت.

(٣) مغني المحتاج، (٢٥٣/٤).

(٤) الفروق، للقرافي، المكتبة الأزهرية، (١٤/٣).

إننا من خلال المعروف - الذي أمرنا الله به - ومن خلال تطبيقه نحقق عالمية الإسلام ونحبب غير المسلمين في الإسلام، فلا بد أن نريهم حُسن أخلاق المسلمين، ولا يكون ذلك إلا بأن نُحسن أولاً فهم الدين، ونُحسن ثانياً تطبيقه، ثم نُحسن عرضه على الطرف الآخر .

نبذ العنف والدعوة للسلام واحترام الإنسانية:

لا شك أن العنف مفهوم سلبي ومرفوض في الأديان، ومرفوض في القيم الإنسانية وفي الحضارات الراقية، ذلك أن العنف بما هو استعمال سلبي للقوة يحولها من طاقة ضرورية للإنسان، لبناء ذاته وبناء حضارته، إلى طاقة تدمير . وأتصور أن للعنف أنواعاً، فمنها الفكري، ومنها النفسي، ومنها الجسدي، وفي كل وجدنا علاجاً رصيناً من رسول الله ﷺ.

أولاً : العنف الفكري :

ويقصد به إغلاق الفكر على مفهوم واحد فقط ، وإلزام الآخر قولاً واحداً بشيء من التشدد ، وعدم قبول مجرد المناقشة من الآخر مع ما يعتقد .

ومعنى هذا أن أحد الطرفين يريد محو الآخر معنوياً ، ويريد صهره وكأنه غير موجود أصلاً ، في كل المجالات، في منظومة القيم ، وفي حقوق الإنسان، وفي الدين ... إلخ ، وبالتالي فهو لا يقبل الآخر، وكأن كلامه وأفكاره هي أفكار مقدسة لا تقبل مجرد الحوار أو الاختلاف .

والواجب هنا أن يفرق الناس بين نوعين من الاختلاف : اختلاف التنوع (الاختلاف) ، واختلاف التضاد (الخلاف) ، فأما الأول : فمعناه أن تختلف طرقنا وأساليبنا ولكن الغاية واحدة ، وأما الثاني : فهو نفي

الآخر وعدم الاعتراف به، فكأن الاختلاف هو أن يكون الطريق مختلفاً والمقصود واحداً، والخلاف أن يكون كلاهما مختلفاً^(١).
ورسول الله ﷺ في سياسته وتعامله مع الآخر، قد بلغ من السماحة ومن الرؤية المستنيرة حدًا لا نظير له ، ولذلك علّمنا الكثير من الأمور التي لا بد منها، وذلك مثل :

- أن نتعلم ثقافة الاختلاف ونترك ثقافة الخلاف المطلق.
- أن نتعلم اختلاف التنوع ، ونترك اختلاف التضاد.
- أن نتعلم ثقافة الحوار ، ونترك ثقافة الضجيج .
- أن نتعلم قبول الآخر ، ونترك نفيه وعدم الاعتراف به .
- أن ندعو إلى السلم والأمن، ونترك العنف بأنواعه .
- أن نُغلب المصلحة العامة على المصالح الشخصية .

ثانيًا : العنف النفسي :

ويقصد به كل ما من شأنه أن يُروّع النفس الآمنة، ويُخرجها عن أمانها وعن استقرارها وعن اطمئنانها .

فالإسلام جاء ليحقق مقاصد شريفة، تؤصل لحفظ وصيانة الإنسان باعتباره نفساً وعقلاً وعرضاً، وتحقق له العصمة في ماله وفي دمه، وكل ما من شأنه أن يخرج عن هذا الإطار الذي أرادته الإسلام فهو من باب الترويع لتلك النفس الإنسانية، الأمر الذي يجعل الإنسان يعيش حياة غير

(١) الاختلاف بين المسلمين مجالاته ودعائمه الخُلقية ، د/ جمال فاروق جبريل ، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م ، ص (٧) .

آمنة، غير مستقرة، غير هادئة، يجعله يعيش خائفاً، قلقاً، مترقباً للأحداث، وهذا ما أتصوره عنفاً نفسياً .

ولنستمع إلى سيدنا عبد الله ﷺ، يروي لنا أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَجَّى اثْنَانِ دُونَ الثَّلَاثِ " (١) ، فإن هذا الحديث يبين حرص النبي ﷺ على عدم جرح المشاعر ، وعدم حمل الإنسان أي ضجيج نفسي أو ذهني ، فما الظن بما هو أكبر من ذلك ؟!

ثالثاً : العنف الجسدي :

ويقصد به كل ما من شأنه أن يحدث الإيذاء الجسدي من جرح أو قتل أو غير ذلك .

ومعلوم أن الإسلام جاء ليحفظ على الإنسان إنسانيته، ودعا إلى احترام الإنسان كل إنسان، وعدم إيذائه بأي شكل من أشكال الإيذاء، ومن هنا أكد رسول الله ﷺ على معاني المحبة، والإنسانية، وقبول الآخر، والتفاوض، والوئام، والتعاون، والتآلف، كما نهى وحذر من المساس بالإنسان والاقتراب من الإيذاء الجسدي ، فالمسلم معصوم الدم والمال، لا تُرفعُ عنه هذه العصمة إلا بإحدى ثلاث : إذ يقول الرسول ﷺ: " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ " (٢) ، كما دعا الإسلام إلى البعد عن العنف وقتل الآخر ، فقد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان ، بَابُ لَا يَتَنَجَّى اثْنَانِ دُونَ الثَّلَاثِ ، (٦٤/٨) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الْقِسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالذِّيَاتِ ، بَابُ مَا يُبَاحُ بِهِ دَمُ الْمُسْلِمِ ، (١٣٠٢/٣) .

روى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال : " لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ " (١) ، بل إنه من الأمور التي حذر منها النبي ﷺ إشارة أحدهم إلى الآخر بأي شيء يحتمل أن يقتل أو يجرح ، قال النَّبِيُّ ﷺ : " لا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي ، لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ " (٢) .

وقد أصّل رسول الله ﷺ للتسامح باعتباره شرطاً من شروط تحقيق السلام ونبذ العنف، كما نجدّه ﷺ يطلب من أتباعه " الالتزام بالسلوك العادل الذي لا يقبل بالآخر فحسب، بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته " (٣) .

مشكلة العنصرية :

لقد وضع رسول الله ﷺ حلاً لهذه المشكلة التي يكون فيها التمايز الطبقي أو العنصري أو العرقي أو اللوني ، فالناس حسب المبادئ التي جاء بها رسول الله ﷺ سواسية كأسنان المشط.

إن رسول الله ﷺ نبّه الأمة إلى قبول الآخر بتأسيس علميٍّ وواقعيٍّ ؛ وذلك عندما رفض كل أشكال العنصرية تجاه الآخر، كما أنه رفض تصنيف الآخر بسبب اللون أو الجنس أو العرق أو الاعتقاد أو لغيره

(١) البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ : لا ترجعوا بعدي ... ، (٥٠/٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي... ، (٨١/١) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا» (٤٩/٩) .

(٣) التسامح في الحضارة الإسلامية، المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ص (٥٠) بتصرف.

من المسببات "غير الاختيارية"، وبالتالي لا يمكن أن ينشأ في ظل التصور الإسلامي موقف يرفض الآخر، يؤدي إلى تسويخ العنف ضده .
وانسجامًا مع أحاديث كثيرة للرسول ﷺ التي شرحت هذا الموضوع، نرى سيدنا عمر بن الخطاب ؓ، يقول عن بلال ؓ: "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا" يعني: بلالاً^(١).

التعليم ومشكلة الأمية :

لقد جاء النبي ﷺ في مجتمع أمي جاهل، وكانت من أهم المشاكل التي واجهها مشكلة الأمية، ولأن رسول الله ﷺ يدرك قيمة العلم، وأن سبيل التقدم والنهوض لأي أمة لا يكون إلا به، حث رسول الله ﷺ على العلم ودعا إليه، بل وصل الأمر إلى تعلم اللغات .
لقد كان رسول الله ﷺ، يوجه دائمًا إلى المحافظة على العلم والثقافة، فلم يهمل رسول الله ﷺ مواصلة التعبئة الثقافية والعلمية حتى في أصعب الظروف؛ حيث كان يكرّس من لم يذهبوا إلى جبهات القتال للمدارسة والعلم، ولذلك وجدنا عدد الذين يقرأون ويكتبون في بداية الدعوة، هم عدد قليل، يعدون على أصابع اليد، بينما بعد مرور عشرين عامًا من بدء الدعوة لم يبق هناك فرد واحد لا يعرف القراءة والكتابة .
وهذا ما ينبغي أن نتعلمه من رسول الله ﷺ وهو الاستثمار في أجيالنا، فرسول الله ﷺ كان من بين من اختارهم واستأنهم على الوحي الإلهي، وكان من كتبة الوحي وهو صاحب الأحد عشر عامًا (زيد بن

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب مناقب بلال، (١٣٢١/٣) .

ثابت) ، وكان أيضاً ممن تعلموا اللغات، فلم يرَ ﷺ في الصحابي الجليل (زيد بن ثابت) شاباً ذا قدرات قتالية ، عندما أتى إليه يبكي كي يشارك معه في يوم بدر ، لكنه وجد فيه بعدها قدراتٍ عاليةً في حفظ القرآن، وشغفه بالعلم والثقافة، ودقته في طرح المعلومات وعمق الأسئلة.

وقد أسفرت بصيرة رسول الله ﷺ واكتشافه لتلك الموهبة عن توجيهه بعدها ليتعلم اللغة العبرية، بعدما خشي من تلاعب اليهود بالقرآن، فعن زيد بن ثابت، قال: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ: فَمَا مَرَّي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتَهُ لَهُ، قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتَهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَيَّ يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيَّ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ^(١) ، وفي خلافة أبي بكر ﷺ أسند له أبو بكر الصديق ﷺ المهمة العلمية العظيمة الأخطر في تاريخ الإسلام كله، وهي مهمة جمع القرآن.

بل إن الأمر قد وصل إلى أن يكون هناك كتبة للوحي، وآخرون يكتبون المعاهدات، وآخرون يكتبون الرسائل للدول والملوك، وآخرون يكتبون الديون، وهناك من يتعلم اللغات لمخاطبة أصحاب اللغات المختلفة بلغتهم .. وهكذا .

وقد أتت النساء إلى رسول الله ﷺ شاقيات من غلبة الرجال على مجالسه ﷺ، فطلبن منه وقتاً يخصص لهن ليتعلمن فيه، فأجابهن رسول الله ﷺ إلى ذلك .

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الاستئذان والآداب ، باب ما جاء في تعليم السريانية ، (٦٧/٥) .

وفي يوم بدر، كان هذا التفكير الرصين لرسول الله ﷺ، والذي أراد من خلاله أن يجلب وسائل التثقيف والتعبئة العلمية والمعرفية بشتى الطرق، فكان هناك بعض الأسرى يوم بدر، لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّمُوا أبناء الأنصار الكتابة، حتى إن الواحد منهم كان يعلم عشرة من المسلمين .

تعلم الصناعات والمهن والحرف المختلفة:

لقد ساعد هذا المجتمع الذي أقامه رسول الله ﷺ منفتحاً على العلم والفكر، حسب طاقة العصر حينها، في تعليم أصحابه الكثير من المهن والصناعات والحرف، والتي كانت عاملاً في عمارة البلاد، حيث قام النبي ﷺ باستثمار الموارد البشرية وإمكاناتهم، وتوظيفها كل بحسب ما يجيد ويُتقن، ما أدى إلى ما يصلح به قوام حياتهم الحالية والمستقبلية، فيعود عليهم بالخير والأمن والرخاء .

ولا شك أنه ينبغي مراعاة لغة العصر، فلا بد من فكر جديد ومعاصر يواكب التطورات الحياتية وتكنولوجيا المعلومات إذا أردنا أن ننشئ أجيالاً كسواعد حقيقية لبناء الدولة، ولا بد من معالجة البناء الفكري في شتى المجالات (اقتصادياً- وتربوياً- واجتماعياً- وعلمياً، ... وهكذا)، الأمر الذي يتطلب جهداً جهيداً لإيصال هذه المعاني والمعارف لهم؛ من أجل إعداد أجيال قادرة على مسيرة البناء والتقدم، خدمة لوطنها ولأمتها .

محاربة الخرافات وتحصين الأجيال المستقبلية:

ولقد ظل الإسلام خلال العهدين المكي والمدني، يحارب الخرافة بالتعليم والتربية كلما أتاحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب، وهذا ما نحتاجه اليوم في عصرنا .

فبالتعليم والتربية أسس النبي ﷺ الأمة على محاربة الخرافات والدجل وما في معانيهما، وهو ما نحتاجه اليوم في عصرنا إذا أردنا أمة ناضجة في تفكيرها، مسددة في معارفها، مبتكرة في علومها، تدير المشهد بما يتناسب مع مستجدات العصر .

ولندرك جيداً أن الرسول ﷺ لا يباهي بالكثرة المتخلفة ، الجاهلة، الهزيلة ، الضعيفة ، بل يباهي بالكثرة القوية ، المنتجة ، العالمة ، فالأصل هو الكيف لا الكم، ومعلوم أننا نعيش زماناً ليس السباق فيه بعدد الأفراد، ولا باتساع الأراضى ، بل بالابتكار والإبداع والاختراعات، وبأصحاب العقول الواعية التي تستطيع أن تدرك حقائق الأمور، وتعمل على درء الفتن التي تتوالى بين الحين والحين ، وتضع الحلول التي من شأنها القضاء عليها ، فهذه هي الوسائل الرئيسة لأي تقدم وتنمية وتطور .

هيئة الدولة للتخطيط :

يعد التخطيط من أهم المسائل التي تتعلق بمستقبل الأمم والدول، حيث إنه يبحث عن التنمية والنمو والتقدم والنهضة، ولتحقيق هذا الأساس فقد تم تأسيس هيئة خاصة بالتخطيط في كل دولة كحل مستقبلي لمشكلات قائمة أو كوقاية من مشكلات متوقعة، وبالنظر في حياة

رسول الله ﷺ سجد هذا التخطيط، بل ما كانت فكرة تُقترح إلا وكان التطبيق لها عن طريقها، وعلى هذا النهج سار الصحابة بعد رسول الله ﷺ. فالنبي ﷺ حين أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وهي هجرة إلى دار أمن، كأنه استعرض صفحة الكون، فوجد أن جزيرة العرب كلها تدين لقريش؛ نظراً لعلاقات بينها خاصة التجارة، فخرج رسول الله ﷺ بنظرته العميقة خارج الجزيرة العربية، فوجد قوتين: الفرس، والروم، الفرس مستبعدة؛ لأنهم عباد نار، أما الروم فهم أهل كتاب، لكن من الممكن أن يكون لهم كتاب ولا يعملون بما فيه، فوصل بعد تخطيط عميق وحسن استكشاف إلى الحبشة وأمر أصحابه بالهجرة إليها؛ لأن لها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهذا تخطيط يحفظ به ﷺ أمن وأمان أصحابه. وفي المدينة أسس النبي ﷺ تخطيطاً يتناسب مع الظروف الجديدة في المدينة، من حيث التخطيط لإقامة دولة ذات مقومات راسخة، وذلك بالبحث عن عمل للمهاجرين للقضاء على البطالة، وإنشاء الأسواق للتنمية الاقتصادية للدولة، والحث على الزراعة والتجارة كمقومات رئيسة للاقتصاد.

حل المشكلات عن طريق الشورى :

إننا عندما نتأمل معنى هذا الوصف الدقيق الذي وصفت به السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، فقالت: (فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ)^(١)، سندرك وبكل يقين أن سياسته ﷺ للدولة وما يتعلق بها، وسياسته لبيته، وسلوكه بين أصحابه، ما هو إلا التزام بالقرآن الكريم.

(١) أخرجه مسلم في باب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرَضَ، (٥١٢/١).

وقد كان الرسول ﷺ يعلم الأمة من خلال أحاديثه أن الشورى تكليف وليست مجرد أمر يجوز الالتزام به أو لا ؛ ولأجل ذلك استخدم ﷺ حرف الـ "لام"، الذي يفيد الأمر، فقال: " إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيُشِرْ عَلَيْهِ" ^(١)، وجعل رسول الله ﷺ هذه المشورة مسؤلية تطلب ممن كان من أهلها ؛ لأن " الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ " ^(٢).

والشورى تكون في أمور الناس التي لم يرد فيها نص قطعي الثبوت والدلالة، والرسول ﷺ كان فيما يتعلق بشؤون الدولة هو حاكم ومجتهد، وكان في كل أمر يتعلق بالدولة يكون فيه المراجعة والشورى، فعندما كان ﷺ يدلي برأيه كان الصحابة يسألونه : يا رسول الله، أهو الوحي، أم الرأي والمشورة ؟ بمعنى : أهو دين ووحي فيكون علينا السمع والطاعة، أم هذا من أمر الدنيا والسياسة فيكون فيه الرأي والمشورة ؟ .

ولأجل ذلك وجدنا السيرة النبوية المشرفة تبرز لنا هذا الالتزام من رسول الله ﷺ بالشورى والتشاور في سياسة الدولة ، وفي كل شئونه ؛ حتى إن أبا هريرة (رضي الله عنه) قال : (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) ^(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب الأدب ، باب المستشار مؤتمن، (٦٨٢/٤) ، وعبد الرزاق في مصنفه ، (٢٠٠/٨) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في أبواب الأدب ، باب المستشار مؤتمن ، (٦٨١/٤) ، وأحمد في مسنده ، (٤٣/٣٧) .

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الجهاد ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمَشُورَةِ ، (٢١٣/٤) ، وأحمد في مسنده ، (٢٤٤/٣١) .

المشكلات الصحية والطب الوقائي :

إن عناية الرسول ﷺ بالصحة لم تكن أقل من عنايته بالعلم، وإذا كانت أصول الطب التي وصل إليها الإنسان بتجاربه تدور حول حفظ القوة وعدم مضاعفة المرض، والحماية من المؤذيات وكل ما يصيب الإنسان بالألم، فإننا نجد هذه الإشارات الدقيقة والعميقة للنبي ﷺ في كثير من الجزئيات والأمثلة التي تمثل هذه الأصول الطبية^(١).

ومن هنا وجدنا من فقه النبوة هذا الإجراء الوقائي الذي يهتم بحفظ صحة الإنسان وحمايته ووقايته من الوقوع في المرض؛ وذلك لأن الأهم من علاج المرض نفسه هو الوقاية منه، وكأنه ﷺ يعطينا درساً عظيماً في فقه الأولويات، الذي يقضي بتقديم الأهم على المهم، والمهم على غير المهم، وأن يُقدّم ما من حقه التقديم، وأن يؤخر ما من حقه أن يؤخر.

وقد جاءت أحاديث ونماذج كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ في علم الصحة، ولا سيما فيما يتعلق بـ " الطب الوقائي " الذي يشكل جزءاً مهماً من علم الطب، لذا فقد اهتم رسول الله ﷺ به وجعل أكثر وصاياه الطبية مركزة حول الطب الوقائي.

وعلى سبيل المثال: فقد كان مرض الطاعون منتشرًا في عهد الرسول ﷺ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يقف أمام هذا المرض القاتل؛ إذ كان بخطورة مرض الإيدز حالياً.

(١) منهج القرآن في بناء المجتمع، الشيخ محمود شلتوت، هدية مجلة الأزهر رمضان ١٤٣٦هـ، ص (٦١) بتصرف.

إلا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا على حذر من هذا المرض؛ لأن الرسول ﷺ كان ينبههم إليه ويحذرهم منه، فجاءت الإرشادات النبوية الواضحة في العلاج والوقاية والأمر بالتداوي والتحذير من العدوى، وكان الأمر بعزل المرضى عن الأصحاء، فقد جاء أن النبي ﷺ قال في الطاعون: " إِذَا كَانَ بَارِضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا وَإِذَا كَانَ بَارِضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَدْخُلُوهَا" (١)، ويشير الحديث إلى وقت حضانة المرض المعروف في لسان الأطباء .

فكان الصحابة (رضي الله عنهم) يعيشون بحرفية عالية، يحفظون أنفسهم وحياتهم وفق أعلى معايير الوقاية التي جاءت على لسان رسول الله ﷺ؛ بما يضمن لهم الحياة النظيفة الطاهرة، وإليك بعض النماذج :

– **مرض الجذام والحجر الصحي** : فقد قال رسول الله ﷺ : " فِرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ" (٢) . والفرار الوارد هنا ليس بمعناه الحرفي، وإنما أراد رسول الله ﷺ الوصاية لأمته بمكافحة هذا المرض، والبحث عن طرق الوقاية منه، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع سريانه وانتشاره، وهذا هو ما يسمى في عصرنا الحاضر بـ: **الحجر الصحي** .

– **ولوغ الكلب والتعقيم ضد الجراثيم** : إن بعض الأمراض التي تصيب الكلاب يمكن أن تصيب الإنسان ، بل وتعيش جراثيمه في جسده، كما

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، (٢١٥/٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجنائز ، بابُ الْوَبَاءِ يَقَعُ بِأَرْضٍ فَلَا يَخْرُجُ فِرَارًا مِنْهُ وَلَيْمَكْتُ بِهَا صَابِرًا مُحْتَسِبًا وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ لَيْسَ هُوَ بِهَا فَلَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ ، (٥٢٧/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، (٤٤٣/٢) .

أن براز الكلب ولعابه يمكن أن يكونا ضارين بصحة الإنسان، وإذا لم تؤخذ التدابير اللازمة في حينها فإن الأمراض السارية والمتنقلة بواسطتها لا يمكن علاجها بسهولة؛ لذا فإن عملية التعقيم مهمة جداً، وهذا ما حث عليه رسول الله ﷺ، حيث قال: " طَهُورُ إِنَاءِ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ، أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَوْلَاهُنَّ بِالتُّرَابِ " (١)، فالنبي ﷺ هنا أوصى باستعمال التراب في عملية التعقيم؛ إذ لم تكن المواد والأدوية المعقمة موجودة في تلك الأيام، إلا أنه بعد تقدم العلم، فقد تبين أن التراب يحتوي على مادتي " التتراليت " و " تتراسكلين "، وهاتان المادتان تستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم.

– **التوازن في الأكل والطب الوقائي** : ويظهر ذلك جلياً في قوله ﷺ: " مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ الْمَرْءِ أَكَلَاتُ يُقْمَنَ صَلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَتُلْتُ لِبَطْنِهِ، وَتُلْتُ لِشَرَّابِهِ، وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ " (٢).

– **النهي عن قضاء الحاجة من بول أو براز في الماء الذي يستعمله الناس** في وضوئهم واغتسالهم وسائر شؤونهم، وفي طريقهم الذي عليه يمشون، وفي ظلهم الذي به يستظلون، وموارد مياههم التي عليها يجلسون، ومن ذلك شواطئ الترعة والقنوات والأنهار " اتَّقُوا الْمَلَاعِينَ الثَّلَاثَ : الْبَرَازَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، (٢٣٤/١)، وأحمد في مسنده، (٤٢٧/٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه باب كراهية كثرة الأكل، (٥٩٠/٤)، والنسائي في السنن الكبرى، (١٧٨/٤).

فِي الْمَوَارِدِ، وَالظَّلِّ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ" (١).

وأطلق الرسول ﷺ عليها الملاعن ؛ لأنها تسبب لعن الناس لمن يفعلها، وقد ثبت طبيًا أن هذا الصنيع مع قذارته وتقرز النفوس منه يولد أمراضًا وبائية، كما يولد أمراض الإنكلستوما، والدوستاريا.

– التحذير من ترك أواني الطعام والشراب مكشوفة : قال ﷺ: " أَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ إِذَا رَقَدْتُمْ، وَغَلِّقُوا الْأَبْوَابَ، وَأَوْكُوا الْأَسْقِيَةَ، وَخَمِّرُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ " (٢)، أي : غطوا الطعام واربطوا قرب الماء ؛ وذلك حفظًا للطعام والشراب من سقوط الحشرات المؤذية التي تولد جراثيم المرض، وهذا كله من باب الوقاية والتحفظ من الأمراض وأسبابها .

– الحث على نظافة الفم وطهارته بالمضمضة والاستنشاق واستخدام آلة لتنظيف الأسنان؛ حفظًا للفم والأنف والأسنان، ومن كلام النبي ﷺ في السواك: " مَا لَكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحًا اسْتَاكُوا، فَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَيَّ أُمَّتِي، لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ، عِنْدَ كُلِّ طُهُورٍ " (٣)، يريد تبيئتهم على دخولهم عليه وأسنانهم مصفرة، تنبعث منها الرائحة، وفي السواك أيضًا يقول: " لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَيَّ أُمَّتِي أَوْ عَلَيَّ النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ " (٤). وكلنا

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب الطهارة وسنها، بابُ النَّهْيِ عَنِ الْخَلَاءِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، (٢١٨/١)، وأحمد في مسنده، (٢١٤/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، بابُ تَغْطِيَةِ الْإِنَاءِ، (١١٢/٧) .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٦٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، بابُ السَّوَاكِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، (٤/٢)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب السواك، (٢٢٠/١) .

يعرف شدة حرص الأطباء وكثرة وصاياهم على تنظيف الأسنان التي
تولد قذارتها أنواعاً من الأمراض في كثير من الأجهزة .
هذه بعض النماذج للطب الوقائي في عهد رسول الله ﷺ ، وقد
أثبت الطب صحتها وعظم نتائجها في الوقاية وحفظ الصحة.

* * *

الباب الثاني الجوانب الإدارية في السيرة النبوية

الفصل الأول

شواهد السيرة النبوية في فقه إدارة الموارد البشرية

إدارة البلدان:

ترجع الأسس العامة لإدارة البلدان إلى ما بعد فتح مكة (سنة ٨ هـ)؛ إذ امتدت دولة الإسلام تدريجياً إلى المناطق المجاورة إلى أن شملت مكة ثم بلاد الحجاز والجزيرة العربية كافة، وكان للرسول ﷺ الرئاسة العامة في أمور الدين والدنيا، وسلطاته الإدارية تشمل الدولة كلها فيما يتعلق بتحديد الأهداف ورسم السياسات العامة.

وقد شارك الرسول ﷺ في إدارة الدولة مجموعة من خيرة الصحابة الذين يشهد لهم بالعقل والفضل والبصيرة، واختير هؤلاء الرجال من أولئك السابقين إلى الإسلام والذين لهم نفوذ وقوة في أقوامهم، وجاء في مقدمة هؤلاء العاملين في الميدان الإداري سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، ويلاحظ أن بعض المصادر أطلقت عليهم اسم النقباء، فعن عبد الله بن مليل قال: سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليس من نبيّ كان قبلي إلا قد أُعطي سبعة نقباء وزراء نجباء، وإني أعطيت أربعة عشر وزيراً نقيباً نجيباً، سبعة من قريش، وسبعة من المهاجرين" ^(١)، في حين أطلق عليهم بعض المحدثين اسم «مجلس

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٨/١).

الشورى» أو «مجلس النقباء»^(١).

اتخاذ الوزراء :

وكان النبي ﷺ غالباً ما يستشير أبا بكر ، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) ، وكان يستشير الاثني عشر والثلاثة ، وكما فعل في يوم الأحزاب إذ استشار سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، واستشار أسامة بن زيد ، وعلي بن أبي طالب في فراق أهله .

ولقد استشار النبي ﷺ جمهور الناس عن طريق ممثلين عنهم كما حدث بعد يوم حنين ، إذ قدم وفد هوازن مسلماً إلى النبي ﷺ ، فطلب النبي ﷺ من الناس أن يعطوا رأيهم في ردّ المغنم التي غنموها فاختلف الناس^(٢) ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَأَتَتْهُ عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : " أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُرَدَّ إِلَيْهِمْ سَبِيهِمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيَّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ " ، فَقَالَ النَّاسُ : قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرْفَاؤَكُمْ أَمْرُكُمْ " فَارْجَعَ النَّاسُ ، فَكَلَّمَهُمْ عُرْفَاؤُهُمْ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا"^(٣).

(١) الإدارة في عصر الرسول ﷺ ، أحمد عجاج كرمي ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ، دار السلام ، القاهرة ،

ص (٩٣) .

(٢) السيرة ، لابن هشام ، (٢/٤٨٨-٤٨٩) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة ، باب إذا وهب شيئاً لوكيل أو شفيع قوم جاز (٩٩/٣) .

وقد أطلقت بعض المصادر على أولئك الذين استشارهم النبي ﷺ بشكل كبير اسم «الوزراء»، فعن ابن المسيب أنه قال: «كان أبو بكر الصديق من النبي ﷺ مكان الوزير، فكان يشاوره في جميع أموره»^(١). وبهذا المعنى كان أبو بكر يفوض عن النبي ﷺ في بعض القضايا، فقد أخرج البخاري أن امرأة أتت النبي ﷺ، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تقول: الموت، قال ﷺ: "إن لم تجدني فاتي أبا بكر"^(٢).

من الوظائف الإدارية:

أشارت المصادر إلى مجموعة من الوظائف الإدارية، نذكر منها ما يلي:
- هناك من كان يعمل (حاجباً) لرسول الله ﷺ، وكان يقوم بالإذن عليه في بعض الأوقات، وهناك إشارات تبين أن سفينة ورباح الأسود (من موالي رسول الله ﷺ)، وأنس بن مالك، قاموا بهذه المهمة بتكليف من الرسول ﷺ^(٣).

- وكانت هناك وظائف إدارية ذات طبيعة إعلامية وهي وظيفة (الشعراء والخطباء)، فكان هؤلاء يذودون عن رسول الله ﷺ بالسنتهم، ويعيبون على قريش عبادتهم للأصنام، ويردون على شعراء المشركين وخطبائهم، وبذلك كانوا يمثلون بشعرهم حرباً إعلامية شديدة التأثير في بيئة قبلية احتل الشعراء والبلغاء فيها مكانة خاصة، وكان من أشهر

(١) التراتيب الإدارية (١/٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ باب قول النبي ﷺ «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا» (٥/٥).

(٣) تاريخ الطبري، ط ٢، ١٣٨٧، دار التراث، بيروت، (٣/١٧١-١٧٢).

هؤلاء حسان بن ثابت، وكان النبي ﷺ يشجعه في إبراز محاسن الإسلام،
والذود عن حرماته، فقد أخرج مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول: " يَا
حَسَّانُ أَجِبْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ " (١).

- وكان لشعر عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك (رضي الله
عنهما) دور كبير في المعارك المختلفة، فكانت مهمتهم أن يحرضوا
المجاهدين على القتال، وأن يتصدوا للمشركين وشعرائهم (٢).

- وكان ثابت بن قيس الخزرجي يقوم بمهمة (الخطابة)، فيرد
على خطباء الوفود، وقد وفد بنو تميم إلى النبي ﷺ عام (٩ هـ)، فقام
شاعرهم وخطيبهم، فقالا شعراً ونثراً، فأمر النبي ﷺ حسان بن ثابت،
وثابت بن قيس بإجابتهما ففعلا (٣).

- وذكرت المصادر عدداً ممن أنابهم الرسول ﷺ على إدارة
المدينة في حالة خروجه (٤)، ويلاحظ من جريدة الأسماء التي اختارها

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل حسان بن ثابت،
(١٩٣٣/٤).

(٢) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص (٩٦).

(٣) تاريخ الطبري، (١١٦/٣).

(٤) من هؤلاء سعد بن عباد في يوم ودان (١ هـ)، وسعد بن معاذ في يوم بواط، وأبو سلمة بن
عبد الأسد في يوم ذي العشيرة، وأبو لبابة «بشير بن عبد المنذر» في يوم السوق، ويوم
قينقاع، وعثمان بن عفان في يوم ذي أمر، ويوم غطفان، وذات الرقاع، وسباع بن عرفطة
في يوم دومة الجندل ويوم خيبر، وعلي بن أبي طالب في يوم تبوك، وأبو دهم بن
الحصين في يوم الفتح وغيرهم. انظر هذه الأيام لبيان هذه الإنابة المشار إليها كل في
موضعه، السيرة لابن هشام، والطبقات لابن سعد.

الرسول ﷺ لذلك أنه لم يقتصر على اختيار شخص معين ، ولكن بقيت الكفاءة والأمانة والقدرة هي أسس الاختيار والتولية^(١).

- وكانت «مكة» وحدة إدارية، انضمت إلى الدولة الإسلامية في السنة الثامنة للهجرة بعد الفتح ، وعين عليها النبي ﷺ عتاب بن أسيد بن أبي العاص والياً، فعن مُعَاذِ بْنِ أَبِي الْحَارِثِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ اسْتَعْمَلَ عَتَابَ بْنَ أُسَيْدٍ عَلَى مَكَّةَ قَالَ: « هَلْ تَدْرِي عَلَى مَنْ اسْتَعْمَلْتُكَ؟ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى أَهْلِ اللَّهِ»^(٢).

- وكانت الطائف - بعد إسلامها (٩ هـ) - وحدة إدارية، واستعمل النبي ﷺ على إدارتها (عثمان بن أبي العاص) ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَكُتِبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَتَابَهُمْ، أَمَرَ عَلَيْهِمُ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ - وَكَانَ مِنْ أَحَدِيهِمْ سِنًّا - وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ أَحْرَصَهُمْ عَلَى التَّفَقُّهِ فِي الْإِسْلَامِ وَتَعْلَمَ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ هَذَا الْعُلَمَاءَ فِيهِمْ مِنْ أَحْرَصِهِمْ عَلَى التَّفَقُّهِ فِي الْإِسْلَامِ وَتَعْلَمِ الْقُرْآنَ^(٣) ، وكانت قد جرت عادة الرسول ﷺ منذ عام الوفود (٩ هـ) أن يختار من بين الوافدين عليه أصلحهم لتولي شؤون المنطقة التي ينتمي إليها الوفد، وذلك بما يتوافر لهذا الأمير من مؤهلات دون النظر للسن، وعلى أساس ذلك كان اختيار عثمان لإدارة شؤون الطائف^(٤).

(١) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص (٩٨) .

(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، للأزرقي، تحقيق ، رشدي الصالح، دار الأندلس للنشر، بيروت، (١٥٣/٢) .

(٣) تاريخ الطبري (٩٩/٢) .

(٤) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص (٩٩) .

- وكانت «اليمن» وحدة إدارية ، وكانت قبل الإسلام تتبع فارس، وولي أمرها من قبل كسرى باذان بن ساسان، فأسلم وحسن إسلامه وأصبح أهلها جزءاً من رعايا الدولة الإسلامية. فأبقى النبي ﷺ باذان على إدارتها، ولم يشرك معه فيها أحداً حتى وفاته (ت ١٠ هـ) فرأى النبي ﷺ بعد وفاة باذان أن يقسم اليمن إلى عدد من الأقسام الإدارية، فكانت «صنعاء وأعمالها» وحدة إدارية، وجعلها لشهر بن باذان، وبعد مقتله تولى إدارتها خالد بن سعيد، وكانت «مأرب» وحدة إدارية وجعلها لأبي موسى الأشعري، وتشمل منطقة زبيد وعدن ورمخ والساحل، وكانت «الجند» وحدة إدارية، وجعلها لمعاذ بن جبل، في حين يرى ابن خلدون أن الجند كانت ليعلى بن أمية^(١)، وهكذا فقد كان النبي ﷺ يختار من أصحابه أهل الكفاءة لمكافأة متطلبات الوظيفة وحاجاتها.

- وهكذا صنع رسول الله ﷺ مع العديد من الوحدات الإدارية ، كنجران والبحرين ، وحضرموت ، والصدف ، وقرى عرينة (تبوك وخبير وفدك) ، ووادي القرى، وجرش، ودبا، ووادي العقيق، وغيرها^(٢).

تحديد القيادات البشرية وتحديد الصلاحيات :

التطور الإداري :

إن المتأمل في سيرته ﷺ يرى منهجية التخطيط، وتحديد الأهداف، وتنظيم الوسائل، وتوظيف الطاقات، وإحكام العملية الإدارية

(١) تاريخ ابن خلدون ، تحقيق ، خليل شحادة، ط ٢، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، دار الفكر، بيروت، (٢٦/٢) .

(٢) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص (١٠٠-١٠٢)

في كل مراحل الدعوة وفي هجرته إلى المدينة؛ مما يُعطي صورة مشرفة لعملية التخطيط من بدايتها إلى نهايتها، فقد حدد الرسول ﷺ أهدافها ووسائلها، ووظف الطاقات المتاحة لمن حوله، كل فيما يُحسنه، بل إنه بعد هجرته ﷺ إلى المدينة طلب من أصحابه أن يقوموا بعمل إحصاء لعدد المسلمين، فأحصوا فكانوا ألفاً وخمسمائة، عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اَكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالْإِسْلَامِ مِنَ النَّاسِ»، فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ^(١)، وذلك لتكون لديه ﷺ معرفة عمليّة دقيقة، ولتكون موافقه مبنية على دراسة وبيّنة، ومن ثمّ يبدأ في توزيع المهام وتعليم المهن والصناعات والحرف .

كتاب النبي ﷺ:

وعندما جاء الإسلام أراد النبي ﷺ أن ينظم أمر الحكومة التي أنشأها في المدينة، فاستعان بعدد كبير من أصحابه الذين يعرفون القراءة والكتابة، وقد قسم النبي ﷺ هؤلاء الكتاب إلى مجموعات تخصصية^(٢)، ومن ذلك " كاتب العهود، وكاتب المغازي، وكاتب بين القبائل، وكاتب يجيب الملوك، وكاتب على أموال الصدقات، وكاتب على المداينات والمعاملات، ومسئول عن التوقيعات إلى الملوك، وترجمان، وغير ذلك.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط / بابُ كِتَابَةِ الْإِمَامِ النَّاسِ، (٢٢/٤) .

(٢) انظر: الإدارة الإسلامية في عز العرب، محمد كرد، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م، مطبعة مصر، القاهرة، ص (١٣-١٥)، والإدارة في عصر الرسول، ص (١١٨-١٢٣).

وقد بلغ كتاب الرسول ﷺ اثنين وأربعين رجلاً، منهم : أبو بكر، وعمر، وعثمان، والزبير، وحنظلة الأسيدي، والعلاء بن الحضرمي، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة، وعمرو بن العاص ، وغيرهم .
ولقد بلغ من اهتمام النبي ﷺ بالجهاز الإداري الكتابي أن عين خليفة لكل كاتب إذا غاب عن عمله، وذلك حتى لا تتعطل حاجات الدولة الإدارية لغياب كاتب بسبب مرض أو غيره.

إدارة العلاقات الدبلوماسية :

لقد استخدمت كلمات معينة في عصر الرسالة وهي (السفارة، والرسول، والبريد) ، وكانت العلاقات التي أقامها الرسول ﷺ مقصورة على المحادثات الشخصية، وإرسال الكتب، وإيفاد البعثات إلى القبائل وإلى الملوك للتعريف بالإسلام والدعوة إليه، ومن هنا فإن وظيفة البريد (السفارة) كانت من الوظائف الإدارية المهمة التي لاقى اهتماماً كبيراً من جانب الدولة، وكان ما وصلنا من كتب وموثيق ومعاهدات قام بإبرامها النبي ﷺ يتجاوز المائتين وخمسين كتاباً، وشملت معاهدات مع اليهود والنصارى، وعقود صلح بين النبي ﷺ والقبائل، وكتب إقطاع وأمان، ورسائل دعوة إلى رؤساء القبائل والملوك والأمراء، مما يجعلنا نؤكد على أن سفارات الرسول ﷺ وكتبه كانت عملاً بديعاً من أعمال الدبلوماسية والعلاقات الدولية^(١) .

(١) الإدارة في عصر الرسول ، ص (١٢٨) .

وقد كان من هؤلاء الرسل الذين بعثهم النبي ﷺ إلى الملوك، وأرسل معهم كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام : دحية بن خليفة الكلبي ، وعبد الله بن حذافة السهمي ، وعمرو بن أمية الضمري ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وعمرو بن العاص ، وسليط بن عمرو ، والعلاء بن الحضرمي ، وشجاع بن وهب الأسدي ، وغيرهم (١) .

وقد نهج النبي ﷺ في اختيار رسله أمراً لا يخرج عن المؤلف والعرف الجاري لدى الدبلوماسية الحديثة، من تبادل السفراء، ومراعاة الأناقة، وجمال الخلقة، والكفاءات الممتازة بصفاتهم ممثلين لأمتهم؛ ولذلك فإن النبي ﷺ بعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، ويشير إلى ذلك ابن قتيبة بقوله: «إن جبريل كان يجيء على صورة دحية الكلبي؛ لأن دحية كان من أجمل أهل زمانه، وأحسنهم صورة»، وهذا يصدق على بقية رسله فكان معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن حذافة، وعمرو بن العاص، وغيرهم من «أعقل الصحابة وأجملهم صورة، وأحسنهم حديثاً، وأطلقهم لساناً وقوة حجة»، وكان هؤلاء الرسل من أولئك المشهورين في المجتمع الإسلامي الذين نبهوا في العلم أو الكتابة أو الإدارة، وقد بلغ من حرص النبي ﷺ على قواعد الدبلوماسية هذه أن قال: «إن أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم» (٢).

(١) السيرة لابن هشام، (٦٠٧/٢) .

(٢) انظر : عيون الخبار، لابن قتيبة الدينوري، ط ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (٢٣٦/١)، وأبعاد إدارية واقتصادية واجتماعية في السيرة النبوية، عبد العزيز بن إبراهيم =

القضاء في عهد الرسول ﷺ:

لقد نبتت نواة القضاء عند العرب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام تولى الرسول ﷺ الفصل في الخصومات، كما يتبين ذلك من الحلف الذي عقده بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين، وفيه يقول: "وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادَهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" (١).

فكان ﷺ قاضيًا، كما كان للشريعة مُبلِّغًا، وقد كان النبي ﷺ، يعهد بالقضاء إلى بعض الولاة ضمن توليتهم أمور الولاية، وتارة يعهد إلى بعض أصحابه بغض بعض الخصومات.

وكانت طرق الإثبات عنده ﷺ في القضاء (البينة، واليمين، والشهود، والكتابة، والفراصة، وغيرها)، وكان ﷺ يقول: "الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِلَّا فِي الْقَسَامَةِ" (٢)، والْبَيِّنَةُ فِي الشَّرْعِ: اسْمٌ لِمَا يُبَيِّنُ الْحَقَّ وَيُظْهِرُهُ، بِمَعْنَى أَنْ الْمُدَّعِيَّ مَلْزَمٌ بِإِظْهَارِ مَا يَبِينُ صِحَّةَ دَعْوَاهُ، فَإِذَا أَظْهَرَ صَدْقَهُ بِأَحَدِي الطَّرِيقِ، حُكِمَ لَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "أَمَرْتُ أَنْ أُحْكَمَ بِالظَّاهِرِ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ" (٣).

= العمري، ص (٦٧)، ومعجم مصطلحات التاريخ والحضارة، أنور محمود زنتي، ط١،

٢٠١١م، دار زهران، الأردن، ص (٢٤٣).

(١) السيرة، لابن هشام، (٥٠٤/١).

(٢) أخرجه الدار قطني في سننه، كتاب الحدود والديات وغيره، (١١٤/٤)، والبيهقي في السنن الصغير، كتاب الديات / بَابُ الْقَسَامَةِ، (٢٥٧/٣).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده، باب الإيمان والإسلام، (١٣/١).

ولقد كان ﷺ لا يحابي أحداً من المتخاصمين، ومما أثر عنه في ذلك ما جاء عن عليٍّ عليه السلام، قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُرْسِلُنِي وَأَنَا حَدِيثُ السِّنِّ، وَلَا عِلْمَ لِي بِالْقَضَاءِ، فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ، وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ، فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ، فَلَا تَقْضِينَ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الْآخِرِ، كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ" (١).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَخْطَأَ كَانَ لَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ كَانَ لَهُ أَجْرَانِ" (٢).

وقد قال صاحب الترايب الإدارية: لا ننكر أن التمدن الإسلامي جرى مجرى النشوء الطبيعي في كل شيء، وسار سيراً تدريجياً إلى أن وصل إلى أوجه في السمو، فمن لم يتأمل ذلك ولم يحط نظراً في الموضوع بما له وعليه، لا بد أن يغيب عن علمه ما بلغته الإدارات، والعمالات والصناعة والتجارة في تلك السنوات العشر، التي قضاها ﷺ

(١) أخرجه أبو داود في أول كتاب الأفضية / باب كيف القضاء، (٤٣٤/٥)، والبيهقي في السنن الكبرى، باب القاضي لا يقبل شهادة الشاهد إلا بمحض من الخصم المشهود عليه، ولا يقضي على الغائب، (٢٣٦/١٠).

(٢) المعجم، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، تحقيق، إرشاد الحق الأثري، ط ١٤٠٧هـ، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، (١٩٤/١)، والمنتقى من السنن المسندة، أبو محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري المجاور بمكة، تحقيق، عبد الله البارودي، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، (٢٩٤/١).

في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية، وأن الترقى وال عمران وصل فيها إلى إحداث ما يعرف من الوظائف اليوم في إدارة الكتابة والحساب والقضاء والحرب والصحة ونحو ذلك^(١).

النظم الاقتصادية :

أولاً : الزراعة :

لقد اهتم النبي ﷺ بتنظيم أمور الزراعة اهتماماً كبيراً ، فأمر باستغلال الأراضي الزراعية، فقال: " مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً، فَهِيَ لَهُ. " ^(٢)، وكره ﷺ أن يمسك أحد أرضاً دون استغلالها، فقال: " مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَحْرُثْهَا، فَإِنْ كَرِهَ أَنْ يَحْرُثَهَا، فَلْيَمْتَحِهَا أَخَاهُ، فَإِنْ كَرِهَ أَنْ يَمْتَحِهَا أَخَاهُ، فَلْيَدَعَهَا " ^(٣)، وقال أيضاً: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ " ^(٤).

لقد نظمت الزراعة في عهد الرسول ﷺ تنظيمًا كبيراً، فقد زرع النخيل في بساتين سميت بالحوائط^(٥)، وأوردت المصادر عددًا من

(١) التراتيب الإدارية ، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة، محمد عبد الحي بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني، تحقيق : عبد الله الخالدي، ط٢، دار الأرقم، بيروت (١٢/١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في إحياء الموات ، (٦٨٠/٤).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب البيوع ، باب، في النهي عن المُخَابَرَةِ ، (١٧٠٧/٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المزارعة ، باب فَضْلُ الزَّرْعِ وَالغَّرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ ، (١٠٣/٣) ، ومسلم في كتاب المساقاة، باب فَضْلِ الغَّرْسِ وَالزَّرْعِ ، (١١٨٩/٣).

(٥) لسان العرب ، (٢٧٩/٧-٢٨٠).

أسماء هذه الحوائط، منها حوائط مخيريق السبعة، وحائط أبي الدحاح الذي تصدق به على المسلمين»^(١).

كما أقطع رسول الله ﷺ أناساً أرضاً لغرض «إحياء الأرض الموات» فأقطع أبيض بن حمال المازني الملح الذي بمأرب، وسليط الأنصاري أقطعه أرضاً ليحييها، ولكنه عاد واستأذن الرسول ﷺ بالتخلي عنها فأقطعها الزبير ﷺ^(٢)، وكذلك أقطع أرضاً لغرض «السكن»، فقد أقطع لبني زهرة من ناحية مؤخرة المسجد، وجعل للزبير بن العوام بقيعاً واسعاً، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع داره، وكذلك فعل بالنسبة إلى أبي بكر وعثمان وغيرهم من الصحابة^(٣).

ولا شك أن هذه الأراضي التي أقطعها النبي ﷺ لآخرين لم تكن حقاً لأحدٍ، بل كانت من الأراضي التي لم يكن لها مالك، فيروي ابن سعد أن حريث بن حسان الشيباني سأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً بالدهناء، خاصة دون تميم، وكانت الدهناء مرعى لبني بكر بن وائل وتميم، فوافق الرسول ﷺ وهمم بالكتابة إليه، إلا أن امرأة تدعى قبلة بنت مخزومة كانت في وفد تميم قالت لرسول الله ﷺ: إِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْكَ السَّوِيَّةَ مِنَ الْأَرْضِ إِذْ سَأَلَكَ، إِنَّمَا هَذِهِ الدَّهْنَاءُ عِنْدَكَ مُقَيَّدُ الْجَمَلِ وَمَرْعَى الْعَنَمِ،

(١) المغازي، للواقدي، (٢٦٢/١).

(٢) الخراج وصناعة الكتابة، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج، ط١،

١٩٨١م، دار الرشيد للنشر، بغداد، ص (٢١٥).

(٣) البلدان، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه،

تحقيق، يوسف الهادي، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، عالم الكتب، بيروت، ص (٨١٩).

وَنِسَاءٌ تَمِيمٌ وَأَبْنَاؤُهَا وَرَاءَ ذَلِكَ! فَقَالَ: أَمْسِكْ يَا غُلَامُ^(١)، وهذا من فعله ﷺ بطريق الإمامة.

في قوله ﷺ: " مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ " ^(١)، فقد قال الإمام أبو حنيفة: هذا منه ﷺ تصرفاً بالإمامة، فلا يجوز لأحدٍ أن يحيي أرضاً إلا بإذن الإمام، لأن فيه تمليكاً، فأشبهه الإقطاعات، والإقطاع يتوقف على إذن الإمام، فكذلك الإحياء، وعليه فلا يجوز لأحد أن يضع يده على قطعة أرض، ثم يقول: أحيتها، فهي لي، وبيني وبينكم حديث رسول الله ﷺ؛ وذلك لأن تصرف النبي ﷺ هنا ليس من جهة أنه مبلغ، بل من جهة كونه إماماً وحاكماً، ولا يجوز لغير الحاكم إصدار مثل هذا القرار المتعلق بالحق العام، أو المال العام، أو الملك العام، وإلا لصارت الأمور إلى الفوضى وفتحت أبواب لا تسد من الفتن والاعتداء على الملك العام ^(٣).

ثانياً: التجارة :

لقد عني النبي ﷺ بالدعوة إلى الاشتغال بالتجارة عنايته بالدعوة إلى الزراعة، حيث شعر النبي ﷺ في وقت مبكر بضرورة إنشاء سوق تجارية للمسلمين، يستطيع من خلالها أن يخلص الاقتصاد المدني من سيطرة اليهود وجشعهم، وكانت هذه السوق مكشوفة، وبيع فيها إنتاج المدينة والبوادي المجاورة وما يأتي إليها من الخارج، وذلك في إطار إجراءات شرعية تنظيمية كان على التجار الالتزام بها.

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، (٢٤٢/١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في إحياء الموات، (٦٨٠/٤).

(٣) الفهم المقاصدي للسنة، د. محمد مختار جمعة، ص (٦٥-٦٦).

ونستطيع أن نبرز السمات العام للتجارة التي أرساها النبي ﷺ؛ حيث نهى عن الاحتكار والخداع، والغش، والحلف، إلى غير ذلك من التشريعات والآداب التي نظمت عمليات البيع والشراء في سوق المدينة.

ثالثاً : الصناعة :

إن العمل في الإسلام ليس منحصرًا أو مختزلاً في تنفيذ الأحكام الشرعية، بل يشمل جميع أصناف العمل الدنيوي، وجميع ضروب الصناعة والتصنيع، ومن هنا فما يُرجى من كل مؤمن أن يتقن عمله كل الإتقان، كما قال ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ" (١). ولعل من أولى أمور الصناعة التي اهتم بها المسلمون «صناعة البناء» إذ احتاج المهاجرون إلى مساكن يسكنونها في المدينة، فخط لهم النبي ﷺ الخطط، وحدد لهم الأماكن التي يبنون عليها، كما أن هناك مجموعة من الأبنية أسست بعد الهجرة منها المسجد النبوي الشريف بالإضافة إلى أن النبي ﷺ كان يخط المساجد في منازل القبائل المختلفة ويوجه لهم القبلة، ويختار الأرض الصالحة للمسجد، ويحددها لهم، فقد خط رسول الله ﷺ لجهينة مسجدهم في المدينة (٢).

لقد كان للنبي ﷺ مجموعة من التوجيهات التنظيمية في البناء استفاد منها الصحابة، كما أخذ عنها الفقهاء بعض الأحكام الفقهية مثل

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (٢٧٥/١) حديث رقم (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، (٣١٩/٤).

(٢) الإدارة في عصر الرسول، ص (١٧٤).

تقديم من جيد العمل على من لا يجيده بصرف النظر عن تقوى كل منهم، فقد وفد رجل من بني حنيفة إلى النبي ﷺ وكان الرجل ممن يحسنون خلط الطين. وكان النبي ﷺ يعمل مع الصحابة في المسجد، فقال: "دعوا الحنفي فإنه أضبطكم للطين"، فأخذ المسحاة وأخذ يعالج الطين ويخلطه والرسول ينظر إليه ويقول: "إن هذا الحنفي لصاحب طين"^(١).

ولقد كان لهذه التعاليم النبوية المشرفة الأثر البالغ في نفوس المسلمين، فأقبلوا على أنواع الصناعات، يتقنونها ويحاولون التفوق فيها على غيرهم من الشعوب.

واشتهرت الكثير من الصناعات في عهد رسول الله ﷺ، كصناعة الحدادة، والصبغة (الحلي)، وظهرت مهنة الخياطة، وغيرها^(٢).

استخدام الكفاءات المناسبة في المكان المناسب :

إن رسول الله ﷺ، قد أعطانا نموذجاً عملياً يتعلق باستخدام الكفاءات في المكان المناسب لها، فقد كان ﷺ - هو القدوة لنا - يستعمل كل فرد في موضعه الصحيح، وفي مكانه المناسب، فيعطي لكل فرد الوظيفة التي تناسبه وتلائمه؛ وذلك للاستفادة القصوى من قدراته وقابليته وطاقاته وعدم وقوعه في أي خطأ، فرسول الله ﷺ كان إذا استخدم أحداً لمهمة ما، يختار أنسب الأشخاص الموجودين لتلك المهمة وإجراءاته شاهدة على هذا؛

(١) التراتيب الإدارية، (٥٧/٢).

(٢) الإدارة في عصر الرسول، ص (١٧٤) وما بعدها.

ولذلك لما جاءه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه يطلب الإمارة ، ماذا قال له رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: يا أبا ذر! إنك ضعيف. وإنما أمانة ، وإنما يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها ^(١).

إدارة الأزمات:

إذا كانت الأزمة يراد بها : كل تهديد قد يلحق الأذى بالأشخاص، أو الممتلكات، أو يؤدي إلى تعطيل سير العمل، فإن إدارتها تعني فن السيطرة على مثل هذه المواقف من خلال استشعار ورصد المتغيرات التي أدت إلى حدوثها، وهذا يعتمد على التأصيل للماضي، وقراءة الحاضر، فيصل إلى التنبؤ بالمستقبل، ويكون على استعداد لحل الأزمات الحادثة أو التي قد تحدث.

وقد كان صلى الله عليه وآله يعالج الأزمات بمزيد إعداد وترتيب وتخطيط وتهيئة تليق بالتعامل مع الأزمة التي تطرح، فيكون أولاً صاحب رؤية صحيحة لحقيقة الأزمة ؛ حتى يكون قادراً على التحليل السريع لها، وتقدير المواقف المتلاحقة والسريعة التي من المحتمل أن تنتج عنها، ونحن لا بد وأن نتعلم ذلك تطبيقاً من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيكون لدينا أكبر قدر نستطيع أن نصل إليه من المعلومات المتعلقة بالأزمة، ثم نتمثل أعلى درجات الدقة في تقديرها ؛ لأن ذلك يوصلنا إلى تحليل الموقف جملة،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (١٤٥٧/٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي ، (٩٥/١٠) .

ومن ثم نستطيع أن نضع خطة نواجه بها تلك الأزمة وفقاً لتقديرنا
وتحليلنا لها ^(١) .

* * *

(١) إدارة الأزمات ، د/ محمد الشافعي ، ط٢، ٢٠٠٣م ، مركز المحروسة للنشر والخدمات
الصحفية والمعلومات ، ص (٧٥-٧٧) بتصرف .

الفصل الثاني استراتيجيته ﷺ في صد العدوان

لقد فُرض القتال في الإسلام لغاية رئيسة رصينة ؛ ليكون أداةً للدفاع عن النفس ، وصدّ العدوان، ورفع الطغيان ، والدفاع عن الدين والوطن والدولة^(١).

ومع عدالة القتال الدفاعي الذي اضطر إليه المسلمون ، ومع وقوفهم في هذا القتال عند حدود رد العدوان ، ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٢) ، فلقد وضع النبي ﷺ ضوابط وأخلاقاً ، صاغها ﷺ (دستوراً أخلاقياً) ظهر تطبيقاً لأول مرة في تاريخ الحروب والقتال قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، ومن ذلك :

- لا يجوز قتال قوم إلا بعد إعلامهم، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَحَارَبَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾^(٣) ، ولقد طبق المسلمون هذا التشريع القرآني ، ولا يتوجه القتال للمسالمة من غير المقاتلين من الأعداء، فالقتال فقط ضد المقاتلين .

(١) انظر تأصيلاً لمفهوم الجهاد : مفاهيم يجب أن تصحح، د. عبد الله النجار، د. محمد سالم أبو عاصي، مراجعة أ.د محمد مختار جمعة، ط٧، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، طبع بمطابع وزارة

الأوقاف ، ص (٣٩-٤٥).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (١٩٠) .

(٣) سورة الأنفال ، آية رقم (٥٨) .

- تحريم الخيانة في المغانم، والسرقه من أموال المحاربين،
وتحريم الغدر حتى بالأعداء أثناء القتال ، وتحريم التمثيل بالقتلى ؛
احتراماً لكرامة جثث القتلى.

- وقد جاءت هذه الأوامر كلها من رسول الله ﷺ للمقاتلين ؛ لتقرر
معالم الدستور الأخلاقي في الحروب ؛ فعن سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ،
قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي
خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: " اغزُوا بِاسْمِ
اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغزُوا وَلَا تَعْلُوا، وَلَا تَعْدِرُوا، وَلَا
تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا " (١) .

- ولقد صاغ سيدنا أبو بكر ﷺ كل هذه الوصايا التي تمثل
الدستور الأخلاقي في الحروب والقتال، مما تعلمه من رسول الله ﷺ،
حين قال لأحد أمراء جيشه : إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ
لِلَّهِ ﷻ ، فَذَرَهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا
عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعْرِ ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ ، وَإِنِّي
مُوصِيكَ بِعَشْرٍ : لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً ، وَلَا صَبِيًّا ، وَلَا كَبِيرًا هَرَمًا ، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا
مُثْمِرًا ، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا ، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً ، وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَا كَلْتَهُ ، وَلَا تَحْرِقَنَّ
نَخْلًا ، وَلَا تُعْرِقَنَّه ، وَلَا تَعْلُلْ ، وَلَا تَجْبُنْ (٢) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث، ووصيته
إياهم بأداب الغزو وغيرها ، (٣/١٣٥٧) .

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير ، ص (٩٥) وما بعدها .

وبقراءة دقيقة لما سبق، نستطيع أن نبرز أهم شروط وضوابط
الجهاد في الإسلام، والتي منها :

- النبل والوضوح في الوسيلة والهدف .
- لا قتال إلا مع المقاتلين ولا عدوان على المدنيين .
- إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على
الظالمين .

- المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق
بالإنسان .

- المحافظة على البيئة ، ويدخل في ذلك النهي عن قتل
الحيوان لغير مصلحة ، وتحريق الأشجار ، وإفساد الزروع والثمار والمياه ،
وتلويث الآبار، وهدم البيوت .

- المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان
وعدم التعرض لهم^(١) .

الآثار المترتبة على صد العدوان :

إن التعبير بالإذن في القتال للدفاع عن النفس والوطن يدل دلالة
عميقة على المنع قبل نزول الآية الكريمة: ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ
ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا
أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ، ط٦ ، ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م ، المجلس الأعلى
للشؤون الإسلامية، ص (٤١٧) .

وَبِيعٌ وَصَلَاوَةٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^(١)، حيث إنه ظل ممنوعاً طيلة العهد المكي (ثلاثة عشر عاماً) وبعضاً من العهد المدني (حتى السنة الثانية من الهجرة).

هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن - موطن الدفاع عن النفس والدين - أن ينصح أتباعه بعدم العدوان؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور، لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء، أُحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة في مراعاة العدل مع المحاربين، والاعتداد بالظاهر من أعدائهم؛ مما يُعد مثلاً علياً..^(٢).

لقد اتسم الجهاد في الإسلام بنبل الغاية والوسيلة معاً، فلا غرو أن تكون الآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تماماً في هذا السياق من النبل والوضوح؛ لأن النتائج فرع عن المقدمات، ونلخص هذه الآثار في النقاط التالية:

(١) تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية.

(٢) إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس، وهو الشر الذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

(١) سورة الحج، الآيات (٣٩-٤٠).

(٢) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص (١٦٣).

(٣) إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

(٤) تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

(٥) تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس في أوطانهم^(١).

رد شبهة أن الإسلام انتشر بالسيف :

ونصدّر الرد على هذه الشبهة ببيان هذا الخطاب الإلهي للنبي ﷺ، حين قال الله ﷻ له : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢). فهذا البيان القرآني يعطي لنا وصفاً في منتهى الدقة ، وبالغ الأهمية ؛ إذ إن هذا السميت العام للنبي ﷺ : ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ له إطاره الواسع الكبير ، فهي رحمة تشمل المكان والزمان والأحوال والناس ، فهي رحمة عامة شاملة ، تجلّت مظاهرها في كل موقف لرسول الله ﷺ تجاه الكون والناس من حوله.

كما أن هذا الادعاء قد فطن لبطلانه كاتب غربي كبير هو "توماس كارليل" ، حيث قال في كتابه " الأبطال وعبادة البطولة " ما ترجمته: " إن اتهامه - أي سيدنا محمد ﷺ - بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس ، أو يستجيبوا له ، فإذا آمن به من يقدر على حرب خصومهم ، فقد آمنوا به طائعين مصدقين ،

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين ، ص (٤١٧) .

(٢) سورة الأنبياء ، آية رقم (١٠٧) .

وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدرُوا عليها" (١).

ويقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهده ﷺ وفي عصور الفتوحات من بعده - "قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام إذًا بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند - التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل - ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها، ولم يكن الإسلام أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط" (٢).

هذا وقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل في الإسلام خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء، ولم يكن لدى رسول الله ﷺ ثروة عظيمة يغري بها هؤلاء الداخلين، ولم يكن إلا الدعوة، والدعوة وحدها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تحمّل المسلمون - لاسيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم - من صنوف العذاب وألوان البلاء ما تعجز الجبال الرواسي عن تحمله، فما صرفهم ذلك عن دينهم وما تزعزعت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة في الحق، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقيرهم، وما

(١) الأبطال، توماس كارليل، ترجمة، محمد السباعي، دار الكاتب العربي، ص (٧٦)، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، ط٤، ٢٠٠٥م، دار نهضة مصر، ص (١٦٦).

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة، عادل زعبيتر، ط ٢٠١٣، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص (١٣٤-١٣٥).

سمعنا أن أحداً منهم ارتدَّ سخطاً عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء^(١).

من شروط الجندي :

كان رسول الله ﷺ ينظر في الجنود قبل المعركة، فمن رأى لياقته للقتال أجازهُ، ومن وجده غير لائق ردّه، فابن عمر يقول : عَرَضَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْقِتَالِ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ فَلَمْ يُجْزِنِي، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْخُدَيْقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ فَاجَّازَنِي^(٢)، وقد أجاز الرسول يوم أحد سمرة بن جندب ورافع بن خديج في الرماة وسنهما يومئذ خمسة عشر عاماً^(٣).

وقد أشاد القرآن الكريم بالذين أنفقوا أموالهم وقاتلوا في سبيل الله قبل الفتح، وفضلهم على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، حتى كان أكثر أمراء النبي ﷺ على سراياه من المهاجرين السابقين .

التصرف بحكمة وعدم إفشاء الأسرار :

إن النبي ﷺ بعث سريةً من المهاجرين قوامها اثنا عشر رجلاً بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي؛ للقيام بواجبات استطلاعية، وتوجهت هذه السرية نحو هدفها، ومع قائدتها (رسالة مكتومة)، أمره رسول الله ﷺ ألا يفتحها إلا بعد يومين من مسيره، ومن ثم ينفذ ما جاء فيها، فلَمَّا سَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ يَوْمَئِذٍ فَتَحَ الْكِتَابَ، فَنَظَرَ فِيهِ فَإِذَا فِيهِ: إِذَا نَظَرْتَ فِي

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، ص (٤٠٨-٤١٠) .

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي، (٣٩٥/٣)، وعبون الأثر، (١٢/٢) .

(٣) تاريخ ابن خلدون، (٤٣٤/٢) .

كِتَابِي هَذَا فَاْمُضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا وَتَعَلِّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى نَخْلَةَ، أَرُصِدُ بِهَا قُرَيْشًا، حَتَّى آتِيَهُ مِنْهُمْ يَخْبِرُ، وَقَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ، فَأَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَضَى وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَسَارَعُوا إِلَى تَنْفِيزِهَا فُورًا^(١).

إِذْ فَقَدْ ابْتَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُنَا أَسْلُوبًا جَدِيدًا وَهُوَ الرِّسَالَةُ الْمَكْتُومَةُ؛ لِلْمَحَافِظَةِ عَلَى الْأَسْرَارِ، وَلِحِرْمَانِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْحَصُولِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي تَفِيدُهُمْ عَنْ تَحْرِكَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْدَافِهِمْ وَمَرَامِيهِمْ.

- مَا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ بَلَغَهُ أَنْ طَلِيحَةَ وَسَلْمَةَ ابْنِي خُوَيْلِدٍ كَانَا يُحْرِضَانِ قَوْمَهُمَا (بَنِي أَسَدٍ) لِعُزْوِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ وَنَهَبَ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ يَوْمٍ أَحَدَ شَهْرَيْنِ؛ حَيْثُ أُرْسِلَ ﷺ مَائَةً وَخَمْسِينَ مُسَلِّمًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِقِيَادَةِ سَلْمَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ ﷺ؛ لِلْقِيَامِ عَلَى بَنِي أَسَدٍ قَبْلَ قِيَامِهِمْ بِعُزْوِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ، وَأَمْرِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ بِالسَّيْرِ لَيْلًا، وَالِاسْتِخْفَاءِ نَهَارًا، وَسُلُوكِ طَرِيقٍ غَيْرِ مَطْرُوقَةٍ؛ حَتَّى لَا يَطَّلِعَ أَحَدٌ عَلَى أَخْبَارِهِمْ وَنِيَاتِهِمْ، فَبَاغَتُوا بَنِي أَسَدٍ فِي وَقْتٍ لَا يَتَوَقَّعُونَهُ، وَبَعْدَ تَنْفِيزِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَادُوا بِالْغَنَائِمِ^(٢).

(١) السيرة لابن هشام، (٦٠٢/١)، والدرر في اختصار المغازي والسير، ص (٩٩)، والاكتفاء، (٣٢١/١).

(٢) مغازي الواقدي، (٣٤٠/١-٣٤١).

- وفي يوم (دومة الجندل) قاد النبي ﷺ ألفَ راكبٍ وراجلٍ من المهاجرين والأنصار؛ لمنع القبائل البدوية التي تقطن (دومة الجندل) من قطع الطرق ونهب القوافل، والقضاء على حشودها التي تزمع غزو المدينة المنورة، وخرج رسول الله ﷺ بالمسلمين من المدينة المنورة يكمن بهم نهاراً، ويسير ليلاً، وقد قطع المسلمون هذه المسافة بين المدينة ودومة الجندل بخمس عشرة مرحلة، فلما وصل إليها المسلمون فرّت القبائل خوفاً من لقاءهم، كما فرّ (أهل دومة الجندل) فلم يجد المسلمون أحداً منهم^(١).

- وفي يوم الأحزاب، علم النبي ﷺ أن بني قريظة من يهود قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين، وذلك بعد تطويق المدينة المنورة من عشرة آلاف مقاتل من قريش وغطفان وأشجع وسليم وبني سعد، وتحرّج موقف المسلمين كثيراً، وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل، بعد أن نكث بنو قريظة، فبعث النبي ﷺ رجلاً من المسلمين إلى بني قريظة؛ ليتأكد من انضمام بني قريظة إلى الأحزاب، وأمره ألا يُفصح في حالة نكث بني قريظة؛ خوفاً على معنويات المسلمين من الانهيار، وحتى يستكمل المسلمون إعداد (الخندق) وإكمال استعداداتهم العسكرية قبل أن ينتشر خبر بني قريظة بينهم.

وحين أكمل المسلمون ما أرادوه إعداداً وعُدداً، أخبرهم النبي ﷺ بما كان من أمر قريظة، ليضعهم عند مسؤولياتهم الكاملة دفاعاً عن الدولة،

(١) دلائل النبوة، للبيهقي، (٣/٣٩٠-٣٩١).

ولو أن النبي ﷺ سمح بإذاعة نبأ نكث بني قريظة عهدها قبل أن يُعَدَّ المسلمون كل متطلبات القتال، لانهارت معنويات المسلمين؛ لأن الخطر أصبح يهددهم من داخل المدينة وخارجها^(١).

وغير ذلك كثير من الأمثلة التي تبرز هذا التصرف المحكم من رسول الله ﷺ؛ ليحافظ على قيمة وشرف المعلوماتية التي تتعلق بالجيش والوطن، ومن هنا، فإن من يفشي أسرار جيشه ووطنه، فهو مقصر أعظم التقصير في حق أمته، وليس له من عذر أمام الله ﷻ.

سياسته ﷺ في تجنب القتال :

كان رسول الله ﷺ حريصاً في استراتيجيته التي تتعلق بالقتال على تجنبه والاحتراز منه ومن كل ما يؤدي إليه، ما دام لم يكن صدأً لعدوان، ومن النماذج التي تبرز ذلك، ما يلي :

- توجيه النبي ﷺ إلى عدم التفتيش عما في قلوب الناس، فلو أظهر

أحدُ المقاتلين الشهادةَ أثناء الجهاد، عصم دمه وأمنه^(٢)، ودليل ذلك :

ما جاء عن المقداد بن الأسود (رضي الله عنه) أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِي، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَطَعَهَا، ثُمَّ لَادَ مِنِّي بِشَجْرَةٍ، فَقَالَ: أَسَلَمْتُ لِلَّهِ، أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا تَقْتُلْهُ "، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا، أَفَأَقْتُلُهُ؟،

(١) السيرة، لابن هشام، (٢٣٣/٢) وما بعدها .

(٢) التعايش مع الآخر، ص (١٥٩) .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا تَقْتُلُهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ " (١).

- وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَذْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقَتَلْتَهُ؟". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: " أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟"، فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

- وكان من توجيهه النبي ﷺ أيضاً : عدم اتباع الفار الهارب من المعركة ، وعدم قتل الأسير المستسلم ، فعَنْ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: " أَلَا لَا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ، وَلَا يُجْهَرُ عَلَيَّ جَرِيحٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ " (٢).

- ولقد كان النبي ﷺ يقدم الأسوة الحسنة، والقُدوة الطيبة في كل مفصل من مفاصل الحياة، حتى إنه ﷺ حول غريزة الانتقام إلى أداة فضل ورحمة، فلم يقتصر على النهي عن تعذيب الأسير أو تجويعه، بل امتد إلى الحث على الإحسان إليه وإكرامه ومساواته بالمسكين واليتيم،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان / باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال، لا إله إلا الله، (٩٥/١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب السير، في الإجهاز على الجرحى، واتباع المدبر (٧٩٨/٦).

وبهذا تتحول أحد تبعات الحروب، على الرغم من ضراوتها وقسوتها إلى عبادة يرجو صاحبها رضا الله ﷻ، ويصبح بها من الأبرار، وفي الوقت الذي كانت الدول والممالك من حول دولة الإسلام تقتل الأسير أو تستعبده أو تهينه، وضع الإسلام القواعد والأسس التي يحمي بها الأسير ويصون كرامته وإنسانيته، ومن تطبيقات ذلك أن النبي ﷺ أعطى أسيراً لأبي الهيثم بن التيهان، وأوصاه به خيراً، فقال أبو الهيثم للأسير: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْصَانِي بِكَ خَيْرًا فَأَنْتَ حُرٌّ لِرُؤُوسِهِ اللَّهِ^(١).

* * *

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٣٣٤/٦).

من فقه خطبة الوداع

لقد صاغ النبي ﷺ في كلمات جامعة، ووصايا مركزة من خلال خطبة الوداع الكثير من الحقوق والواجبات للإنسان، ثم إنه ﷺ قد طلب من كل مَنْ شهد الخطبة وسمعها أن يُبلِّغَ من غاب، ومن ثمَّ كانت كل كلمة في هذه الخطبة لا تزال هداية لكل إنسان، على الرغم من تعاقب القرون، واختلاف البيئات، وتمايز الأجناس، فعن أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، فَقَالَ: "لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ، فَإِنَّهُ رَبُّ مَبْلَغٍ يَبْلُغُهُ أَوْعَى لَهُ مِنْ سَامِعٍ" (١).

ومن أبرز الأفكار التي جاءت في خطبة الوداع :

الوحدة في أسمى معانيها؛ حيث نبّه ﷺ الأمة إلى أن تتحرك من الوحدة الإسلامية إلى الوحدة الإنسانية، ومن هنا تبرز قيمة الإنسانية، حيث قال: "أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى" (٢).

وفيها نسخ لكل ما هو جاهلي، وكل ما هو ظالم من الشرائع التي سبقت ظهور الإسلام، حيث قال ﷺ (٣): "وَإِنَّ كُلَّ رَبًّا مَوْضُوعٌ... وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ... إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ".

(١) أخرجه ابن ماجه في أبواب السنة، باب من بلّغ علماً، (١٥٨/١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، (٤٧٤/٣٨).

(٣) تاريخ الطبري (١٥٠/٣-١٥١).

التأكيد على مساواة النساء للرجال في الحقوق والواجبات ، فقد أوصى ﷺ بهن خيراً، بل بدأ بذكر حقهن على الرجال ، لما كنّ عليه من ضعف بالقياس إلى الرجال، فكانت عباراته ﷺ تؤسس لعقد إنساني متبادل، يؤكد من خلاله حق النساء على الرجال، وحق الرجال على النساء، ويظهر ذلك في قوله (١): " وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ ، إِنْ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا " .

- أهمية القدوة ؛ حيث علمنا رسول الله ﷺ أن الإمام هو الإمام في الريادة، فيبدأ بنفسه، وهذا ما نلاحظه فيما جاء من وصايا خلال خطبة الوداع ؛ حيث قال (٢): " وَإِنَّ رَبَّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعُ كُلِّهِ ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُدُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ " .

تحديد المعيار الذي تتحاكم إليه الأمة دائماً وأبداً، وهو الكتاب والسنة، يقول ﷺ (٣): " .. فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ وَتَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ " .

* * *

(١) تاريخ الطبري (٣/١٥٠-١٥١) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

مرض رسول الله ﷺ ووفاته

في أوائل صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة مرض النبي ﷺ بالحمى، واستمر ثلاثة عشر يوماً ينتقل في بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه مرضه استأذن منهن أن يتمرّض في بيت عائشة، فأذن له، ولما تعذّر عليه الخروج إلى الصلاة قال: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ" (١).

ولما رأى الأنصار اشتداد مرضه أطافوا بالمسجد قلقين، فخرج ﷺ معصوب الرأس، يخط برجليه متوكئاً على عليّ بن أبي طالب والفضل، يتقدمهم العباس، حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر، وأحاط به الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "يا أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيما بينهم" إلى أن قال: "ألا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يردّه عليّ غداً فليكف يده ولسانه، إلا فيما ينبغي" (٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب، حَدُّ الْمَرِيضِ أَنْ يَشْهَدَ الْجَمَاعَةَ، (١٣٣/١)،
ومسلم في كتاب الصلاة، بابُ اسْتِخْلَافِ الْإِمَامِ إِذَا عَرَضَ لَهُ عُذْرٌ مِنْ مَرَضٍ وَسَفَرٍ،
وغيرهما مَنْ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، وَأَنَّ مَنْ صَلَّى خَلْفَ إِمَامٍ جَالِسٍ لِعَجْزِهِ عَنِ الْقِيَامِ لَزِمَهُ الْقِيَامُ
إِذَا قَدَرَ عَلَيْهِ، وَنَسَخَ الْقُعُودَ خَلْفَ الْقَاعِدِ فِي حَقِّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْقِيَامِ، (٣١٣/١).

(٢) المواهب اللدنية، بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك
القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(٥٥٧/٣)، وسبل الهدى والرشاد، (٢٥٢/١٢).

وبينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الإثنين ثالث عشر من ربيع الأول، وأبو بكر رضي الله عنه يصلي بهم، إذ برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف سَجَفَ حجرة عائشة رضي الله عنها، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة وتبسم، فظن أبو بكر أن رسول الله يريد أن يخرج للصلاة، فتقهقر إلى الصف، وكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم؛ فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر، ثم حضرته الوفاة ورأسه الشريف على فخذ السيدة عائشة (رضي الله عنها) فقال: اللهم الرفيق الأعلى، " ولم تأت ضحوة ذلك اليوم حتى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحياة الدنيا، ولحق بربه صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه موجوداً في ذلك الوقت بالقرب من منزل عائشة، فلما حضر وأخبر الخبر، دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل يقبله ويبكي، ويقول: صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً، ثم خرج إلى الناس وقال: ألا إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت^(١) .

فאלلهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

(١) السيرة، لابن هشام، (٦٥٦/٢) .

مصادر ومراجع البحث

- ١- الآحاد والمثاني ، لأبي بكر بن أبي عاصم ، وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني ، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، ط ١، ١٤٠٠هـ/١٩٩١م ، دار الراية - الرياض
- ٢- أبعاد إدارية واقتصادية واجتماعية في السيرة النبوية، عبد العزيز بن إبراهيم العمري .
- ٣- الأبطال، توماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي، دار الكاتب العربي.
- ٤- الأحكام السلطانية، للماوردي ، دار الحديث ، القاهرة .
- ٥- الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- ٦- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن العباس المكي الفاكهي، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، ط ٢، ١٤١٤هـ، دار خضر - بيروت.
- ٧- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، للأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس للنشر - بيروت.
- ٨- الاختلاف بين المسلمين مجالاته ودعائمه الخلقية ، د/ جمال فاروق جبريل، ط ٢، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

- ٩- إدارة الأزمات ، د/ محمد الشافعي، ط٢، ٢٠٠٣م، الناشر مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات.
- ١٠- الإدارة الإسلامية في عزّ العرب، محمد كرد علي، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م، مطبعة مصر - القاهرة.
- ١١- الإدارة في عصر الرسول ﷺ، أحمد عجاج كرمي، ط١، ١٤٢٢هـ، دار السلام - القاهرة.
- ١٢- الأدب المفرد ، للبخاري ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- ١٣- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس ، شهاب الدين، ط٧، ١٣٢٣هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر .
- ١٤- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الجيل - بيروت.
- ١٥- الإسراء والمعراج ، محمد متولي الشعراوي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دار الجيل، بيروت - لبنان.
- ١٦- الإسلام والقضايا الاجتماعية المعاصرة، د. نبيل السمالوطي، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- ١٧- الإسلام وقضايا التنمية الشاملة ، دراسة للأبعاد الإيمانية للتنمية، د/ نبيل السمالوطي، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، العدد (٩٦) ، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

- ١٨- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١٩- أعلام النبوة للماوردي، دار الهلال، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
- ٢٠- الإفصاح عن معاني الصحاح، يحيى بن هُبَيْرَة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني، أبو المظفر، عون الدين، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ١٤١٧هـ، دار الوطن.
- ٢١- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، أبو الربيع، ط١، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٢٢- أم النبي، د. بنت الشاطئ، ط١، ١٩٧٢م، دار الهلال.
- ٢٣- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئ، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٢٤- الانتماء واجب ديني وضرورة وطنية، طبعة وزارة الأوقاف ١٩٩٢م.
- ٢٥- البداية والنهاية، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، طبعة مكتبة المعارف - بيروت.
- ٢٦- البلدان، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، تحقيق: يوسف الهادي، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، عالم الكتب، بيروت.

- ٢٧- تاريخ الطبري، ط ٢، ١٣٨٧، دار التراث، بيروت.
- ٢٨- تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ط ٢، ١٩٨٨/هـ ٤٠٨، دار الفكر، بيروت.
- ٢٩- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط ٢، ١٤١٣/هـ ١٩٩٣ م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٣٠- تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: محمد يوسف عدس، ط ٢٠١١ م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ٣١- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، ١٩٨٤ م، الدار التونسية للنشر، تونس.
- ٣٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٣٣- الترايب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، محمد عبد الحَيّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني، تحقيق: عبد الله الخالدي، ط ٢، دار الأرقم، بيروت.
- ٣٤- التسامح في الحضارة الإسلامية، المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٢٥/هـ ٢٠٠٤ م.

- ٣٥- التعايش مع الآخر في ضوء السيرة النبوية، الأسس والمقاصد، د.علي جمعة، ط١، ٢٠١٨م، شركة بروج للأدوات المكتبية والمدرسية، القاهرة.
- ٣٦- التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطي، ط٧، دار النشر: دار المعارف، القاهرة.
- ٣٧- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة.
- ٣٨- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، ط١، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- ٣٩- جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، للسيوطي، تحقيق: مختار إبراهيم الهائج وآخرون، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الأزهر الشريف، القاهرة - جمهورية مصر العربية.
- ٤٠- الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني المعروف بالبُري، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض.
- ٤١- حصاد القلم، د محمد عبد الله دراز، تحقيق: أحمد مصطفى فضلية، ط٢، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م، دار القلم، القاهرة.
- ٤٢- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، ط٢٠١٣، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
- ٤٣- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، ط٦، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

- ٤٤- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، ط٤، ٢٠٠٥م، دار نهضة مصر.
- ٤٥- حماية الكنائس في الإسلام، تقديم د. محمد مختار جمعة، د. شوقي علام، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- ٤٦- خاتم النبيين ﷺ، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، ١٤٢٥هـ، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ٤٧- الخراج وصناعة الكتابة، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج، ط١، ١٩٨١م، دار الرشيد للنشر، بغداد.
- ٤٨- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٤٩- الخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥٠- خواطر الشيخ الشعراوي، مطابع أخبار اليوم بالقاهرة.
- ٥١- الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر.
- ٥٢- دلائل النبوة، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة، تحقيق: محمد محمد الحداد، ط١، ١٤٠٩هـ، دار طيبة، الرياض.
- ٥٣- دلائل النبوة، للبيهقي، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥٤- الدين والوحي والإسلام، مصطفى عبد الرازق، هدية مجلة الأزهر، عدد شهر المحرم ١٤٣٧هـ.
- ٥٥- رسالة التوحيد، محمد عبده، ط٦، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.

- ٥٦- الرسول ﷺ، د. عبد الحلیم محمود، ١٩٧٧م، دار التراث العربی للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٥٧- الروض الأنف فی شرح السیرة النبویة، للسهیلی، ط١، ٤١٢١هـ، دار إحياء التراث العربی، بیروت.
- ٥٨- زاد المسلم للدين والحياة، د محمد عبد الله دراز، ط٣، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م، دار القلم للنشر والتوزيع - القاهرة.
- ٥٩- سبل الهدى والرشاد فی سیرة خیر العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله فی المبدأ والمعاد، محمد بن یوسف الصالحی الشامی، تحقیق وتعلیق: الشیخ عادل أحمد عبد الموجود، الشیخ علي محمد معوض، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، دار الكتب العلمية بیروت، لبنان.
- ٦٠- سمات العصر، د. علي جمعة، ط١، ٢٠٠٦م، دار الفاروق، الجیزة.
- ٦١- سنن ابن ماجه، تحقیق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، دار الرسالة العالمية.
- ٦٢- سنن الدارمي، تحقیق: حسين سليم أسد الداراني، ط١، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.
- ٦٣- السنن الكبرى، للبيهقي، تحقیق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بیروت، لبنان.
- ٦٤- سنن سعيد بن منصور، تحقیق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط١، ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بیروت.

- ٦٥- السيرة الحلبية ، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- ٦٦- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي ، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة.
- ٦٧- السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية ، محمد بن مصطفى بن عبد السلام الديسي، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس، القاهرة، إشراف : الأستاذ الدكتور / عفت الشراوي، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠م.
- ٦٨- السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإياري وعبد الحفيظ الشلبي، ط٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- ٦٩- السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ط١٢، ١٤٢٥هـ ، دار ابن كثير ، دمشق.
- ٧٠- السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد أحمد غلوش، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، مؤسسة الرسالة.
- ٧١- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (المتوفي : ١١٢٢هـ) ، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار الكتب العلمية.

- ٧٢- شرح نهج البلاغة، لأبي حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان.
- ٧٣- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، تحقيق : عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة.
- ٧٤- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٧٥- الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق : إحسان عباس، ط١، ١٩٦٨م، دار صادر، بيروت.
- ٧٦- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ط١، ١٩٥٨م، دار الجهاد، القاهرة.
- ٧٧- على مائدة القرآن الكريم، أ.د محمد مختار الجمعة، ط٢، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- ٧٨- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بدر الدين العيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧٩- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربيعي، أبو الفتح، فتح الدين، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، دار القلم، بيروت.

- ٨٠- عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٨١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ١٣٧٩هـ، دار المعرفة، بيروت.
- ٨٢- فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، دار الشروق.
- ٨٣- فلسفة الحرب والسلام والحكم، د. محمد مختار جمعة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- ٨٤- الفهم المقاصدي للسنة، د. محمد مختار جمعة، ط١، ١٤٤٠هـ/٣، ٢٠١٨م، مطابع وزارة الأوقاف.
- ٨٥- القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، دار الندوة الجديدة بيروت، لبنان.
- ٨٦- الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين بن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ٨٧- كشاف اصطلاحات تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.
- ٨٨- لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، عبد الحق بن سيف الدين ابن سعد الله البخاري الدهلوي الحنفي، تحقيق وتعليق: تقي الدين الندوي، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، دار النوادر، دمشق، سوريا.

- ٨٩- اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون «دراسة محققة للسيرة النبوية»، موسى بن راشد العازمي، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، المكتبة العامرية للإعلان والطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.
- ٩٠- المبسوط، أحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، دار المعرفة، بيروت.
- ٩١- المبعث والمغازي، لإسماعيل بن محمد بن الفضل أبو القاسم التيمي، تحقيق: محمد بن خليفة الربّاح، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، دار ابن حزم، بيروت / لبنان.
- ٩٢- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٩٣- محمد خاتم المرسلين، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.
- ٩٤- المختار من كنوز السنة النبوية، شرح أربعين حديثاً في أصول الدين، د. محمد عبد الله دراز، ط٤، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة.
- ٩٥- مختصر السيرة النبوية، لمغلطاي، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، دار المعارف.
- ٩٦- المختصر الكبير في سيرة الرسول، عز الدين بن بدر الدين بن جماعة الكتاني، تحقيق: سامي مكّي العاني، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، دار البشير للنشر.

- ٩٧- مسند أبي يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، دار المأمون للتراث، دمشق.
- ٩٨- مسند الإمام أحمد، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت.
- ٩٩- مسند الإمام الشافعي، للإمام الشافعي، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ١٠٠- مشروعية الدولة الوطنية، أ.د محمد مختار جمعة، ط٢، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، طبع بمطبعة وزارة الأوقاف.
- ١٠١- المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، لأبي عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري، تحقيق: محمد عظيم الدين، ١٤٠٥هـ، دار النشر، عالم الكتب، بيروت.
- ١٠٢- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١/١٤٠٩هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- ١٠٣- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، عالم الكتب، بيروت.
- ١٠٤- المعجم، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، ط١، ١٤٠٧هـ، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد.

- ١٠٥- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، ط ٢، ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي.
- ١٠٦- معجم علوم القرآن، إبراهيم محمد الجرمي، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، دار القلم، دمشق.
- ١٠٧- معجم مصطلحات التاريخ والحضارة، أنور محمود زناتي، ط ١، ٢٠١١م، دار زهران، الأردن.
- ١٠٨- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة.
- ١٠٩- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين، محمد ابن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، دار الكتب العلمية.
- ١١٠- مفاهيم يجب أن تصحح، د. عبد الله النجار، د. محمد سالم أبو عاصي، مراجعة وتقديم أ.د. محمد مختار جمعة وزير الأوقاف، ط ٧، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، طبع بمطابع وزارة الأوقاف.
- ١١١- المنتقى من السنن المسندة، أبو محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري المجاور بمكة، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت.
- ١١٢- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ط ٢/١٣٩٢هـ، تحقيق: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١١٣- المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود، لمحمود محمد خطاب السبكي، تحقيق: أمين محمود محمد خطاب، ط ١، ١٣٥١هـ-١٣٥٣هـ، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر.

- ١١٤- الموافقات في أصول الفقه، المؤلف: إبراهيم بن موسى الشاطبي اللخمي الغرناطي المالكي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.
- ١١٥- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.
- ١١٦- الموسوعة الكونية الكبرى، د. ماهر أحمد الصواف، ط ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- ١١٧- موسوعة علوم القرآن، عبد القادر محمد منصور، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، دار القلم العربي، حلب.
- ١١٨- نسب قريش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب الزبيري، ط ٣، دار المعارف، القاهرة (١٤/١).
- ١١٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٢٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان.
- ١٢١- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي، ط ١، ١٤١٩هـ، دار الذخائر، القاهرة.

- ١٢٢- وحي القلم : مصطفى صادق عبد الرزاق الرافعي، ط١،
١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية .
- ١٢٣- الوحي المحمدي ، محمد رشيد رضا ، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، المجلس
الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة.
- ١٢٤- وقال الإمام ، د. علي جمعة ، ط ١١ ، ٢٠١٠م ، الوابل الصيب ،
القاهرة .

* * *

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	تقديم : للأستاذ الدكتور/ محمد مختار جمعة وزير الأوقاف.	٥
٢.	تمهيد.	٢٧
٣.	القسم الأول : من الميلاد النبوي إلى الهجرة المشرفة.	٣٥
٤.	الباب الأول : البيان عن صاحب السيرة المشرفة.	٣٧
٥.	الفصل الأول : قبل الميلاد النبوي وحتى مرحلة الشباب .	٣٧
٦.	الفصل الثاني : من مرحلة الشباب إلى العمل.	٦٦
٧.	الباب الثاني : من البعثة إلى الهجرة.	٩٥
٨.	الفصل الأول : نزول الوحي وتبعاته.	٩٧
٩.	الفصل الثاني : النبوة بعد عام الحزن.	١٤٥

١٧٥	القسم الثاني : من الهجرة إلى حجة الوداع.	١٠.
١٧٧	الباب الأول : من فقه الهجرة النبوية.	١١.
١٧٧	الفصل الأول : الهجرة ... وفقه الأمة الواحدة.	١٢.
٢٠١	الفصل الثاني : فقه السيرة النبوية وحل المشكلات.	١٣.
٢٥٣	الباب الثاني : الجوانب الإدارية في السيرة النبوية.	١٤.
٢٥٣	الفصل الأول : شواهد السيرة النبوية في فقه إدارة الموارد البشرية.	١٥.
٢٧١	الفصل الثاني : استراتيجيته ﷺ في صد العدوان.	١٦.
٢٨٧	مصادر ومراجع البحث.	١٧.
٣٠٢	فهرس الموضوعات .	١٨.

* * *

الناشر / المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

رقم الإيداع : ٢٠١٩/١٣٨٧٨